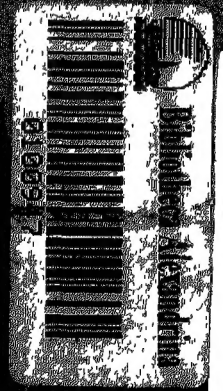


مكتبة

مكتبة

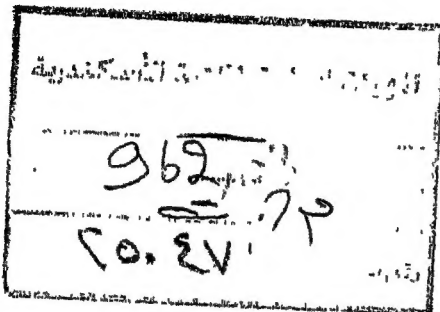
مكتبة



3163^{٥٥}

تأملات في
ثورات مصر
على ضوء قراءات تاريخية
(١)
مقاومة الحملة الفرنسية

محمد عبدالفتاح أبو الفضل



المكتبة العامة لجامعة القاهرة

١٩٩٢

- فى مقاومة المصريين للحملة الفرنسية

- مقاومة الوجود البريطانى بعد جلاء الحملة الفرنسية

- الثورة على بقايا أمراء المماليك بعد جلاء الحملة الفرنسية

- الثورة على الأتراك والوالى التركى بعد جلاء الفرنسيين

- مقاومة الغزو البريطانى (حملة فريزر)

● ● مقدمة

الهدف الأساسى من هذه السلسلة من الدراسات هو إبراز دور الشعب المصرى منذ عرف مقاومة الظلم والاستغلال من خلال الثورات التى مارسها بدءا بمقاومته للحملة الفرنسية ثم للأتراك والماليك وفى النهاية الانجليز فى حملة فريزر مع تناول بعض المواقف التى ترمز فيها هذا الشعب أو جزء منه على الاستبداد والقهر واستغلال الحكام الوطنيين أو المحليين أو الغرباء عنه لدرجة الثورة عليهم وذلك فيما قبل الحملة الفرنسية ثم دراسة للثورة العربية ثم ثورة ١٩١٩ وفى النهاية ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مع تحليل لمكونات الشخصية المصرية التى لم تستسلم أبدا للقهر والظلم رغم صبرها الطويل على المكاره فقد كان الشعب المصرى عقب فشله أو توقفه عن الثورة والتمرد فى كل مرحلة مقهورا بقوة البطش والقهر يضغط على نفسه لفترة قد تطول أو تقصر لأجل استئناف ثورته مرة أخرى دون ان يفقد مقومات شخصيته المصرية المتميزة بالصبر واستمرار التمرد على القهر والذل والاستغلال .

وحيث أن أساس هذا البحث هو ثورات مصر فقد وجب التعريف بظاهرة الثورة وبالظواهر الأخرى للأعمال الإيجابية الشعبية فى مقاومة القهر والاستغلال بدءا من الانتفاضة أو الحركة الى الانقلاب :

— ويمالج الكتاب الأول مقاومة الحملة الفرنسية والثورة على الماليك والأتراك والانجليز ومقاومة الشعب المصرى لحملة فريزر البريطانية .

— ويتناول الكتاب الثانى الثورة العربية فى مقاومة التسلط العثمانى والتدخلات الأجنبية واستبداد الحكام والنظار .

— والكتاب الثالث ثورة ١٩١٩ فى مقاومة الشعب المصرى للمستعمر

البريطاني الذي اعتقد انه شوه تكوين الفرد المصري ولكنه ثار واستمر في ثورته حتى وفاة الزعيم سعد زغلول .

— وفي الكتاب الرابع تصوير للارهاصات الثورية التي بدأت من تاريخ وفاة الزعيم سعد زغلول واتصلت حتى ثورة ٢٣ يوليو .

— أما الكتاب الخامس فيعالج قيام ثورة ٢٣ يوليو حتى نهاية العدوان الثلاثي والتي برز فيه دور المقاومة الشعبية المصرية والعربية بشكل واضح .

— أما الكتاب السادس ففيه التفاعلات المصرية والعربية وبرز ظاهرة القومية العربية ومقاومتها للتبعية الاستعمارية الجديدة حتى وفاة عبد الناصر .

(أ) الانتفاضة أو الحركة

هي الظاهرة التي تحدثها المؤسسة القومية الوطنية لأمة ما بصفتها طليعة الأغلبية المهيمنة وذلك بإحداث حالة من الاحتجاج أو التمرد أو حتى المقاومة الايجابية العلنية والعنفية دون ان تتمكن هذه الحركة من ازالة المؤسسة الحاكمة من مراكزها السيادية ، وغالبا ما يكون هذا القصور نتيجة امتصاص السلطة السيادية المستبدة للضغط الشعبي اما بمزيد من القهر والعنف والردع لتطويل مدة المقاومة الشعبية حتى تمل هذه المقاومة وتضعف وتتخاذل وتبرد بفعل مرور الزمن أو بتعمد السلطة المستبدة الحاكمة الى احداث بعض التغييرات الشكلية والمظهرية الخادعة لارضاء غرور بعض الثوار وغالبا ما تنخدع المؤسسة الوطنية القائدة لهذه الحيل ولكن الغالبية الشعبية لاتنخدع أبدا فقد تغلب على أمرها ويتوقف الكفاح لبعض الوقت ولكن لايعتبر هذا التوقف هو نهاية الكفاح بل هو نواة لاستئناف النضال والجهاد من جديد ومثل هذا العمل الايجابي الذي يحدث بعض التغييرات يطلق عليه انتفاضة أو حركة ولكن جرت العادة والعرف على تسميته ثورة تجاوزا وسيبرز ذلك كثيرا في بعض أجزاء هذا الكتاب .

(ب) الانقلاب

أما اذا تمكنت المؤسسة القومية الوطنية المتجاوبة مع الأغلبية المهيمنة من احداث التغيير في الهيكل الاداري في مؤسسة الأقلية المستغلة الحاكمة وذلك بإزالة الحكومة السابقة من مراكزها الادارية والسياسية السيادية وتبوت هي (أي المؤسسة الوطنية) بنفسها أماكن الحكام السابقين دون احداث تغيير في اسلوب ممارساتهم الظالمة السابقة وذلك بالإبقاء على

علاقات الانتاج وعلى الاسلوب الاقتصادى والسياسى الذى كان سائدا قبل هذه الحركة فيستمر القهر والمعاناة للأغلبية المحكومة رغم تغيير شخصيات الحكام فان مثل هذا العمل الايجابى الذى أحدث هذه الحركة المحدودة هو ما يطلق عليه انقلاب وفى معظم الأحيان فان الانقلابيين بعد استيلائهم على سلطة السيادة تكون ممارساتهم الظالمة الاستغلالية أسوأ من ممارسات سابقهم ويفوقونهم فى الخداع والتزييف .

(ج) الثورة

أما اذا تمكنت المؤسسة الوطنية المعبرة عن أمانى وتطلعات الأغلبية الشعبية من التحرك الايجابى ضد الأقلية المستبدة الحاكمة وأحدثت التغيير الكامل فى قمة السلطة القديمة وازاحت هيكلها الادارى بكامل مؤسساته من سلطة السيادة ثم عملت على اعادة سلطة السيادة للشعب عن طريق اصدار الدساتير والقوانين والتشريعات واللوائح التى تؤكد على العلاقات الادارية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة مع شرط احترام هذه المؤسسة الجديدة لهذه التشريعات فان مثل هذا العمل الايجابى المتكامل هو ما يستحق ان يطلق عليه « ثورة » .

وللعمل الثورى مراحل هى :

أولا : مرحلة استغلال وتحكم واستبداد وظلم الأقلية الحاكمة للأغلبية المحكومة .

ثانيا : مرحلة شعور الأغلبية المحكومة بالمعاناة من ممارسات الأقلية الظالمة المتحكمة .

ثالثا : مرحلة الوعى وتكوين المؤسسة الوطنية التى تقوم بنشر الوعى وتخطط وتقود وتنظم العمل الايجابى القادر على التغيير .

رابعا : العمل الايجابى الكفيل باحداث التغيير الحقيقى فى العلاقات السياسية والاجتماعية لضمان استمرار الحركة السياسية والرفاهية الاجتماعية وما يستلزمها من نظم اقتصادية .

وسنراعى تقسيم الثورات موضوع دراسات هذه السلسلة . على أساس هذه المراحل .

تأملات فى ثورات مصر

على ضوء قراءات تاريخية

الكتاب الأول

مقاومة الحملة الفرنسية

شعب مصر

كباقي الأمم كان من القدام مزيجا من غالب ومغلوب ومن سكان أصليين وغرباء وقد كانت كباقي الأمم منهوبة مظلومة فكانت مصر تطبق الحاكم سواء كان من أبناء البلاد أو من غير أبنائها الى أن يتجاوز الحاكم حد الطاقة فتثور عليه (١) سواء كان من الأجانب أو من المواطنين - ومصر منذ القدم كانت تنفرد بشخصية متميزة في هذه الطبيعة عن باقي الأمم فكان كلما حكمها أجنبي يحاول تطويع شعب مصر للحصول على طاعته فكان دائما يعجز عن تحقيق ذلك الا اذا انتحل ديانتها ومارس عادات المصريين ومراسمهم وعقائدهم . وكان الحاكم الأجنبي يحفظ ماله في أرض مصر ولا ينقله الى عاصمة بلاده الأصلية واذا خالف هذه السنن كان دائما عرضة للمقاومة والانقضاض عليه من المصريين ويكون دائما في خطر وفي حذر من جموحها وانقلابها . ولم تكن مصر أمة مستسلمة تميل الى الخضوع والاستكانة للأجنبي بعكس ما أشاعه أعداؤها عنها على مر الزمن .

وقد اشتهرت مصر تاريخيا بالتمرد ولا يعرف عنها الاستسلام وقد كان للعامل الجغرافي وللعقيدة الدينية والموروثات المصرية والأساطير وظاهرة المؤسسة القومية دخل كبير في تكوين هذه الشخصية المصرية .

(١) المجلد الثامن عشر (تراجم وسير) للأستاذ المقاد ص ١٤ وص ١٥ .

العامل الجغرافى

مصر اقليم تحده حدود واضحة أكدت على مر العصور (٢) وحدته وتكامله فالصحراء الغربية تحده الوادى الزراعى غربا والبحر الأبيض المتوسط يحده شمالا والبحر الأحمر والصحراء الشرقية يحدها شرقا وشلالات النوبة جنوبا وقد أعطى ذلك حدودا ومعالم اجتماعية للشخصية المصرية ، بالإضافة الى انتظام فيضان النيل والذي أوجد نظاما موحدا للرعى مع نظام اتصال يربط الوادى من الجنوب الى الشمال بسهولة للملاحة فى نهر النيل لاعتمادها على التيار من الجنوب الى الشمال وعلى الرياح الشمالية لتسهيل الملاحة من الشمال الى الجنوب ولذلك كان النيل من أدوات الربط المحكم بين أجزاء مصر ومن وسائل توحيدها سياسيا فكان غالبية سكانها من الزراعيين (الفلاحين) أو الصيادين ونسبة قليلة من الرعاة ثم مجتمع حرفى يخدم متطلبات هذا المجتمع ، وكل ذلك كان يتم فى تعاون وترابط وتكامل اجتماعى وعلاقات انتاج دون صراع حاد . وبذلك تمكنت مصر من المحافظة على الوحدة السياسية للبلاد بصرف النظر عن تغيير الأسر والأجناس التى سيطرت على مصر . ونظرا لحدود مصر ببحارها وصحاريها فقد أدى ذلك الى العزلة الجغرافية الطبيعية وبالتالي فان شعب مصر يتميز بالعزلة التى جعلته يغالى فى الشعور بالذات الى حد الاستغراق الذاتى كما ان الشعور المشترك بالأخطار الخارجية المتتايعة جعلته شعبا متماسكا وولد فيه الوعى بالاعتزاز بهذا الوطن وبحدوده منذ القدم - جموع الفلاحين الهائلة التى كانت تحشد من مختلف أنحاء البلاد فى مشاريع السيطرة على النهر أو الرى أو بناء المعابد والقصور والأهرامات أو فى جيوش الدفاع عن البلاد كانوا يتعرفون من بعضهم البعض على النواحي المختلفة من هذا الوطن الذى يجمعهم - كل ذلك حقق طابعا وطنيا عاما يتمثل فى وحدة الديانة والطقوس والمراسيم والعادات والملابس والسكن وأساليب الزراعة ووحدة وانضباط مواسمها وبعض الحرف كصناعة الأوانى والكتان والزيت وغيرها وحقق ذلك حياة قومية موحدة ولغة مشتركة . والمصرى لم يكن يستطيع أبدا أن يعيش حياة فردية حيث كانت القرية هى دائما عالمه حيث يعمل فيها عملا جماعيا يعود عليه فى شئون الرى والسيطرة على الفيضان وحماية زراعته من غارات البدو . وهذه الجماعات كانت تواجه القهر بكثير من التحمل وهذا هو السر فى صبر المصرى الطويل ولكنه كان دائما يتحرك فى الوقت المناسب وبشكل جماعى وبهذه الشخصية كانت تنفرد بقدرتها على التجمع فى لحظة واحدة يحسبها المرء نهاية بينما هى

(٢) الشخصية المصرية الوطنية د . طاهر عبد الحكيم (دار الفكر) ص ٦٢ و ٦٣

و ٦٤ و ٦٥ .

بداية جديدة ويستمد من كل ذلك الثقة بالنفس والقدرة على اكتشاف ذاته وهذا هو الذي جعل مصر لا تقبع أبدا .

العامل الدينى

المصرى الأول كان ينظر الى الشمس التي تلازمه طوال النهار نظره امتنان وتقديس تطورت الى التآليه لقدرتها على انضاج محاصيله ولعدم وجود عناصر أخرى أقوى منها ولذلك اختص الشمس بهذا التقديس ثم انصرف بعد ذلك كل تفكيره فيما هو أبعد من الموت أى البعث وشكل ذلك العناصر الرئيسية (٣) للديانة المصرية القديمة وبمرور الوقت فقد وجد ان هذه العقيدة تعتبر غلاقة فردية تخص الفرد دون حاجة الى وساطة المؤسسة الدينية والتي كانت تتماهى فى احتكار الطقوس الدينية لصالحها تقريبا الى الحكام على حساب المحكومين ولأجل التخلص من تحكم الكهنة ورجال الدين انصرف المصرى وتخلي عن هذه الوساطة الكهنوتية دون أن يرى ذلك انتقاضا من إيمانه . وهذا تفسير لماذا اقترنت بعض ثورات المصريين القدامى بموقف متهم ضد بعض رموزهم الدينية وطالبوا فى بعض هذه الثورات بحقهم فى ممارسة بعض الشعائر الدينية مستقلين حتى عن الفرعون وعن الكهنة . وبالتالي فان هذا يفسر لماذا غير المصريون دياناتهم ومذاهبهم بعد ذلك أكثر من مرة حينما تركوا دياناتهم القديمة واعتنقوا المسيحية ثم الاسلام . ثم تبنا المذهب الشيعى واستعانوا بالفاطميين الشيعيين ضد الدولة الأخشيدية السنية ثم عادوا وثاروا على الفاطميين وعادوا الى المذهب السنى حينما أمسك صلاح الدين الأيوبي بالسلطة المركزية ١١٧١ م وعندما تحول الحكم فى مصر الى المذهب الشيعى على يد الحكام الفاطميين رفض المصريون فيه جانبين مرفوضين من اسلامهم الاصلى وهما : جانب الامامة ، وجانب الموقف العدائى ضد الصحابة . وعندما وجد المصريون أن مصلحة بلادهم ووحدها تدعو الى عدم التعصب للثقة الشعب المصرى أقباطه ومسلموه حول قيادة الثورة العرابية حيث نص البيان الأول لحزب الثورة العرابية « انه حزب سياسى غير دينى » . كما التفت الجماهير بشكل جماعى مسلمون وأقباط حول حزب الوفد ، وقيادته القومية فى الوقت الذى فشلت فيه الأحزاب التى تحالفت مع القيادات الدينية لحساب الخديويين .

الأساطير والشخصية المصرية

ان المتعمق فى الأذب الشعبى المصرى يجد انه بالعودة الى الدولة

(٣) الشخصية المصرية د . طاهر عبد الحكيم ص ٧٨ .

القديمة (٤) والذي يعبر عن معاناة الشعب المصرى من القهر والاستبداد والطغيان والظلم يجد ان الشعب المصرى كان فى أغلب الأحوال يواجهها مجتمعا وليس منفردا بل من خلال مؤسسة وطنية تعبر عن معاناة الغالبية المقهورة وعن آمالها فى أساطيره وهذه هى السمات التى سادت على امتداد تاريخ المصرى قديما ومن أقدم الأمثلة على ذلك :

(أ) أسطورة أوزيريس

والتي تعبر عن أمل الناس ان يولد منهم ولهم من أوزيريس الذى وهب لهم الحياة ومن ايزيس الأم من يخلصهم من الحاكم الظالم الذى قتل أوزيريس الأب وكان المخلص هو ذلك الابن « حورس » والذي نشأ وتربى بعيدا عن عمه الحاكم الظالم الذى قتل أباه أوزيريس وبعد أن شب وترعرع نشب بين حورس وعمه قاتل أبيه الحاكم (ست) صراع انتهى باسترداد عرش أبيه وهذه الأسطورة كان يتوارثها المصريون جيلا بعد جيل .

وكان الشعب يؤمن بأن الملك أوزيريس هو الملك الاله (٥) الذى أضفى عليه المصريون كل الفضائل والصفات الطيبة فهو الذى يثبت دعائم العدل والحقيقة فى كل الأماكن وهو الذى صنع هذه الأرض بيديه وهو الذى يروينا وهو صانع المياه كلها والرياح والغشب والقطعان والطيور والزواحف وذوات الأربع وهو الذى يبدد الظلمة بالضياء وهو الذى يجرى النيل من عرق أصابعه ويهب الناس الحياة من أنفاسه وتنمو فوقه الأشجار والنباتات والحبوب وجميع الثمار .

(ب) نبوءات الكاهن « نفرو هو »

وفى القصص الشعبى المصرى القديم نبوءة (٦) الكاهن « نفرو هو » وفيها إشارة متكررة الى غزو الآسيويين والرعاة فى فترة غزو الهكسوس لمصر فى أواخر الدولة الوسطى . وكانت نبوءات الكاهن « نفرو هو » تنفخ المأ وجسرة وشكوى « انصت يا قلبى الى واقع تلك الأرض التى فيها نشأت لقد أضبحت هذه البلاد خرابا ، قل من يهتم بها ، ولا من يتكلم عنها ولا من يذرف الدمع لقد حجبت الشمس فلا تضى حتى يبصر الناس . . وأصبح نيل مصر جافا فيمكن للانسان أن يخوضه بالقدم . . . وكل

١) (٤) الديانة المصرية القديمة يازوسلاف تشردى ترجمة الدكتور أحمد قدرى ص ١١٧ .

١٢٦ .

(٥) نفس المصدر .

(٦) الشخصية الوطنية المصرية د. طاهر عبد الحكيم ص ٧١ ، ٧٢ ، ١٨٣ .

طبيب إختفى وصارت البلاد طريحة الشقاء « . والجديد فى هذه النبوءات هى الروح المصرية الوطنية التى استثارها وقوع مصر لأول مرة فى قبضة حكام أجنبي « ظهر الأعداء فى مصر فأنحدر الآسيويون الى مصر والبلاد تتألم فالمالك صار فى حاجة والأجنبي أصبح غنيا والأرض قد نقصت وتضاعف عدد حكامها وصارت الحبوب شحيحة فى حين ان المكىال الخاص بجابى الضرائب صار كبيرا وان منطقة عين شمس لن تصير بعد مكان ولادة كل اله « ولكن نبوءته الوطنية والتى تعبر عن نداء الشعب المصرى المقهور فى طلب المخلص من الغزو الأجنبى المستغل تقول « سيأتى ملك من الجنوب اسمه « أمينى » وهو ابن امرأة نوبية (أى من الشعب وليس من سلالة الملوك أو الأمراء أو الكهنة) وقد ولد فى الوجه القبلى - سينشر السلام فى الأرضين (يعنى الوجهين البحرى والقبلى) وسيفرح أهل زمانه ، وسيجعل ابن الانسان اسمه باقيا أبدا الأبدىين ، أما الذين تأمروا بالشر ودبروا الفتنة فسيطبقون أفواههم خوفا منه ، وسيقتل الآسيويين بسيفه وسيحرق الليبيين بلهيبه وسيخضع العصاة لبطشه ، والعدالة ستعود الى مكانها وينفى الظلم من الأرض فهنيئا لمن سرى ذلك « وبذلك صار لأول مرة فى الأدبيات المصرية القديمة تعبير عن الوجدان والوعى الشعبى بأن المخلص سيكون من الشعب وليس فرعون أو من سلالات الآلهة . ليكون الخلاص بأيدي الشعب ولا ينتظرونه من خارج صفوفهم .

(ج) قصة الفلاح المصرى الفصيح (٧)

وملخص شكوى الفلاح المصرى الفصيح هو ان الفلاح المصرى « خون آنوب » من منطقة وادى النطرون حمل حميره ملحا وساقها جنوبا متجها الى « اهناسيا » ليبادل الملح بالقمح حتى اذا وصل الى منطقة « بيرفيوفى » شمالا الى بلدة اسمها (مدينة) وجد هناك رجلا يقف على الشاطئ اسمه « دججوتى نخت » يعمل عند مدير المقاطعة المدعو « رنس مرو » وتحايل الموظف « دججوتى نخت » حتى استولى على حمير الفلاح وحمولتها من الملح بحجة ان الخمير أكلت من قمحه ولما احتج الفلاح انهال عليه الموظف ضربا بعصاة قطعها من شجرة وقال للفلاح « لا ترفع صوتك يا فلاح والا قتلتك » فقال الفلاح « . أتضربنى وتسرق متاعى وتكاد تقتلنى » واستمر الفلاح يشكو أمام باب « دججوتى نخت » لمدة عشرة أيام وحاول اقناعه بزد حميره وبعد أن يئس اضطر أخيرا ان يتوجه الى مدير المقاطعة نفسه (رئيس ديوان فرعون المدعو « رنس مرو » والنسب

(٧) نفس المصدر السابق ص ٧٢ ، ٧٣ وشكوى الفلاح الفصيح منقوشة على بردته فى متحف برلين . كما عثر على سقف حجر جبرى مدون عليها فقرات من شكوى الفلاح الفصيح .

بعد أن حقق في الشكوى أمر برد حميره وحمولتها من الملح ومعاقبة مرؤوسه « دججوتى نخت » . وكانت كلمات الفلاح الفصيح الى مدير المقاطعة تعبيراً صادقا عن الشخصية المصرية حيث جاء فيها « انه يجب على رجال الحكومة ان يقضوا على الظلم ويسيروا العدل ويوفروا الطعام والملبس والدفء لأفراد الشعب وأن يقفوا الى جانب الفقير ضد الظالم فالصالح المؤمن هو من يهتم بأرزاق الناس ويحميهم من المعتدين على أرزاقهم » ثم يحذر الفلاح في شكواه رئيس الديوان الملكي « من انه اذا لم يستجب لشكواه ويقف الى جانبه فان كفة ذنوبه ستكون هي الراجحة يوم الحساب و « معات » الى الحق والعدل لن يخلد الا أنسى من يقيم العدل ، وانه اذا لم يستمع الى شكواه فانه سيسجى منته « بأنوبيس » حامل ميزان العدالة في محكمة أوزوريس في العالم الآخر » . ومن هذه القصص نستطيع أن نتعرف على بعض السمات الأساسية للشخصية المصرية :

أولاً : ان الفلاح عنيد ودؤوب وصبور في صراعه من أجل استعادة حقوقه فبعد عشرة أيام من الصبر على الوقوف أمام باب « دججوتى » يحاول اقناعه برد حميره دون جدوى فيتحول الى السعى لمقابلة المدير ويرده الموظفون ويصورون لرئيس البلاط الأمر بما يتفق مع مصالح زميلهم « دججوتى » الا أن الفلاح لا ييأس ويواصل الجهد حتى ينجح أخيراً في مقابلة المدير « رنس مرو » ويشرح له شكواه بشجاعة .

ثانياً : في كلمات هذه الشكوى نلمس وعى شعبى لما يجب أن تكون عليه أمانة وسياسة وتصرفات الدولة وموظفيها ازاء عامة الشعب .

ثالثاً : في هذه الشكوى ملامح مفهوم دينى يشكل ظاهرة تبرز فيها العقيدة الدينية الشعبية فالفلاح في شكواه يذكر الآلهة ولا يذكر غيرها فالذين يمكن أن يكونوا ذوى نفع له وهم « توت » الحكيم و « معات » آلهة الحق والعدل و « أنوبيس » حامل الميزان في محكمة « أوزوريس » . فالإنسان المصرى في مواجهة الاستبداد والسلطة المركزية لا يقف عند حدود الشكوى والمناجاة بل يتعداها الى الفعل بل الى التمرد والثورة بعكس ما ذاب عليه معظم الباحثين المعاصرين المتحيزين على وصف الفلاح المصرى بالخضوع والسلبية وهذا غير صحيح بالمرة .

رابعاً : ان هذا الفلاح الفصيح لجأ الى المخلص الانسان فى شكل المدير الفرعونى وهدده بالمخلص الاله فى حالة عدم انصافه فهو فى نفس الوقت الذى استنجد بالالهة فى حالة يأسه من الانصاف نال هذا الانصاف على يد المخلص الحاكم العادل وذلك نتيجة نضاله ودأبه فى طلب الحق وشجاعته فى مواجهة الحكام مهما علت مرتبتهم وهدد بانتقام الالهة فى حالة انحياز الحاكم الى الظلم .

(د) المناجاة التى كتبها الكاهن « مع خير وع سنب »

ومنذ ظهورها حوالى عام ٢٠٠٠ ق م شاعت حتى أوائل الدولة الحديثة والتى اتخذت طابع الموالم الشعبى والتى يقول فيها (٨) « كل يوم يستيقظ الرجال فى الصباح لكى يعانون وليس للفقير قوة تنقذه من الذى يفرقه ٠٠ وتمر المصائب كل يوم ولكن أحزان الغد لم تمنص بعد » واكتشف كثيرا مثل هذه المناجاة التى يستنزل فيها كاتبوها باللعنات على فرعون ورجاله وكذلك موقف الانسان المصرى من استبداد السلطة الحاكمة المتحكمة ٠

ظاهرة المؤسسة القومية

فى تاريخ مصر منذ القدم توجد ظاهرة المؤسسات القومية الوطنية فهى ظاهرة متكررة وجاءت نتيجة البنية الاجتماعية المصرية والتى أوجدت « الوعى بالذات ككيان واحد (٩) متماسك لهذا المجتمع والزواج لتأكيد الذات فى مواجهة ما هو خارج عنها وكانت هذه الظاهرة ملموسة بدرجة قوية فى كل مراحل تطور المجتمع المصرى وكانت بمثابة الدرع الواقى الذى تحصن داخله الشخصية المصرية فى مواجهة عوامل متسلطة داخلية أو خارجية وذلك صونا لنفسها أو فى محاولتها للتحرر أو التطور نحو أوضاع أفضل ولذلك نجد ظاهرة المؤسسات القومية فقد كانت منذ القدم ٠

(أ) ديانة أوزوريس أشبه بمؤسسة قومية فى مواجهة كهنة آمون حينما أصبحوا كهنة وحكاما وملكا فى آن واحد ٠

(ب) وكان كهنة آمون عندما هاجروا الى صحراء سيوه بمثابة مؤسسة وطنية فى مواجهة الغزو المقدونى ٠

(ج) وكانت الكنيسة المصرية مؤسسة قومية فى مواجهة الرومان والبيزنطيين وفى الوقت الذى كان يفتقد فيه المجتمع المصرى مثل هذه المؤسسات القومية كانت ثورات الفلاحين هى التعبير القومى عن رفض السيطرة الأجنبية أو الأقلية المحلية المسيطرة ٠

(د) وكانت هناك مؤسسة علماء الأزهر فى مواجهة السيطرة المملوكية ومظالم الحكم العثمانى المتآمر مع النظام المملوكى ٠

(هـ) ثم دور علماء الأزهر فى الرفض ثم الثورة ضد السيطرة

(٨) نفس المصدر السابق ص ٧٤ ٠

(٩) نفس المصدر السابق ص ٩ ٠

الأجنبية في فترة الاحتلال الفرنسي ثم في مواجهة الغزو البريطاني لمصر في معركة رشيد (حملة فريزر) ثم في مواجهة بعض شطحات محمد علي الاستبدادية .

(و) ثم بعد ذلك كان هناك مؤسسة الحزب الوطني الأول . التنظيم السري للثورة العرابية) والحزب الوطني الثاني (مصطفى كامل) ثم حزب الوفد ثم الحركة القومية التي كان يقودها جمال عبد الناصر .

طبيعة الشخصية المصرية (١٠)

١ - مصر أمة طويلة التاريخ قديمة عهد بالمدينة في أرض زراعية .

٢ - مصر ليست أمة بتداوة تتطلع الى الحرب كباب للرزق . أو استعدادا لصد غارات الجار المخيف المعتدى ولكنها أمة حضارة مستقرة . ومنظمة المعيشة ولا تلجأ للحروب الا لأنها ضرورة لا مفر منها اتقاءا لنكبة أكبر أو مصيبة أعظم من الحرب نفسها .

٣ - ومصر أمة لا تطيع حكامها كما يطيع البدوي زعماء طاعة عمياء ولكنها أمة توارثت الديانات والأساطير الأخلاقية جيلا بعد جيل وأصبح كل ذلك تراثا تحافظ عليه أشد من المحافظة على المنفعة والمصلحة . وتغار عليه أشد من غرتها على المال والثروة .

٤ - مصر أمة ذات أرزاق ثابتة ومعيشة مستقلة لا يعينها صلاح الحاكم كما يعينها صلاح مصادر الانتاج وما يؤثر عليها من أرض وسماء ونيل وفيضان أو قحط وعواض وأجواء فإذا دعاها الحاكم الى الحرب فلا يعينها ذلك لأن هذا شأن الحاكم نفسه وليس شأن المصري ذاته ، أما اذا أصيب المصري في عقائده وموروثاته أو جار أحدهم على أرزاقه وعلى مصادر انتاجه عندئذ يستعصى قياده كأشد ما يستعصى قياد أمة وعندئذ تصمد مصر للحرب أشد من صمود المقاتل المحترف .

٥ - اشتهر أهل مصر بالتمرد (١١) على الظلم ولم يشتهروا بالاستسلام والخضوع كوصف بعض أعدائهم الحاقدين والحاسدين لحضارتها . وقد يبدو المصري غير معقول في ثوراته وهياجه المفاجيء .

(١٠) المجلد الثاني عشر للأستاذ العقاد . « سير وتراجم » سعد زغلول ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ .
(١١) نفس المصدر السابق .

لدرجة أنه في جميع ثوراته كان محل تعجب من باقى الأمم قائلين « أمثل هذا الشعب الوداع المستقر يثور كل هذه الثورة الغير متوقعة ؟ » ، فالمصرى يستمتع بفرصة التمرد والثورة بعد طول التحمل للفهر ويسترسل فى هذا الاستمتاع الى أمد بعيد . ويرجع ذلك الى قوة تحمله وصبره على المكاره والقهر ولكن الى حين مثله فى ذلك مثل نهر النيل شريان حياته حيث يخرج من منابعه هادئا وديعا مستسلما لمجراه مادام المجرى سهلا كريما ولكن عندما تعترضه السدود والشلالات والجنادل يثور ويفور ويتغلب على أشق المواقع ويتحائل عليها ويحدث بقوة وفورانه طريقا ينحته بين الصخور ليخرج منتصرا مصمما على السير الى أهدافه .

٦ - الشعب المصرى مجبول على حب الأسرة ومولع بمنزله وببيته (١٢) ويحافظ على صلات الرحم وعلى العلاقات الأسرية والأخلاق السائدة والأسرة عنده عظيمة الشأن وذلك واضح فى آداب ومأثورات قدماء المصريين ففي وصايا « بتاح حتب » يقول الوزير لتلميذه « اذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب قرينتك الحب الجميل ، وأطعمها واكسها وادخل السرور على قلبها طول حياتها » كذلك جاء فى وصية « عانى » - محفوظة فى مخطوطات الأسرة الثانية والعشرين يقول الحكيم « اتخذ لك زوجة فى شبابك لتنجب لك ولدا تربيته وأنت فى حياتك وتعيش حتى تراه فى عداد الرجال ، وما أسعد الرجل الذى له عشيرة كبيرة ، فان الناس يوقرونه من أجل بنيه » . وفى هذه الوصايا يقول الحكيم أيضا « ضاعف لأهلك خبزها واحملها كما حملتك ... وظل ثديها ثلاث سنوات فى فمك ... وهى لم تأنف من تنظيفك ... الخ » .

فهذه الرحمة البيئية قديمة ولم تتغير الى وقتنا هذا .

٧ - والمصرى اجتماعى من ناحية الأسرة (١٣) وبسبب عراقة المعيشة الحضرية التى كان يعيشها يحكم بيئته الجغرافية والاجتماعية والمعيشية وبذلك فهو اجتماعى من ناحية النظام العادات وانتظام العلاقات منذ أجيال وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع سواء عندما كان مجتمعه هو العشيرة ثم عندما تطور الى أمه ثم بالحياة القومية فكان ارتباطه بالمجتمع أقوى من ارتباطه بالنظام السياسى والمراسيم الحكومية .

٨ - المصرى جبل على الصدود عن الحكومة والنظر اليها دائما بعين الشك ، وأقصى ما يعرفه المصرى من أمر الحكومة انها شئ يجب ان.

(١٢) نفس المصدر السابق ص ٣٢ .

(١٣) نفس المصدر السابق ص ٣٣ .

يناديه ويستفيد من سطوته وجاهه وسلطانه ما تيسرت الفائدة ، ولا بأس لديه أن يرضيها بالهدايا والمجاملات حتى على شكل ضرائب أو التزامات أو حتى سخرة فالحكومة لديه شر لأبد منه ولا مانع لديه من التظاهر بمجاراتها ومسايرتها كما كان يجارى ويساير آلهة الشر ويتزلف إليها بالصلوات والقرايين •

٩ - المصرى دائما يتظاهر انه منقاد فى السياسة والحقيقة انه على وعى كامل بأبعاد ما ينفعه وما يضره من هذه السياسة لأنه غالبا ما يبقى فى الصفوف لأنه يفضل ذلك عن الوحدة والتفرد ولأنه حتى فى ثورته أو قتاله يفضل ان يكون بين الصفوف ويراها ويحسها حوله ولا يريد ان يكافح أو يقاتل أو يقاوم أو حتى يسير فى الطريق وحده •

١٠ - يقال أن المصرى ساذج ويتظاهر بالغفلة فى بعض الأحيان تمويهها وبخاصة على حكامه الأجانب وأصدق مثل على ذلك بعض الأفراد الذين يتخذون الدروشة اسلوبا لحياتهم حول المساجد والمزارات وفى الموالد ويتظاهرون بالبلاهة والغفلة ويخلطون فى كلامهم بين الحكمة والهلوسة واستمروا سنين طويلة يقودون حملات الكراهية للحكام المتحكمين الغرباء عن المصريين من مماليك وأتراك الذين كانوا يقدون عليهم العطايا والصدقات ولا يفهمون كلامهم ولغظهم ولكن الشعب المصرى هو الوحيد الذى يفهم وبعمق ما يقصدون ويفرق بين هلوستهم وحكمتهم ودعوتهم فى أثناء اذكارهم وأناشيدهم فكانوا فى الحقيقة دعاة تمرد وثورة وهياج ضد القهر والظلم والتحكم ويخلطون بين السذاجة والشيطنة والوعى الكامل فى اسلوب عميق بالدعوة للثورة لا يفهم أبعاده الا المصرى الصميم الذى يبدو للظالم وكأنه فى غيبوبه •

١١ - الذهن المصرى عملى واقعى ومنطقي فى نظرته الى الدنيا (١٤) وحكمه على الأمور والناس شأن أبناء الأمم الزراعية فالغلة والأرض والنيل والفيضان والقحط والكوارث كلها لديه من الوقائع المحسوسة المحسوبة عقليا ولا تتصل بعالم الغيب • وليس أدل على ذلك من أمثلة الفلاح المصرى عند تعليقه على تسلسل الوقائع فى تسلسل الشهور القبطية من أمثلة بليغة صادقة عن التغيرات الجوية ومطابقة لتغير الفصول (١٥) لا يتصل بعالم الغيب حيث كان من الأزل يتطلع الى التدين والايمان والانتظار فى أناة وبشء يبدو أنه تسليم ولكنه تبعاً لموروثات وأساطير ومعتقدات وعادات حتى استغرق فى عالمه السماوى ولكنه جعله عالماً أرضياً عملياً

(١٤) نفس المصدر السابق ص ٣٥ •

(١٥) الأمثلة العامية التى تصاحب أسماء الأشهر القبطية يضبط بها الفلاح عمله الزراعى طبقاً لبرنامج الطبيعة من أمطار وبرد ورطوبة ورياح وهبوب وغلالة •

ملموسا على الأرض ايمانا منه بالبعث حيث كان يحنط جثث موتاه
ويزودهم في مقابرهم باللائم من المأكولات وباللائم للحياة الثانية انتظارا
للبعث .

١٢ - المصرى فى حياته عامل مجد وفى الوقت نفسه عملى . فى
نظرته الى الحياة يعشق أرضه ويستكين الى تراب وطنه ولا يعشق الهجرة
كباقي سكان معظم البلاد الأخرى حيث اعتاد الانتظار وتحمله كما ينتظر
المواسم الزراعية .

وينتظر كل شيء فى أوانه فهو صبور طويل البال لا يعجل بالشر
ولا يتعجل الانتقام ولكنه يصبر لينتقم فى الوقت المناسب أو ينتظر عدوه
اما ان يرجل عنه طواعية أو ينتظر عدوه مصابا يداهم على يده غيره وهو
لا يقنع فى الثأر بما دون آيلاام والإيجاع . وهذا الصبر الفردى ينعكس
أيضا على الصبر الأسرى .

١٣ - المصرى يعتز بالشهامة ويقدرها . ويتمسك بها وينجد الملهوف
ويحمى المستجير وينصر الضعيف المغلوب على أمره ويكره الظلم والظالمين
لذلك كانت سخريته فى تعليقاته وقفشاتة ونكاته تنصب كلها على
مهاجمة الفطرسه والغفلة فمثال الرجل الكامل عندهم هو اللبق اليقظ
الذى يتجنب الخشونة ويفطن الى الخداع والمراوغة ولا تجور عليه الحيلة
ويرجع معظم هذه الطباع الى كثرة تحمله للمظالم وذلك أحوجه الى الحيلة
وحسن التخلص من الشرور واضطراره الى التصرف بحذر وبكياسة توافق
مصلحته وتليق بأدابه وموروثاته وتحميه من جشع وغش التجار الغرباء .

مصر الثائرة

لكل ما ذكرناه من أبعاد وطبيعة وعوامل تكوين الشخصية المصرية
فانها شخصية جبلت على الصبر على المكاره ولكنها لاتسكت الى مالانهاية
على الظلم ولكنها تقاوم القهر والظلم وتتمرد فجأة بشكل مبالغ فيه على
غير انتظار من المستبددين الظالمين ويرجع الفضل فى ذلك الى تمسكها
بهذه الصفات . ولما كانت مصر بخيراتها ومكوناتها وسماحة أهلها فقد
كانت مطمعا لحكامها من الأجانب والأصليين وتعرضت لكثير من استغلال
هؤلاء الحكام لمستوى الظلم والاشتداد القهر الذى لا يحتمل فلم يتوقف
الانسان المصرى عن التمرد ضد استبداد السلطة المركزية ولم يقف عند
حدود الشكوى والمناجاة بل تعداها الى التمرد والثورة دفاعا عن مصالحه
الاجتماعية والاقتصادية وتعددت هذه الثورات على مر التاريخ .

١ - الثورة الفلاحية الأولى حوالى عام ٢٢٨٠ ق م (١٦)

فى عهد آخر ملوك الأسرة السادسة (بيبى الثامن) شهدت مصر فيها ثورة الفلاحين الشاملة وفيها امتنع الفلاحون عن دفع الضرائب وهجموا على مخازن الحكومة واستولوا على ما بها واقتحموا المكاتب الحكومية وبعثروا محتوياتها واتفوا سجلات الحاكم وقتلوا موظفى الدولة ومزقوا برديات القوانين فى الطرقات وأحرقوا قصور الملك والأغنياء وفتحوا قبورهم وبعثروا أشلاءهم . وجاء فى بردية « نفرتى » تصوير للأحوال التى أدت الى اندلاع هذه الثورة يقول فيها « انظروا الى الصناعات التى لا يعملون ، فقد أضاع أعداء البلاد ما فيها من حرف . ان الذى يحصله الحصاد لا يعلم عنه شيئا وذلك الذى لم يحصله يملأ مخازنه بالغلال وحيث ان هذه الثورة كانت ضد تأمر الكهنة مع الحكومة المركزية ضد مصلحة الشعب فقد حققت هذه الثورة مكاسب للفلاحين فى الاتجاه للاستقلال عن المؤسسة الدينية الرسمية المستغلة فصار من حق الفلاحين ان يبنوا المقابر لموتاهم وان يشاركوا فى المراكب الدينية وحق استخدام الرموز الدينية التى كانت مقصورة على الملوك وكانت حكرا عليهم . وهذا النزوع الى الاستقلال فى العلاقات الدينية كان انتقاما من سلطة المؤسسة الدينية الرسمية والتى كانت ترفع الملوك الى مستوى الآلهة .

٢ - اضراب الفلاحين بالمحاجر (١٣٥٠ - ١٢٠٠ ق م)

فى أيام رمسيس الثانى ثانى ملوك الأسرة التاسعة عشر أضرب الفلاحون المجندون للعمل فى المحاجر وتوقفوا عن العمل لسوء معاملتهم واستغلالهم واضطر رمسيس الثانى ان يتوجه اليهم فى مقر العمل ويلقى فيهم خطابا يضمنه ما يمكن ان نعتبره أول قانون عمل فى التاريخ حدد فيه رمسيس للعمال حقوقهم فى الطعام والماء البارد للشرب وفى الملابس والعطر وحدد مدة العمل بشهر واحد بالتناوب لكل فلاح وحق أهلهم سواء كانوا فى الوجه البحرى أو الوجه القبلى فى الحصول على الحبوب والفول والملح وما الى ذلك .

٣ - ثورة عمال المقابر (١١٦١ ق م)

فى عهد رمسيس الثالث توقف الفلاحون أثناء بناء المقابر الملكية عن العمل بسبب قلة الطعام الذى كان يصرف لهم ولم يعودوا الى العمل الا بعد أن صرفت لهم مخصصاتهم كاملة . وقد حققت هذه الثورات

(١٦) الشخصية الوطنية للصيرية د . طاهر عبد الحكيم ص ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ .

مكاسب أخرى لهم فأصبح لهؤلاء العمال ولكل العامة من المواطنين الحق
فى ادخال أبنائهم المدارس المخصصة لأولاد الموظفين .

٤ - حرب احمس (١٥٠٠ ق م)

على اعتبار ان هذه الحرب كانت حرب تحرير ضد الغزاة
الهكسوس فانها كانت تعتبر ثورة . وقد شن احمس هذه الحرب
التحريرية ضد الغزاة الهكسوس (١٥٠٠ ق م) فكانت ثورة
تحرر وطنى .

٥ - حرب بساماتيك (حوالى ٦٦٣ ق م)

والتي شنها بساماتيك لتحرير مصر من الآشوريين .

٦ - ثورات فى عهد البطالسة (من ٣٣٢ الى ٣٠ ق م)

فى أثناء حكم البطالسة الاغريق على مدى ٣٠٠ سنة كانت هناك
ثلاث ثورات تحريرية ضد البطالسة بقيادة أمراء طيبة .

٧ - حريق الاسكندرية (١٧)

عندما نزل الرومان شواطئ الاسكندرية قام الشعب المصرى
بإشعال النيران فى الاسكندرية لمقاومة هذا الغزو .

٨ - ثورات المسيحية المصرية

كانت المسيحية المصرية عبسارة عن ثورة وطنية دائمة ضد حكم
الرومان والبيزنطيين (٣٠ ق م الى ٦٤٠ م) .

ثورات مصر فى العصر الحديث

لكى نتفهم ثورات مصر فى العصر الحديث وهو عصر التوسّع
الاستعماري الأجنبي الطامع فى مصر فعلىنا ان نتفهم فى ايجاز الغزوات
التي تعرضت لها مصر والثورات التي اندلعت بها نتيجة هذه الأطماع
الاستعمارية وما مارسه فى مصر من نهب وظلم واستبداد وعدوان على
مقدسات البلاد ويمكن دراسة هذا التاريخ على ضوء السياسة الدولية
وعلاقتها بهذه الظروف التي مرت على مصر . وهذه الدراسة تعتبر المدخل
الأساسى لفهم الأحداث التاريخية فمنذ الحرب الصليبية والغرب يؤمن بأن
من يملك مصر يملك مفتاح الباب الذي يؤدى للسيطرة على وسائل النقل

(١٧) خطط على مبارك جزء ٨ ص ٣٤ .

البرى بين البحرين الأبيض والأحمر (قبل شق قناة السويس) وأصبح الغرب من وقتها يتربص ويخطط لغزو مصر والسيطرة عليها لما تتمتع به مصر من مركز جغرافى ممتاز وزعامة روحية اسلامية فكان الغرب منذ هذا التاريخ يتلمس الأسباب والعلل للاستيلاء على مصر تحت أكثر من ستار . فلم تكن مشروعات غزو مصر الا الانفجار الطبيعى لهذه الأفكار بحيث اعتبر الغرب ان مصر هي أقرب غنيمة يستهدفها فى زحفه نحو الشرق . وحرص الاستعمار على خلق جو لتحقيق خطط الغزو واعتقد ان فى مقدوره غزو مصر عن طريق الرشوة ونشر الفساد وتدمير المؤامرات وتحريض طوائف المصريين بعضهم على بعض وبذلك لا يعدم الوسيلة التى تهرر لتدخله لتحقيق أهدافه . وكان الاستعمار يرى ان من يغزو مصر تتحقق له السيادة على الشرق ويكون له مركزا ممتازا يمكنه من فرض سيادته على جزء كبير من العالم حيث يمكنه وضع يده على وسائل التوسع فى أفريقيا . لذلك كان غزو مصر عبارة عن منافسة دائمة بين فرنسا وانجلترا ، وكانت بريطانيا أكثر الدول الاستعمارية حرصا على انفرادها بغزو مصر لأجل حماية مستعمراتها فى آسيا والهند بصفة خاصة . ولم تكن الحملة الفرنسية ١٧٩٨ بقيادة بوناپرت والحملة البريطانية بقيادة فريزر ١٨٠٧ الا تعبيرا عن هذه المنافسة واستمر ذلك حتى جاء محمد على واستولى على حكم مصر وعمل منها دولة قوية عسكريا واقتصاديا تأجل فى هذه الفترة التدخل الغربى فى شئون مصر ولكن لم تتوقف الأطماع الاستعمارية فأعادت الممارسات الاستعمارية والتدبيرات لاعادة غزو مصر بعد أن تأكدت من ضعف شئون مصر وضعف السلطة العثمانية. المفروض أن مصر كانت خاضعة لها فكانت التدخلات الأجنبية السافرة منذ حكم الخديوى اسماعيل وكان ذروتها الخلل الاقتصادى والسياسى وحكم توفيق مما تسبب فى :

١ - الثورة العربية

وهى ثورة المصريين فى مواجهة التدخل الأجنبى وسيطرته على خديوى مصر بما يضر بمصالح الأمة المصرية .

٢ - ثورة ١٩١٩

وفىها ثار المصريون على الاحتلال البريطانى الذى هزم الجيش المصرى وقضى مؤقتا على الثورة العربية ومارس أسوأ أنواع القهر والاهانة والاستهانة بمقومات الشخصية المصرية . وقد حققت ثورة ١٩١٩ الكثير حتى انتكست نتيجة المؤامرة البريطانية والمخطط البريطانى الطويل النفس . والذى كان قمته مؤامرة قتل سردار الجيش المصرى وحاكم السودان .

٣ - ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

وفيها ثار الشعب المصرى على الاحتلال البريطانى وعلى ملك البلاد والأحزاب المصرية التى كانت هى والملك يعاونون الاحتلال البريطانى بشكل أو بآخر على استمرار البقاء واحتلال البلاد .

٤ - ومن قبل ذلك كانت ثورة المصريين ضد الحملة الفرنسية .

٥ - وكذلك ثورة شعب مصر فى رشيد ضد حملة فريزر .

تمهيد واجب

ان المقاومة الشعبية التي اندلعت في مصر بعد أيام قلائل من احتلال الجيوش الفرنسية للقاهرة ومصر منذ يوليو ١٧٩٨ حتى أكتوبر ١٨٠١ (ثلاثة سنوات وثلاثة أشهر فقط) كانت هذه المقاومة الشعبية عبارة عن حرب تحرير للتخلص من القهر الأجنبي وحيث ان حروب التحرير تعتبر بجميع المقاييس ثورة على القهر والاستغلال والتحكم ولأجل فهم أبعاد هذه الثورة التي عبرت عنها المقاومة الشعبية في مواجهة الحملة الفرنسية بعد ان قضى الغزو الفرنسى على المكانة السيادية لطبقة أمراء المماليك وعلى المظهر السلطاني العثماني على البلاد وأصبح الشعب مباشرة في مواجهة مع المحتل الفرنسى ، لذلك وجدت من اللازم كتمهيد لهذه الثورة المصرية ان أتناول وصفا للمجتمع المصرى وتنظيمه الادارى والسياسى والاقتصادى وعلاقة مصر قبل الحملة الفرنسية بالدول المجاورة والقريبة منها وبخاصة الدولة العثمانية . لذلك كان من الواجب تحليل جذور مختلف قطاعات سكان مصر فيما قبل الحملة الفرنسية من غرباء وسكان أصليين ، من حكام ومحكومين وهذه ضرورة لازمة قبل تناول ثورات مصر في هذه الفترة بأقاليمها وعواصمها وثورتي القاهرة الأولى والثانية في مواجهة الحملة الفرنسية على ضوء تعريف الثورة وتقسيمها الى مراحل :

مصر وحكم العثمانيين

بعد استيلاء السلطان سليم العثماني على مصر (١٥١٧ م) (٩٢٣ هـ) وانتصاره على جيوش السلطان الغوري في مرج دابق ثم انتصاره على خليفته طومان باي في معركة الريدانية لم يمكث السلطان سليم في مصر الا حوالي ثمانية أشهر فقط عاد بعدها الى مقر الامبراطورية العثمانية (١٨) ليحكم قبضته على أطرافها المترامية . وقبل ان يغادر مصر انشأ نظاما سياسيا جديدا للحكم في مصر استمر هذا النظام من ١٥١٧ م الى ١٧٩٥ م حتى انه عندما أراد نابليون تنظيم ادارة الحكم في مصر درس واستفاد من النظام الذي وضعه سليم الأول ولكن بسيطرة فرنسية . وقد كان التنظيم السياسي والاداري الذي انشأه السلطان سليم يحقق دوام سيطرة الدولة العثمانية على الحكم في مصر واستمرار تبعيتها لتاج السلطان العثماني فكان التنظيم كالاتي (١٩) :

أولا : الوالي التركي ويلقب بالباشا

وكان بمثابة السلطان ومقره القلعة ويبلغ أوامر السلطان لرجال الحكومة ويراقب تنفيذها ولكن سلطانه كان مقيدا أو محدودا لمدة سنة هالم يصدر فرمان بتجديدها .

ثانيا : رؤساء الجند وهي الفرق العثمانية ووظيفتهم كانت حفظ

(١٨) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر للأستاذ الراحل جزء أول ص ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ .
(١٩) بعض المراجع التاريخية تنسب هذا التنظيم الى السلطان سليمان الذي سن للدولة العثمانية نظمها وقوانينها والذي لقب لذلك بسليمان القانوني .

النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وكانوا موزعين بين القاهرة ومعظم المدن ومنظمين فى ستة فرق . وبعد ان استقر هذا النظام انتظم فى هذه الفرق (الوجاقات) كثير من المصريين واندمجوا فيه وأصبح لها صبغة محلية وهى :

١ - وجاق المتفرقة

وكان أفرادها من خيرة حرس الباشا وبعض البكوات وبعض سراة التجار المناصرين للباشا ومن بعض الجند من الوجاقات الأخرى .

٢ - وجاق الانكشارية (٢٠)

ويسمون بالمستحفظان (المستحفظين) بمعنى حفظ الأمن ورئيسه يسمى (٢١) « الأغا » (أغا الانكشارية) أى القائد للحامية العسكرية ومع الزمن أصبح أهم الوجاقات ثم مع مرور الزمن دخل هذا الوجاق العنصر المصرى خصوصاً بعد ان انصرفت تركيا عن ارسال الجنود العثمانيين الى مصر فى عهد نقيصر الامبراطورية وحتى الأتراك الأصليين من أفراد هذا الوجاق ومع الزمن استوطنوا مصر واندمجت سلالاتهم مع أهلها . وكان الانكشارية جيشاً غريباً وأساس عناصره فى بادىء الأمر أطفال أيتام يؤخذون من أبناء الأسرى وشهداء الجند العثمانية فيصبحون من أولاد « الباويشاه » أى السلطان (٢٢) ويقضون طفولتهم فى التدريب الخلقى والدينى والعسكرى بلا انتماءات الا للعقيدة الاسلامية ولا ولاء الا للدولة العثمانية ولا ملكية لهم الا سلطانية الشورى (الحساء) . والشورى كلمة تركية مشتقة فى الأصل التركى من أصل عربى « شربة » وحتى أصبح رئيس أركان حرب يطلق عليه « شوربجي باشا » أى الذى له الحق فى إعطاء الأمر بعمل الشورى . وهذه هى الانكشارية التى ضمت أكثر من خمسة ملايين من غير الأتراك خلال ٣٠٠ سنة وهم الذين أسسوا ببطولاتهم وأخلاقياتهم مجد الامبراطورية العثمانية . ولكن فيما قبل الحملة الفرنسية مباشرة كان حالهم قد تدهور تماماً مع تدهور الدولة العثمانية .

٣ - وجاق العزب

وهم من المشاه وكان دائم التنافس مع وجاق الانكشارية .

(٢٠) وأشهر سلالاتهم هى الأسر التى اشتهرت بلقب (الجندى) .

(٢١) حوار فى أنقرة للأستاذ جلال كشك ص ٢٥ .

(٢٢) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الراحل جزء أول ص ٣١ الى ص ٣٤ .

٤ - وجاق الاسباهية

وهم من الفرسان ومستقلة عن الباشا الوالى واندماج فيه بعد ذلك وجاق الشراكسة .

٥ - وجاق الشاوشية

وهو من الجند المشاة ومنهم بعض النساء اللاتى توفى أزواجهن أثناء الخدمة العسكرية .

٦ - وجاق الهجانة

وكان واجبه حراسة الحدود .

٧ - وجاق التفكجية

المسئول عن صيانة الأسلحة .

وكان يطلق على أكبر الضباط (الأغا) أى رئيس الفرقة ونائبه يسمى (الكخيا) أو (الكتخدا) وأقدم ضابط يسمى (باش اختيار) والدفتردار هو رئيس الشئون الادارية والمالية وضبط الخراج والدخل ويبيده ملكية الأراضى والعقارات فى سجلات وكانت وظيفته تشبه وظيفة وزير المالية . و (الخازندار) أى أمين المخازن وحامل الخراج سنويا الى الاستانة و (الروزنامجى) وهو المكلف بحفظ السجلات .

ثالثا : مجلس شورى الباشا (الديوان)

يتكون من اجتماع رؤساء وضباط هذه الفرق (الوجاقات) (رؤساء الجند) وكان لهذا المجلس سلطات كثيرة لأن الباشا (الولى) لا يستطيع ان يبرم أمرا الا بموافقة أعضاء الديوان واذا وقع خلاف بين الباشا ورؤساء الجند أو الوجاقات يرفع الأمر الى السلطان فى الاستانة ولأعضاء الديوان الحق فى ان يطلبوا عزل الولى فسلطة أعضاء الوجاقات بمثابة الرقابة والاشراف على سلطة الولى .

رابعا - الأمراء المماليك

أوجد السلطان سليم بجانب سلطة الولى ورؤساء الجند سلطة ثالثة تحفظ التوازن بين الاثنين وهى سلطة الأمراء المماليك فكان منهم حكام المديريات (الأمراء المصرية) وكانت البلاد مقسمة الى خمس مديريات (سنجقيات) وهى جرجا والغربية والشرقية والمنوفية والبحيرة وحكامها

الممالك يطلق على كل منهم (سنجق) أما مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم فكان يطلق على حكامها (الكشاف) وهم وكلاء البكوات في حكم المديريات وكان الكشاف أقل رتبة من السنجق وكان لكل مديرية ديوان خاص بها مؤلف من الشوربجية (أركان حرب الانكشارية وغيرهم من الوجاقات) ووضعهم استشاري مظهرى فقط .

القبودانات

كانوا ثلاثة قباطين لثغور دمياط والسويس والاسكندرية . وكان تعيين الكاتخدا أو قباطين الثغور يصدر بها مرسوم من السلطان في الاستئانة أما باقي البكوات والسنجاق فيعينهم الديوان بتصديق الوالى نيابة عن السلطان وكان عدد البكوات في مصر ٢٤ بيكا من أمراء الممالك (السناجق والكشافين) وكان الممالك الذين حدد السلطان سليم أمراءهم (السناجق) وهم بقايا دولة الممالك :

(أ) دولة الممالك البحرية (٢٣)

وأصلهم من صبيان وغلان سكان أواسط آسيا وشمالها ممن كانوا يقعون في الأسر مع أسرهم في أيدي الغزاة التتار فيباعون في أسواق الرقيق حيث كان التتار يندفعون أمام الأتراك في أراضي روسيا وقد اشترى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي الكثير منهم وجعلهم خاصة جنده وحاشيته في مصر (الدولة الأيوبية) وأسكنهم جزيرة الروضة وكان النيل في هذه المنطقة يطلق عليه البحر الأعظم ولذا سموهم الممالك البحرية وأقام هناك « دار الصناعة » للسفن وقد تطور اسمها بالأفرنجية الى دارسنا ثم عادت الى العربية العامة « ترسانة » وكذلك أمير البحر التى صارت « ادميرال » .

(ب) دولة الممالك البرجية

وأصلهم من بلاد الشركس (شمال شرق تركيا) (٢٤) وهم مشهورين بالجمال (والقوقاز وقد اشتراهم وأحضرهم السلطان المنصور قلاوون وعهد اليهم حماية القلاع بالترس في الأبراج فسموا بالبرجية (أو ملوك الشراكسة) وجعل منهم السلطان ٢٤ (بيكا) أو (سنجقا) وهو السلطان سليم وألف منهم فى نظامه (الادارة المحلية) للبلاد وكان منهم أيضا كبار موظفى الحكومة مثل الكخيا (نائب الوالى) والدفتردار (وزير المالية)

(٢٣) تاريخ الحركة القومية جزء اول للأستاذ الرافعى ص ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ .

(٢٤) ومصطلح البرجية يعود الى أبراج القلعة التى كانوا يدرسون فيها الدين وفنون القتال .

ومستول عن سجلات الملكية وانتقالها وحجج الوقف • (وأمير الحج)
لرافقة الحجاج وتوزيع الصدقات وهدايا الحرمين الشريفين ومع استمرار
تدرج بدهور السيطرة العثمانية على مصر كانت تتزايد سلطات البكوات
المماليك • فأحكم البكوات المماليك قبضتهم على نظام الحكم في مصر
وكانت ذروة قوتهم في الفترة السابقة مباشرة للحملة الفرنسية على مصر
حيث كانوا قد احتلوا الولاى التركى وعزلوه عن طريق (أوده باشا) (٢٥)
الذى كان يقول له « انزل يا باشا » فترك الباشا منصبه فوراً • وهكذا
استعاد البكوات المماليك سلطة الحكم التى كانت للسلطين البحرية
والبرجية (الشراكسة) واغتصبوا كل شىء حتى مخصصات وسلطات
الولاى العثمانى نفسه وجعلوا هذا الأخير بلا حول ولا قوة (طرطورا)
فاذا أرادوا عزله اجتمع ديوان المماليك برئاسة شيخ البلد (أمير البلاد)
واتخذوا قرار العزل ينفذونه عن طريق (أوده باشا) الذى يذهب الى
الولاى التركى فى القلعة فى موكبه ويدخل على الباشا بكل احترام وينحنى
ثم يثنى طرف السجادة الجالس عليها الولاى ويقول له انزل يا باشا
فلا يتردد الباشا الولاى فى ترك منصبه فوراً وينزل من القلعة الى أحد
منازل القاهرة الى أن يرحل الى الإستانة أو يذبح بمعرفة البكوات المتآمرين •

ناموس المماليك (٢٦)

والمماليك رغم انهم كانوا من أجناس يبيضاء مختلفة ومن أصول
أسرية متفرقة فانهم ورثوا ناموسهم المتميز بالقدر والدسائس والتآمر
والدموية حتى أصبح قانونا واسلوبا لحياتهم وحكمهم فمنذ أن فتح
سليم الأول مصر فقد اعتمد على خيانة خيربك (٢٧) نائب أمير مصر فى
حلب للسلطان الغورى آحر حكام مصر من المماليك وبذلك حق له ان
يعينه سليم نائبا عنه أى والى لمصر قبل أن يرحل السلطان عائدا الى
الإستانة •

وكذلك من الحوادث المشهورة فى القدر انه فى طريق عودة أمير
المماليك السلطان قطز بعد انتصاره على التتار فى معركة عين جالوت
أن قام أقرب أعوانه ببيرس البندقدارى بالتآمر على سيده الأمير قطز
وتخلص منه وذبحه بعد أن أوهمه وهو ممتطى صهوة جواده بالسلام عليه
باليد وتقبيل يده وفجأة جذبه وأسقطه على الأرض من على حصانه

(٢٥) كان يطلق عليه أبو طبق إماما فى التحقير ونسبه الى غطاء رأسه الذى يشبه
الطبق وهو من آله غياط الوجاقات •
(٢٦) ودخلت الخيل الأزهر للأستاذ جلال كشك ص ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ •
(٢٧) صحة اسمه « خاير بك » وكان شريكه فى الخيانة هو « جان بردى الغزالى » •
نفس المصدر السابق •

(لأن المملوك اذا كان على جواده كان فى قوة العفاريت وبالعكس يصبح لاحول له ولا قوة اذا سفسط على الأرض) وسرعان ما قام باقى الاتباع من المماليك باغماد سيوفهم فى سيدهم الأمير قطز وقام ببيرس بنفسه بذبحه وسلخ رأسه طبقا لطقوسهم وعاد بها على صينية من الفضة وقدمها الى مجلس البكوات (الاتابك) فاعترفوا فوراً ببناء على هذه المراسيم المملوكية بتنصيب المتآمر الأمير ببيرس أميراً على البلاد الذى تلقب بعد ذلك بلقب « الملك الظاهر » .

أخلاقيات المماليك (٢٨)

ورغم ما ورثه المماليك من طبيعة تنشئتهم المملوكية من تأمر وغدر ودموية الا أن هؤلاء الأمراء كانوا ينشئون فتيانهم - صبيان المماليك - بعد شرائهم من الباسرجية على تعاليم الدين الاسلامي واحترام رجال الدين (رجال الأزهر) وكان هؤلاء الأمراء وأتباعهم يبالغون فى هذه الطاعة والخضوع للشرع واقامة المنشئات الاسلامية والخيرية من مساجد ومدارس ومستشفيات وكلها كانت تتميز بالفن الاسلامي الرفيع معتمدين فى ذلك على أيدي أبناء الشعب المصرى من مهرة الحرفيين والصناع .

رد على اكدوبة كثير من المؤرخين

دأب كثير من المؤرخين وبخاصة فى العصر الحديث على الزعم بأن مصر فيما قبل الحملة الفرنسية كانت فى حالة فوضى كاملة واستمرت كذلك عدة قرون دون وجود أى مظهر من مظاهر الحكم أو الحكومة ولكن بعد تناولنا للنظام الادارى الذى وضعه السلطان سليم فى مصر منذ دخوله مصر عام ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) كان رغم انه موضوع أساسا لتثبيت الحكم العثماني بمصر لاطول مدة الا انه كان حسب تناولنا لهذا النظام كان نظاما اداريا متقدما بالنسبة لعصره ودليل على قوة الحكومة وتحقيق أكبر قدر من السيطرة الادارية والمالية والسياسية على البلاد ولم تكن مصر أبدا فى فراغ تنظيمى ادارى حتى فترة التدهور الشامل أثناء حكم مراد بك وابراهيم بك فيما قبل الحملة الفرنسية مباشرة . ويدعى هؤلاء المؤرخون المشوهون لتاريخ مصر انه لم يكن هناك أى شكل من أشكال الحكومة أو النظام فى مصر الى أن جاء نابليون فى الحملة الفرنسية وانشأ أول نظام حكومى بانشاء الدواوين . ولكن هناك وثيقة تاريخية فرنسية (سابقة على الحملة الفرنسية بحوالى تسعين سنة) هى تقارير القنصل الفرنسى مسيو دى مالىيه Malliet عام ١٦٩٢ م يصف

فيها هذا الديوان وانعقاده وحضوره احدى اجتماعاته بما يثبت رسوخ هذا النظام الحكومي المصرى منذ القدم وقبل الحملة الفرنسية بمدة طويلة .

اين مكان المصرى في هذا التنظيم ؟

بنظرة تحليلية لهذا التنظيم السلطانى العثمانى لحكم مصر نجد انه تجاهل تماما دور الرعية وهو الشعب المصرى بمعظم طوائفه فلم يجعل لهم الا تمثيلا رمزيا فى تشكيل الديوان (مجلس الشورى) والذي لا ينعقد الا نادرا وبأمر الوالى (٢٩) فكان ضمن تشكيل هذا الديوان رؤساء المشايخ (علماء الأزهر) والأشراف ورؤساء الطرق الصوفية ورؤساء المذاهب الأربعة أما الممثلون الآخرون فكانوا كلهم من الأجانب الغرباء عن شعب مصر وجاقية وعسكر وغير ذلك وكان عددهم يفوق بكثير بل أضعاف أضعاف ممثلى الشعب المصرى .

كان هذا التمثيل السلطانى العثمانى بجانب القوانين التى تؤدى بالمقام الأول الى دوام خضوع مصر الزراعية بخيراتها وطاقاتها وأموالها لصالح ورخاء الامبراطورية العثمانية وليس لرخاء وصالح مصر وشعبها ناهيك عن استفحال نشاط اللصوص والخطافة من العربان وغيرهم الذين كانوا يحيطون بوادى النيل والدلتا ويتقاسمون نهب ثروات وخيرات الريف المصرى وسكانه الفلاحين بالاضافة الى البكوات المماليك اللصوص ومنذوبيهم من رؤساء المنصر من الملتزمين (جامعى الأموال الأميرية والضرائب) . فقد كانت حكومة الدولة العلية العثمانية فى مصر لا تتحمل أى مسئولية تجاه اعاشة الشعب حيث كان انتاجية الفلاحين والعمال الحرفيين والتجار تكفى السادة الحكام كما تكفى نصيب اللصوص ولصوص الحكام والسناجق (أمراء الممالك) وموظفى الحكومة وحتى رشاوى القضاة الذين كانوا يعينون من الاساتذة بالفرمان السلطانى ومعهم المترجمون وكلها كانت على نفقة المتقاضين من الرعية البائسة . وكانت مصر فيما قبل الحملة الفرنسية مباشرة مقسمة من الناحية الادارية الى ستة عشر مديرية أو اقليم (سنجقية) (٣٠) تسعة بالوجه البحرى وسبعة بالوجه القبلى وكان تعداد مصر حوالى ثلاثة ملايين نفس وكان الشعب مقسما اجتماعيا وطائفا الى :

(٢٩) تاريخ الحركة القومية (الحملة الفرنسية) جزء اول للاستاذ الرافعى من ص

٢٩ الى ٥٩ .

(٣٠) نفس المصدر السابق من ص ٢٩ الى ص ٥٩ .

١ - العلماء ومشايخ الأزهر (المعمون) (٣١) :

وكان الأزهريون في مقام ممثلي الشعب الحقيقيين فكانوا محل ثقة واحترام الشعب بجميع فئاته رغم ان كثيرا منهم كانوا من أقطار العالم الاسلامي المختلفة . وكان العامة عندما يصيبهم ظلم أو استبداد المماليك ويفيض بهم الكيل يلجئون الى مشايخهم - علماء الأزهر - يستنجدون بهم فيقومون عن الشعب بمواجهة المماليك ، وفي أغلب الأحيان كان أمراء المماليك يستجيبون لشفاعة واحتجاجات هؤلاء المشايخ نيابة عن المظلومين . وفي نفس الوقت (٣٢) اكتسب هؤلاء العلماء القدرة على احداث حالة شلل احتجاجي بالبلاد اذا أرادوا ذلك كنوع من الضغط لمواجهة عناد أمراء المماليك في بعض الأحيان وذلك بحكم سيطرتهم على العامة وهي الأيدي المنتجة سواء في مجال الصناعة أو الزراعة أو التجارة وبذلك يتوقف الانتاج وذلك بمجرد توقفهم عن قيام المؤذنين باعتلاء المآذن اعلالا للسخط العام بالإضافة الى قدرة هؤلاء المشايخ على قيادة المقاومة الشعبية الإيجابية ولو بالأسلحة البدائية من نابيب ومساوق وفؤوس أو حتى حجارة . وهؤلاء المعمون كانوا لا يخشون في الحق لومة أي أمير ولا حتى الوالي أو السلطان كل ذلك يرجع الى ما كانوا يتحلون به من أخلاقيات وتعاليم الاسلام فاستمر الأزهر لمئات السنين في رفع شأن هذه الأخلاقيات وبالتالي هذه الزعامة والقدرة على ارباب الحكام الظلمة حتى في أحلك أيام تدهور العالم الاسلامي فرغم مظهر التفكك في المجتمع المصري في هذا الوقت الا ان ما جاء عن مؤرخنا الجبرتي من تعريف بأقطاب الأزهر في وفياته يدل على المستوى الرفيع من تمكّنهم وتمسكهم بتعاليم الاسلام دينيا ودنيويا وتجربتهم في العلوم الحديثة وبخاصة في الفلك كل ذلك كان يبعزل عن مؤامرات وممارسات وتعنّت وفجر أمراء وكبار السادة الأتراك والذين كانوا جميعا يحملون لهؤلاء العلماء قدرا كبيرا من الاحترام كما كانوا يحرسون على اقامة شعائر الدين .

٣ - أولياء الله الصالحين :

رغم ايمان السواد الأعظم من الشعب المصري بهذه الفئة والتي كان لها دور كبير في تفريج الكرب عن الناس واعطاء الأمل بما كانت تملكه من الشفافية في الاحساس الديني الا ان نشاطهم الروحي كان قاصرا على الناحية النفسية الذاتية وتأثيرها العميق في الراحة النفسية سواء للعامة أو حتى لطبقة الحكام والأمراء فكان لهم عظيم الأثر النفسي ولكنهم لتجردهم عن المادة ومباهج الدنيا وترفعهم عن رضاء السلاطين أو حتى غضبهم وعدم

(٣١) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٣٢) ودخلت الغيل الأزهر للاستاذ جلال كشك ص ٧٣ .

دخولهم فى شعاب ومنحنيات السياسة بحكم شدة تدينهم لدرجة كشف الحجب فلم يكن لهم التأثير السياسى المؤثر كتنثير علماء الأزهر وهذا لا يمنع ان الحكام والأمراء كانوا يستجيبون لشفاعتهم عندما يطلبونها للشعب المظلوم وبخاصة ان معظم هؤلاء السلاطين كانوا يتبركون بهم فكان كل أمير أو سلطان ينتسب الى أحد هؤلاء الأولياء فطومان باى كان ينتسب الى الشيخ أبو السعود الجارجى والسلطان سليم كان يعتقد فى الشيخ الشعرائى والظاهر بيبرس كان يخشى من نفوذ السيد البدوى . وفى شدة تعلق العامة بالأولياء فقد أطلق العامة على « الشيخ الحنفى » لقب « السلطان الحنفى » لأنه يذكر عنه أنه تسبب فى اصابة السلطان بورم شديد عند غضبه عليه ولما عفا عنه بعد ان هدده بأنه سوف « يملغ ودانه » اذا عاد الى « قلة الأدب » فشفى السلطان وتاب عن ظلمه للشعب .

٣ - الملاك والتجار :

كان جميعهم من المصريين تقريبا ومنهم الكثيرون من ذوى الثروات المتوسطة وعدد قليل من الأثرياء كما كان منهم فئة من كبار الأعيان وكان لهم عصبية وسطوة يرهبها الحكام الى حد ما وبخاصة المماليك ، وكان لهم فى بعض مناطقهم وأحيائهم شبه استقلال ذاتى . وحيث كانت مصر مركزا للتجارة العالمية بين بلاد آسيا وأفريقيا والمغرب العربى وأوروبا وبالعكس فقد كون بعض التجار من أهالى مصر ثروات ضخمة نتيجة التعامل التجارى فكانوا بصفة عامة أغنى طبقات الشعب (٣٣) ، ولو ان حالهم تدهور بعض الشيء فيما قبل الحملة الفرنسية مباشرة نتيجة تحول طريق السفن للدوران حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند .

٤ - الموظفون :

كانت معظم الوظائف فى دواوين الدولة يشغلها المسلمون والأقباط على السواء وتخصص الأقباط فى العمليات الحسابية وكانوا محل ثقة البكوات المماليك ويقومون برسم السياسة الضريبية وتقديرها وتوزيعها على الأتبان والحاصلات وكان منهم الصيارفة ورؤسساؤهم ويطلق عليهم المباشرون وكبار الملتزمين واعتمد أمراء المماليك عليهم فى ادارة شئونهم العمرانية والمالية وكان منهم الكتبة والمساحون ووصلوا لأرفع المناصب فى الدولة (٣٤) وعندما حضر الفرنسيون انتهبوا فرصة انهم أقلية بين المسلمين واستخدموا هذا الوضع فى احداث الفتنة والفرقة فكانوا يعتمدون

(٣٣) الحملة الفرنسية للاستاذ عبد الرحمن الرافعى جزء اول ص ٦٠ .

(٣٤) عائلة غالى تنتمى الى « المعلم غالى الجوهري » وكان شبه وزير مالية لمحمد على .

استخدام كل ما يفرق بين الأقباط والمسلمين باعطاء الأقباط المراكز التي تستفز المسلمين ولكن كثيرا ما كان الشعب يفتن الى هذه المخططات ويقطع عليها خط الرجعة .

٥ - الصناع والحرفيون :

وكانت هذه الطبقة من الشعب تزاوِل الصناعات الصغيرة وقد اكتسبوا مهارة وخبرة حيث كانت صناعاتهم الخاصة بالملبس من غزل القطن والكتان والصوف والحريز والفرو وقلاع المراكب والتطريز كان لكل ذلك شهرة عالمية وكانت معظمها تصدر الى الخارج كما كانت هناك الصناعات المتعلقة بمواد العمران كالطوب ونحت الأحجار والجبس والمصيص والطلاء والزجاج والفخار بالإضافة الى الصناعات الغذائية . وكانت هناك صناعة بناء السفن وصناعة البارود والجلد (القنابل) وصناعة الأسلحة واصلاحها وصيانتها (التفكجية) وسك النقود . وكان لكل طائفة من الحرفيين أو الصناع تنظيم يرأسه شيخ يسمى شيخ الطائفة ينظر في شئونهم ومصالح الطائفة ولكل شيخ نائب أو وكيل يعرفون بالنقباء ويختارهم الحكام للمشاركة في تكوين الديوان وهي السلطة التشريعية في البلاد في ذلك الوقت .

٦ - المزارعون والفلاحون :

ويتكون منهم الشطر الأكبر من الأمة وكانوا في حالة يرثى لها من البؤس والفاقة والجهل . وكانت الزراعة في تقهقر وتأخر بسبب تخلف وسائل ومنشآت الري والصرف ، وكان الفلاح هو المالك الحقيقي لوسائل وأدوات الانتاج الزراعي والغذائي وكان مهمة أمرائه المماليك مركزة على نهب أكبر قدر من انتاجه . وعندما يحاول الفلاح أن يخفى من المملوك انتاجه أو جزءا منه أو من ثروته تهربا من دفع الضرائب الباهظة الظالمة (وكان غالبا ما يخفيها ويحتفظ بها تحت الأرض) فكان وكلاء السناجق من جامعي الضرائب يمعنون في اهائته وضربه واستمرار حبسه الى أن يظهر المخبوء ، فإذا تجاوز الضرب والاهانة الحد كانت الأهالي تلجأ الى زعماء الشعب من رجال الأزهر والعلماء المعتمدين أو الأولياء الصالحين ليرفعوا أصواتهم وظلاماتهم الى البكوات السناجق وغالبا ما كانوا يستجيبون لهم . وعندما يفيض الظلم عن الحد كان الفلاحون يهجرون أرضهم الى المدينة أو ينورون في وجوه الحكام المماليك فينقلبون عليهم بالقتل والحرق بالنار .

٧ - الخرافة والمصوص (الجعيدية) :

وكان هناك قطاع كبير من أشباه المواطنين الفاسدين بما يطلق عليهم

بالجمعيدي وهم لصوص من الأعراب الذين يعيشون على الحدود وعلى أطراف الدلتا والوادي فكانوا متعودين على الاعارة على المصريين الحضريين وينهبون الفلاحين أثناء تنقلهم وكانت عسكر الأمراء غير قادرة على مقاومة هذه العصابات أو مطاردتهم أو تعقبهم . وكان سكان المدن من الشعب يتفون شرهم بعمل بوابات على الحواري ويقوم أفراد منهم بالتناوب على حراستها أثناء الليل .

٩ - الدراويش :

بجانب ما سبق من هذه التشكيلة الشعبية المتباينة كان هناك عددا كبيرا من الدراويش والمجاذيب الذين يخلطون الشعوذة بالشيطنة بالعبط بالحكمة والسحرية من الحكام الظلمة (أمراء وبكوات الممالك وممثلي السلطان) فكانوا يروجون الأناشيء الدينية ممزوجة بالتظاهر بالبلاهة للمشكلة في قلب الحكمة وكأها كلمات في حقيقتها ساخرة ساخطة على الحكام الممالك والأثراك بشتى صورهم ودعاية مؤثرة ضد ظلمهم ونفختهم الكذابة وتوفظ في الشعوب صورة الانتقام والتمرد ولو سلبيا باتقاء شرهم والدعوة للوقوف خارج حلقات صراهم ودمويتهم وتآمر بعضهم على بعض . كان هؤلاء الدراويش أو المجاذيب محل عطف من جماهير الشعب المغلوب على أمره فعاشوا في شبه عالة على الانتاج خلاف الفلاحين والحرفيين وباقي أفراد عامة الشعب فقد كان الجميع يحسنون عليهم بمحض ارادتهم عطفاً عليهم وتبركا بهم وتقديرا لدورهم الخفي وتقديرا لمغزى معاني كلماتهم التسبب مهووسة وهؤلاء المجاذيب أو الدراويش كانوا يتواجدون وينشرون في العاصمة وباقي عواصم المديرية بجوار المساجد وأضرحة أولياء الله الصالحين ويتجولون في القرى ويتكسبون ويتجمعون في مواسم الموالد ويتحدون السلطة بالانجذاب والدروشة ، وحلوا مشكلة الارتزاق والتكسب برفض الانتماء الى المجتمع وانضموا الى طابور آكلي انتاج الفلاح والعامل المصري ولكن برضائهم ومباركتهم .

الصمود الشعبي والمحافظة على مقوماته :

كل هذا الخليط الشعبي المتميز بتقاليد المصرية الموروثة والتي لم تتغير ولم تنبدل رغم توالى وتغير أجناس وأشكال الحكام ما داموا كانوا يعتنفون نفس عقبتهم فقيما كانت ديانات قداماء المصريين وآلهتهم ثم المسيحية ثم الاسلام . وكان الشعب المصري على مر الزمن يواجه فساد وظلم حكامه بالسخرية للنيل من سمعتهم بالنكته كنوع من التمرد البديل عن الثورة المؤجلة وبشكل بذلك صورة من صور التمرد والاحتجاج ومن وقت لآخر كانت هناك كثير من الانتفاضات الشعبية وقد تتصاعد الى حد الثورة عموما فان سخرية الشعب المصري من الدخيل المسلم كانت من كزة

على حكماء الغافلين الأجلاف الذين يطلقون عليهم أمراء رغم أن المصريين جميعا كانوا يعلمون تمام العلم انهم من أخط الأنواع البشرية لأن أصلهم شبه عبید يباعون ويشترون عن طريق الباسرجية ولذلك أطلق عليهم ممالك لأن الذي كان يدفع الثمن يملكهم • وكان الشعب يطلق على البكوات (٣٥) والسناجق الألقاب الهزلية « بارم ديله » و « المنفوخ » و « أبو نبوت » لأن على بك الكبير ضربه بالنبوت « سنجق سته » وسنه هي أرملة عمر بك • وكانت تزوجت هذا الأمير المملوك بعد ان قتل سيده عمر بك فعينته مكان سيده وخضع لست تماما و « جلب القرد » و « أبو مناخير فضة » و « السبع بنات » (وهم سبعة أمراء أتباع على بك الكبير كانوا قد ساعدوا محمد بك أبو الذهب مملوك على بك في خيانة سيدهم والاشتراك في الا جهاز عليه بسيوفهم غدرا ووضاعة) •

وعندما كان الشعب يتمرد ويستعين بزعمائه للاحتجاج لدى الممالك فن كثيرا ما كان هؤلاء الأمراء الخيلاء ينصون هذا الغضب الشعبي بالتظاهر بالترضية والاستجابة أو التجاهل بعض الوقت وكل ذلك لتبريد انفعال الشعب المتمرد وتثبيط حماسهم لمدة كافية لتبريد هذا الحماس لما عرف عنهم ان المصري منذ القدم عندما تنخفض درجة حساسه غالبا لا يعود الى الانفعال من أجل نفس الشيء مرة ثانية وبذلك تنتهى الازمة والثورة لصالح الحكام ودهائهم وهذا هو الذى وعاه الانجليز وطبقوه فى مواجهة ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩ فقد أحسنوا استخدام مرور الزمن وتطويل المدة حتى أجهزوا على الثورة تقريبا •

على بك الكبير

وقبل الحملة الفرنسية بحوالى اثنين وثلاثين سنة (١٧٦٧م/١١٨١هـ) استقل الأمير المملوكى على بك الكبير بمصر وطرد الوالى ولأول مرة بعد انحطاط الحكم المملوكى تطلع على بك الكبير للنهوض بالبلاد وتحقيق الأمن والأمان للريعية والبلاد فنشر العدل والاصلاح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كل ذلك رغم دمويته فى تصفية منافسيه من بكوات الممالك وكان من قلائل أمراء الممالك الذين أخذوا بقسط من العلم فقد كان يطالع الأخبار والسير للملوك المصرية وملوك الجراكسة (٣٦) وسياسة حكم العثمانيين وكان يجالس أهل الوقار والحشمة والعلم والمسنين ولما ملك على بك الكبير الديار المصرية والأقطار الحجازية والبلاد الشامية وقتل

(٣٥) ودخلت الخيل الأزهر للأستاذ جلال كشك ص ١٠٠ •

(٣٦) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للشيخ عبد الرحمن الجبرمى الجزء الأول ص ٢٥٢ الى ٣٨٥ •

المتمردين وقطع المعاندين وشتت شمل المنافقين وخرق القواعد وحزم العوائد وأخرب البيوت القديمة وكان يطارد المستبددين والظالمين واللصوص والرشوات والجعالات ويعاقبهم بالضرب الشديد والاعانة والقتل والنفي إلى البلاد البعيدة ولم يحاب في ذلك أحدا سواء كان منعما أو فقيها أو كاتباً أو قاضياً أو غير ذلك .

فقد طارد وقضى على قطاع الطرق المنتشرين على أطراف وادي النيل من العرب الخطافة فانكمشوا عن قبائحهم وايدأثمهم فعم الأمان . وكان على بك الكبير شديد الفراسة شديد الحذق ويتقن أساليب الحكم ويقرأ التقارير والصكوك والوائيق . وبعد ان عزل الوالي التركي وثبت نفسه امتنع عن دفع الخراج (١٧٦٩ م - ١١٨٣ هـ) للسلطان العثماني ومنع ورود الولاة العثمانيين وضرب النقود باسمه ودانت له مصر بحريها وقبليها وكان من مماليكه وأتبعه أحمد (باشا) الجزائر ومحمد بك أبو الذهب واسماعيل بك وحسن بك الجداوي وإبراهيم بك ومراد بك . وكان على بك طموحا واسع الأطماع (٣٧) فجرد الجيوش وفتح الجزيرة العربية ونادى به شريف مكة (سلطان مصر وخاقان البحرين . وأوفد محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا وفتح معظمها ولم يكده محمد بك أبو الذهب يتم فتح دمشق حتى انقلب على سيده وقامت بينه وبين سيده الحرب وانتهت بقتل علي بك الكبير سنة ١٧٧٣ م فصارت مصر ولاية عثمانية ودانت امارتها لمحمد بك أبو الذهب (واستقر شيخا للبلد) ومكافاة له عينه سلطان تركيا حاكما على مصر وأرسلت تركيا الولاة كما كان قديما ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد محمد بك أبو الذهب الذي كان يختار الوالي الذي يرتضيه ومات محمد بك أبو الذهب ميتة طبيعية (سنة ١٧٧٥ م - ١١٨٩ هـ) على غير ناموس المماليك فلم يعط الفرصة لتلاميذه بالتآمر عليه وذبحه وسلخ رأسه كالعادة مخلقا في مشيخة البلد إبراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك وهما الأميران اللذان عاصرا الحملة الفرنسية

إبراهيم بك ومراد بك

وكان كل منهما أسوأ من الآخر وإن كان الأسوأ مراد لأن إبراهيم بك كان عاقلا وسياسيا بمقياس زمنه وعلى آية حال فقد أعاد الاثنان إلى حكم مصر الفساد والفوضى والاستبداد بالرعية واستنزاف ثروات البلاد والأهالي وبعد ان أمعن الأميران في الاستهتار بالوالي (نائب السلطان) شاركاه في حقه في الخراج مما اعتبرته الاستانة خروجا على السلطان فأرسلت الاستانة حملة لتأديبهما بقيادة حسن باشا (القبطان ١٢٠١ هـ -

(٣٧) نفس المصدر السابق بالإضافة إلى كتاب تاريخ الحركة القومية جزء أول للرافعي

١٧٨٦ م) وبمجرد وصول الأسطول العثماني الى أرض مصر ساهم شعب مصر مساهمة مؤثرة في مطاردة الأميرين المارقين مراد بك وإبراهيم بك فساعدوا جنود الحملة التركية في المطاردة حتى هرب الأميران الى الصعيد ولم يعودا الا بعد ان اضطرت الحملة التركية لمغادرة البلاد المصرية لنجدة الجيوش التركية في حربها مع عدوها التقليدي الروسي واستمر مراد بك وإبراهيم بك في حكم مصر ١٣ سنة بنفس الاسلوب الفاسد الى أن حضرت الحملة الفرنسية في شهر محرم ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) واشترك الأميران مع الخطافة والمصوص وعرب الصحراء في نهب الشعب المصرى بالاشتراك مع من كان يطلق عليهم بالجعيدية .

القبطان باشا أسوا من المماليك والشعب ضحية (٣٨)

ولم يحصل من مجيء حسن باشا القبطان الى مصر وذهابه الا الضرر ولم ييطل بدعه ولم يرفع ظلما وخابت فيه الآمال والظنون ونهب البلاد فصار يقبض من البلاد خلاف أموال الخراج عدة أقلام منها المضاف والبراني وعوائد الكشوفية والفرد المتعددة لرفع المظالم . وكان هذا القبطان التركي هو آخر أمل للشعب المصرى انتظارا لحاكم عادل يرفع عن كاهله الظلم الذى استشرى على يد المملوكيين مراد بك وإبراهيم بك فخاب ظن الشعب المصرى حتى فى آخر مظهر من مظاهر السلطنة التركية المفروض انها اسلامية ومركز خلافة المسلمين وعادت مصر مرة أخرى تواجه ظلم وتحكم أمراء المماليك والوالى العثماني الباشا الذى كان دوره مقتصرًا على ارسال الجزية للاستئانة ثم النهب لمصلحته هو وفجأة وفى هذه البيئة الخائفة من فساد الحكام على جميع أشكالهم تبتلى مصر بالحملة الفرنسية ليضاف مزيد من المعاناة للشعب المصرى المغلوب على أمره ووقف الشعب وحده ومؤسسته الوطنية المتمثلة فى مشايخ الأزهر فى وجه هذا الغزو الأجنبى .

الأطماع الفرنسية الانجليزية فى مصر

غزو مصر كان دائما موضع المنافسة بين فرنسا وانجلترا وظل هذا التسابق بينهما لمدة طويلة وفى سبيل الإعداد لغزو مصر قامت فرنسا وانجلترا كل لحسابها الخاص بايفاد عملاء عسكريين وعلماء فى شتى المجالات متنكرين تحت مظاهر مختلفة ، وكان من بينهم خبراء فى الملاحة (٣٩) والطبوغرافيا وفى الخرائط العسكرية ولم يتركوا بقعة فى

(٣٨) الجبرتي جزء ٢ ص ١٤٦ .

(٣٩) كتاب الغرب والشرق للأستاذ محمد على الفتيت - المرحلة الأولى فى الصراع بين

الشرق والغرب (غزوات الغرب لمصر) ص ١٢٩ .

أرض مصر دون استكشافها • كل هذا التطلع لمصر يرجع الى ما كانت تتمتع به مصر من المركز الجغرافى الممتاز وسيطرة هذا الموقع على وسائل النقل البرى بين البحرين الأبيض والأحمر وبذلك نكون مفتاح الطريق الى آسيا وأفريقيا •

وقامت فرنسا منذ عهد الملك لويس(*) الخامس عشر بالتطلع لغزو مصر وكان للوزير الفرنسى فى حكومة شوازيل (Choiseul) دراسة وثائقية عن ذلك فى كتابه المؤرخ فى ١٧ يوليو سنة ١٧٦٨ مما يكشف عن هذا الدور التحضيرى لهذا الغزو والتطلع الى مصر • وكان المدعو مجالون (Magallon) قنصل فرنسا العام فى مصر فى ذلك الوقت يقوم لحساب الوزير شوازيل بإدارة أعمال التجسس والتحضير لغزو مصر • وكان من أبرز العلماء الفرنسيين فى مصر فى ذلك الوقت والذي قام بعمل دراسات استراتيجية واسعة عن مصر هو المدعو سونينى (Sonini) سنة ١٧٦٨ اذ كان مكلفا بغرس بذور التفرقة بين الأقباط والمسلمين فى مصر ونجح فى ذلك لدرجة أنه عند اقتراب الجيش الفرنسى بقيادة بوناپرت من القاهرة كادت ان نحدث فتنة ومذبحة طائفية بتحرش الأهالى المسلمين بالأقباط لولا تدخل أمراء المماليك لحمايتهم للأقباط قبل استفحال الفتنة • وقد عمل عملاء فرنسا كذلك على ان يحتكر عملاؤهم من المصريين التجارة المحاصيل الزراعية والحبوب باقامة مخازن لهم على ضفاف نهر النيل من الاسكندرية الى أسوان حتى تكون بمثابة مخازن للجيش الفرنسى لتموينه عند الغزو • بالاضافة الى المعلومات عن طبيعة الشخصية المصرية والشخصيات الهامة والتحليل الاجتماعى لشتى الطبقات والطوائف فى مصر • كما عمل عملاء فرنسا أيضا على استمالة زعماء البدو على حدود مصر ليأمنوا ظهر جيشهم عند الغزو على الأقل بالتزام البدو جانب الحياد أو بقيامهم بنشر حالة الذعر وعدم الاطمئنان الشعبى بالسلب والنهب للأهالى والقرى والفلاحين أئسساء تقدم الزحف ولكن خاب ظن هؤلاء الجواسيس حيث قام عرب الصحراء الغربية بدور وطنى دفاعى مجيد • وكان أحسن توقيت لهذا الغزو هو حالة التدهور الذى أصاب الامبراطورية العثمانية التى كانت مكلفة بحماية مصر عسكريا باعتبارها ولاية عثمانية وكانت تركيا قد أهملت مصر وتوقفت عن تقويتها عسكريا أو تحصينها للدفاع عن نفسها وبذلك أصبحت قابلة للاستسلام الشامل ولقد ادعى الغزو الفرنسى انه حضر لحماية مصالح وحقوق الامبراطورية العثمانية بالفضاء على المماليك الذين تمردوا وظلموا » ولكن كل ما كان يسبب القلق للفرنسيين الغزاة هو توقع احتمال مقاومة الشعب المصرى لهذا الغزو حتى بعد انكسار القوات التركية الرمزية أو قوات المماليك ففعلا حدث هذا بالضبط •

(*) نفس المصدر السابق •

الغزو الفرنسي لمصر

والتفاعلات الشعبية

الحملة الفرنسية وأهدافها

كانت أهداف نابليون من غزو مصر هي :

- ١ - انشاء مستعمرة فرنسية في مصر نظرا لأهمية موقعها الجغرافي بين القارات واعتبارها مجالا لتصريف البضائع الفرنسية .
- ٢ - شق قناة في مصر تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر وبذلك يمكن أن تصل السفن الفرنسية الى البحر الأحمر ونهدد أملاك الانجليز في الهند وتكون مصر قاعدة للسيطرة على الطريق الى الهند .
- ٣ - انشاء دولة فرنسية شرقية كبيرة وقاعدة للسيطرة على موانئ البحر الأبيض .

مخادعة الانجليز (١)

أشاعت فرنسا انها تعد جيشا لمهاجمة الجزر البريطانية لذلك فقد ركزت انجليترا على مراقبة بوغاز جبل طارق وفي نفس الوقت احتاطت وكلفت الاميرال نلسون بالتجول في البحر الأبيض لمراقبة تحركات الاسطول الفرنسي .

استعدادات الحملة

حشد نابليون لهذه الحملة ٣٦٠٠٠ مقاتل بقيادة صفوة ضباطه وأقلعت العبارة الفرنسية من ميناء طولون في ١٠ مايو ١٧٩٨ واستولت

(١) نفس المصدر السابق .

على جزيرة مالطة دون قتال يذكر وجعلتها قاعدة لها وجندوا من مالطة جيشا من المالطيين حوالى ٢٠٠٠ مقاتل وأقلعوا منها ١٩ يونيو ١٧٩٨ وأمكنهم مراوغة الاسطول البريطاني حتى وصلوا الى غرب الاسكندرية فى ليلة ٢ يوليو ١٧٩٨ واصطحب نابليون معه فى الحملة طائفة من خيرة علماء فرنسا ونوابها فى الرياضيات والطب والهندسة والجغرافيا والفلك والأدب والكيمياء والاقتصاد السياسى والآثار والمعادن وعلماء طبقات الأرض والحيوان وحشد من رجال الفنون والمصورين والرسامين والموسيقيين والنقاشين والمثالين . فاذا ما اعتبرنا الغزو بصفة عامة هو استغلال أقلية فرنسية (جيش فرنسى) للتحكم وقهر أغلبية هى مجموع سكان مصر وان مقاومة الشعب المصرى لهذه الحرب العدوانية هو حرب تحررية يمارسها الأغلبية وهى شعب مصر للتخلص من هذا الاحتلال فهذا الموقف الشعبى المصرى ينطبق عليه التعريف الثورى وكانت المقاومة المصرية للاحتلال الفرنسى بمثابة ثورة بمراحلها المتعارف عليها من تعريفنا فى صدر هذا الكتاب ولذا يمكن تقسيم الغزو الفرنسى وبقائه محتلا والمقاومة الشعبية المصرية الى مراحل الثورة .

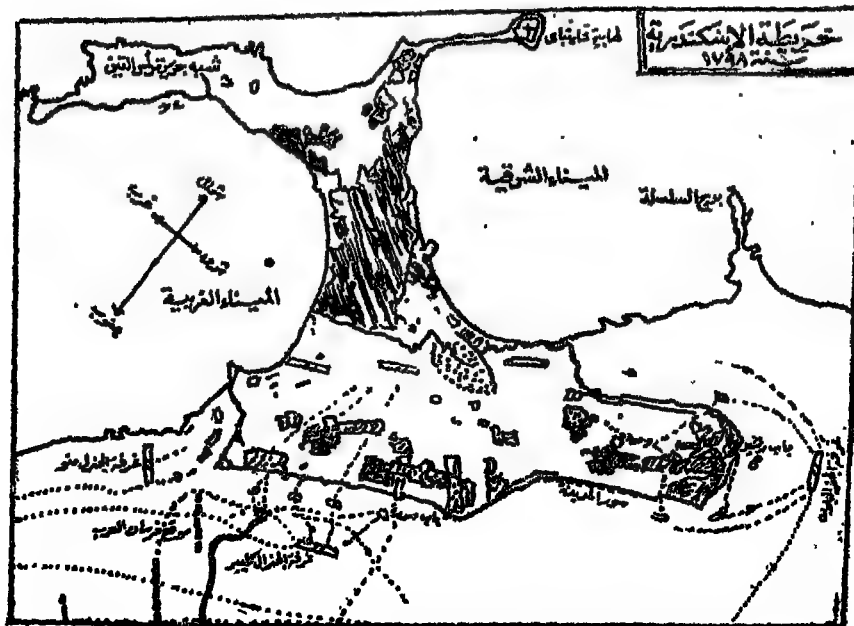
أولا : مرحلة الغزو (مرحلة استغلال الأغلبية للأغلبية)

وهى مرحلة قهر وتحكم الأقلية وهو جيش فرنسا بقيادة بوناپرت وقوامه ٣٦٠٠٠ مقاتل للأغلبية المقهورة وهى مجموع الشعب المصرى وقتها وكان تعدادهم ٣ مليون نسمة « فى يوم أول يوليو سنة ١٧٩٨ حضر (٢) الى ثغر الاسكندرية عشرة مراكب انجليزية ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر وبعد قليل حضر خمسة عشر مركبا أخرى وبعد قليل حضر الى الشاطئ مركب منها صغير وفيه عشرة أنفار اجتمعوا بكبار رجال البلد الذين كانوا منتظرين على الشاطئ وكان رئيسهم المشسار اليه بالابرار والنقض هو السيد محمد كريم (٣) وأخبروه بأنهم انجليز حضروا للبحث عن الفرنسيين الذين خرجوا من بلادهم فى اسطول كبير لا يعرفون هم وجهتهم وان الانجليز يعتقدون ان الفرنسيين يريدون غزو مصر وان اسطول الانجليز وقواته حضروا لحماية مصر من غزو الفرنسيين » . ورفض السيد محمد كريم هذا العرض ولما طلبوا منهم التزود بالماء والزاد أجابهم لذلك ولأنه طلب منهم العودة من حيث أنوا وان بلاده مصر هى بلاد السلطان التركى وهو الذى يدافع عنها . ثم أرسل السيد محمد كريم فى الحال كتابا بذلك الى حكام مصر بالقاهرة وكان الوالى بكر باشا وشيخا البلد

(٢) عجائب الآثار فى التراجم والاخبار لعبد الرحمن الجبرتي جزء ٢ و ٣ و ٤

بنفس اسلوب المؤرخ واسلوب عصره .

(٣) كان فى مرتبة محافظة المدينة .



خريطة الإسكندرية سنة ١٧٩٨ - وتجد بها بعض المعالم القديمة والحديثة - مسود
والخطوط المائلة تمثل حدود عمران المدينة في أواخر القرن الثامن عشر (أواخر ص ١٥٩) -
الجيش الفرنسي في هجومهم على المسود الذي كان أمام الإسكندرية يدافعون عنه كما تراء
الإسكندرية - وباب صندة وباب رشيد - وعمود السوارى - وخاوية قايتباي - وبرج السطحية.

الأميران مراد بك وإبراهيم بك وأقلع رسل الانجليز من الثغر وأرسل محمد كريم الى كاشف الجيوة (الحاكم الادارى) (٤) ولجميع العربان واتخذوا احتياطات الدفاع عن الثغر .

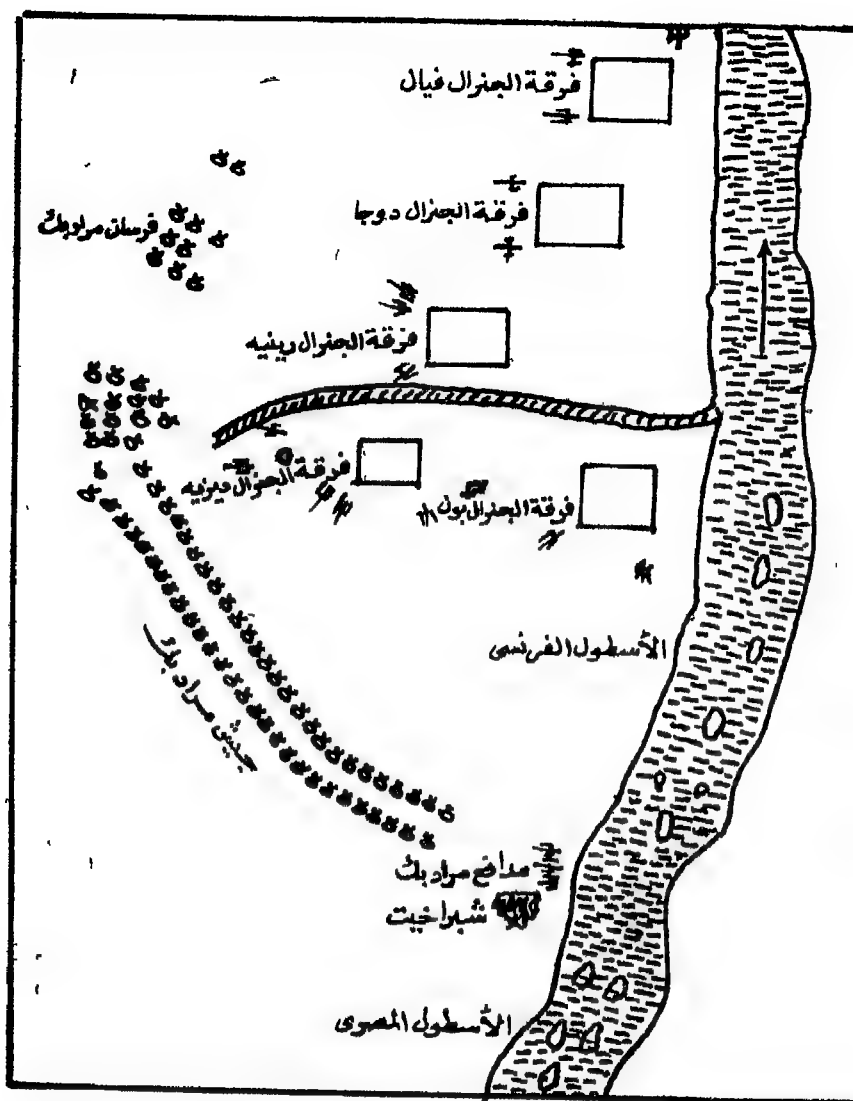
الغزو الفرنسى (٢ يوليو سنة ١٧٩٨)

وفى يوم ١٨ محرم سنة ١٢١٣ هـ (٢ يوليو ١٧٩٨) حضر عدد كبير من مراكب الفرنسيين ونزلوا على شاطئ العجمى بأسلحتهم ومعداتهم الحربية وفوجيء أهل الاسكندرية صباح (١٩ محرم ١٢١٣ - ٣ يوليو ١٧٩٨) بأعداد هائلة من الجنود الفرنسيين فى حين انضم للاسكندرية أهالى البحيرة ومعهم كاشفهم والعربان لمقاومة هذا الغزو قدر طاقتهم ثم تراجع الأهالى الى المنازل والشوارع وتحصنوا بها وبدؤا المقاومة الشعبية التى عطلت الجنود الفرنسيين بعض الوقت ولكنهم فى النهاية سلموا يطلبون الأمان بعد تدمير الفرنسيين لمنازلهم وحرقتها ورغم ذلك فقد استمر محمد كريم يقاوم ببسالة بما لديه من مدافع قليلة وقديمة وذخيرة محدودة . مجمل القول ان الاسكندرية مثلها مثل باقى أنحاء مصر وكانت خلوا من وسائل الدفاع والحماية لتدهور الأحوال العسكرية وكان هذا هو حال سائر البلاد العثمانية . وبعد ان ثبت نابليون قدمه فى الاسكندرية بدأ زحفه فى اتجاه القاهرة عن طريق دمنهور وأمر جنوده بالزحف مخترقا أراضى صحراوية قاحلة فى ذلك الوقت . وفى نفس الوقت كلف نابليون الجنرال (دوجا) باحتلال رشيد وأمره ان يتقدم بعد ذلك الى الرحمانية ليلتقى بالجيش القادم عن طريق دمنهور . ولقى الجنود الفرنسيون عناءا كبيرا من القيظ والعطش حيث دمرت الأهالى فى مقاومة شعبية آبار المياه على طريق زحف الفرنسيين وأخيرا بلغت القوات الفرنسية الرحمانية فى ١٠ يوليو سنة ١٧٩٨ .

بعد ان وصلت الأخبار القاهرة كانت القاهرة على قدم وساق من الاستعدادات واجتمع الوالى بكر باشا مع مراد بك وإبراهيم بك وأمروا ببناء الشعب للجهاد (٥) ولبنى الجميع الأمر بقيادة نقيب الاشراف السيد عمر مكرم وتجهز الجميع عند بولاق متسلحين بالعصى والمساق والفئوس وبعض الأسلحة النارية القليلة . أما القوات الأساسية من فرسان المماليك

(٤) تاربخ الحركة القومية للأستاذ الرافعى جزء اول ص ٢٣ . وكلمة كاشف وكشاف مأخوذة من فعل كشف لأن الأصل فى وظيفته ان يكشف أحوال المديرية والكاشف كان يحكم المديرية أو جزء منها باسم الكاشف كان بمثابة المدير أو مأمور المركز اذا كان يحكم جزءا من المديرية وكان يقوم بأعمال السنجق ولكن لكونه من الشعب المصرى فكانوا يطلقون عليه الكاشف .

(٥) تاربخ الحركة القومية للأستاذ الرافعى جزء اول ص ١٩٣ .



خريطة معركة شبراخيت - ١٣ يولية سنة ١٧٩٨

هذه هي المعركة التي سميت معركة « شبراخيت » ، وتلك رواية المراجع الفرنسية عنها ، ومنها يتبين أن القسط الذي احتمله الأهالي في هذه المعركة كان كبيرا ، بل كان أكبر من قسط المماليك .

فقد عسكرت على شواطئ أمبابة مع حشد كبير من جميع المراكب وغلايين المماليك بالنيل محملة بالأسلحة والذخيرة والمدافع وصار البر الشرقي والعربي للنيل مملوئين بالمدافع والعسكر والمتاريس والخيالة • وخرج مراد بك بفرسانه ومراكبه المحملة بالمدافع للاقلافة الفرنسيين فى البحيرة •

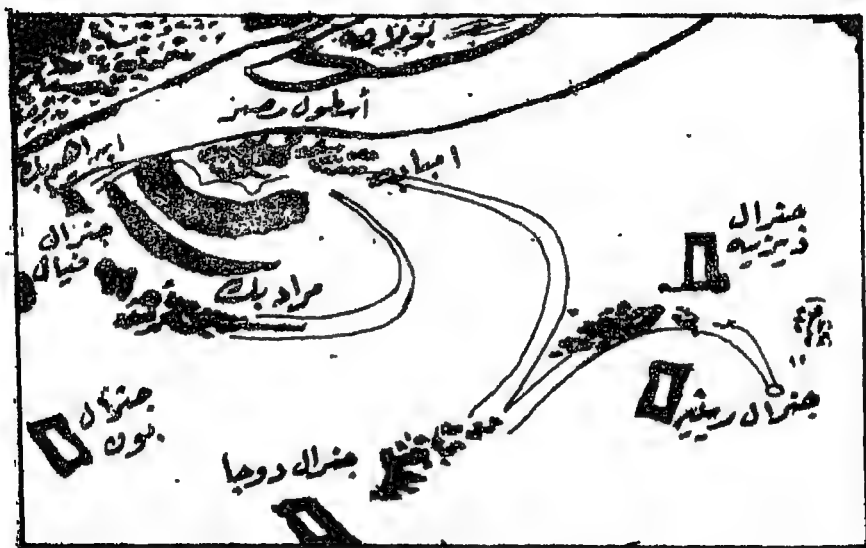
معركة شبراختيت (٢٩ محرم ١٢١٣ هـ - ١٣ يوليو ١٧٩٨)

التقى مراد بك بالفرنسيين بالقرب من شبراختيت وبذل مع أمرائه الفرسان أقصى جهدهم ولكن عدة الفرنسيين وأسلحتهم الحديثة تغلبت فى النهاية على شجاعة فرسان المماليك وأحرق الجنود الفرنسيون مراكب مراد بك وعاد مراد بك مع ما بقى من جنود فرسانه لينضم الى قوات القاهرة قام الفرنسيون بعد معركة شبراختيت بقيادة بونايرت بالزحف الى القاهرة محملين قواتهم على المراكب فى النيل وعلى الأقدام على الشاطئ • ووزع نابليون المنشورات والتحذيرات على القرى فى الطريق وكانت هناك كثير من المقاومات من الفلاحين والعربان على طريق تقدم الفرنسيين • وكان بونايرت وجنوده يغالون فى التنكيل والاساءة الى جثث القتلى من فرسان المماليك ورجال المقاومة من المصريين والعربان وذلك جعل المقاومة تشتد كلما تقدم الجيش الفرنسى على الطريق رغم المنشورات والتحذيرات الفرنسية بعد ان رأى الشعب بعينه ما حدث من تنكيل وذبح وتمثيل بجثث القتلى •

معركة أمبابة (٦) (٢١ يوليو ١٧٩٨ م - ٧ صفر ١٢١٣ هـ)

وأخيرا عند بشتيل وبالقرب من أمبابة أقام المماليك بقيادة مراد بك خطا دفاعيا عندما علموا بتقدم الفرنسيين فى النيل وعلى شواطئه وكان قد انضم الى جيش مراد بك العساكر الأرنأود القادمون من دمياط كما انضم عدد كبير من الأهالى فى المتاريس مسلحين بالأسلحة البيضاء والفتوس والنبايت والمساوق والسكاكين وأقاموا مانعا بدائيا على النيل عبارة عن جنازير حديد مشدودة بين شاطئ النيل • وقاتل الجميع ببسالة وخاصة فرسان المماليك الذين أبلوا بلاءا حسنا وقتل فى هذا الاشتباك أشجع الفرسان كأيوب بك الدفتردار ومن قادة المصريين عبد الله الجرف وعدد كبير من كشافى (وكلاء محافظين) محمد بك الألفى • وأخيرا انهزمت شجاعة المماليك والمصريين التى كان ينقصها السلاح الحديث المؤثر وإزاء التفوق الساحق لنوعية سلاح الفرنسيين وعددهم وعدتهم فوقعت الهزيمة المحتومة وهرب جميع أمراء المماليك من الميدان تاركين العمامة يقودهم رجال الأزهر يواجهون الاحتلال الفرنسى •

(٦) نفس المصدر السابق ص ٢٠٢ •



تفاصيل معركة امبار ٢١ يوليو ١٧٩٨

أما في القاهرة فكان الرفض المصرى يشكل حركة وطنية ثورية تشمل الأمة كلها بكل طوائفها وطبقاتها فالجميع فى شوارع القاهرة يقاتلون ببسالة وتضحية تذهل نابليون والفلاحون يشنون أول حرب فلاحية فى تاريخ الشرق وحتى الأغنياء وسائر الناس لم يكونوا أقل وطنية واستعدادا للبذل والتضحية وكانت الأمة المصرية بغريزتها الصادقة وبما تعرفه عن السلوك الاستعماري الظالم وبما ترسب فى ذاكرتها من ممارسات الحروب الصليبية التى شنتها الفرنجة (٧) على بلاد العرب (١٠٩٥ م) كانت تدرك انها مطالبة بالقتال دفاعا عن وجودها وكيانها ومصالحها . ورغم تفوق نابليون العسكرى بالاضافة الى أسلوبه الثقافى الاستعماري فى محاولة ملاينة واستمالة الشعب المصرى الا انه بالعكس قوبل بمقاومة عنيفة لا شك انها كانت تثبت حقيقة سجلها أحد المؤرخين الفرنسيين (جنرال لوجيه) بقوله « كان الاسلام بالطبع هو الحائل الأكبر دون هذا الجو المنشود من الثقة المتبادلة » (التى حاول نابليون غرزاها) .

طلب الأمان (٨) وبعد انتهاء معركة امبابية لصالح الفرنسيين اعتقد الفرنسيون ان الأمر استتب لهم فقاموا بتوزيع المنشورات المضللة محاولين مخادعة العامة مدعين أنهم حضروا للمحافظة على حقوق السلطان التركى المسلم وانهم سيحكمون بمبادئ الاسلام . وقام الفرنسيون بتوزيع هذه المنشورات وهذه الدعايات التى لم تنطل أهدافها على العامة بفضل توعية قادتهم الأزهرين وأخذ الفرنسيون يلصقونها على الجيطان .

اعادة تنظيم جهاز الحكم فى مصر

قام الفرنسيون بعد دراسة أسلوب الحكم فى مصر وبعد ان راجع نابليون نظام الحكومة المصرية والذى كان عبارة عن مجموعة من القوانين والنظم التى أحكم وضعها السلطان سليم الأول منذ فتحه لمصر لكى يضمن السيطرة العثمانية على البلاد المصرية حيث كان نظام الحكم وقت الغزو الفرنسى يتلخص فى سلطة الولى التركى الاسمية (وأميرا للماليك) ويطلق عليه شيخ البلد وكان بمثابة رئيس الوزراء ويعاونه ٢٤ عضوا من أمراء الممالك وهم أعضاء الديوان أى أعضاء الوزارة وهم فى نفس الوقت حكام المديريات (المحافظات) سناجق . وأراد بوناپرت ان يعيد التنظيم الحكومى بما يحقق السيطرة الفرنسية الكاملة مع تحقيق شئ من ولاء زعماء الشعب وبالتالي بتعيينهم فى هذا التنظيم فيضمن ولاء الشعب للسلطات الفرنسية فقد جاء التنظيم الفرنسى على شكل ديوان أيضا .

(٧) ودخلت الجيوش الأزهر للأستاذ جلال كشك من ١٦٦ ص ١٨٢ ، ص ١٨٣ .

(٨) الحملة الفرنسية للأستاذ الرافى جزء أول ص ٢١٣ .

والديوان تحت حكم الفرنسيين كان يتكون من عشرة أعضاء (٩) من زعماء الشعب من علماء الأزهر ففي يوم الخميس الثالث عشر من صفر ١٢١٣ هـ (٢٥ يوليو ١٧٩٨) أصدر بونابرت أمرا بنظام الحكم في مصر ثم شرع مباشرة في طلب المشايخ والوجاقية للاجتماع عند قائمقام صارى عسكر فلما استقر بهم الجلوس خاطبهم وتشاور معهم في تعيين عشرة أنصار من المشايخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى ومحمد المهدي وموسى الرسى ومصطفى الدمنهورى وأحمد العرايشى ويوسف الشبراخيتى ومحمد الدواخلى وحضر هذا المجلس أيضا مصطفى كتخدا بكر باشا والقاصى وقلدوا محمد أغا المسلمانى أغات مستحفظان (محافظ القاهرة) وعلى أغا الشعراوى والى (رئيس الشرطة) وحسن أغا محرم (أمين احتساب) لمراقبة الأسواق والأسعار والأوزان وقد كانت (١٠) هذه المناصب من قبل وقفا على جنس المماليك حيث كانوا يعتقدون ان شعب مصر لا يخافون الا الأتراك ولا يحكمهم سواهم . أما هؤلاء المذكورون فكانوا بقايا البيوت القديمة (العريقة) الذين لا يتجاسرون على الظلم كباقي المماليك والأتراك ثم قلدوا ذى الفقار محمد بك كتخدا بونابرته (سكرتير مصرى لبونابرت للاتصال بالديوان) ولرقابة أعمال الديوان فى نفس الوقت .

اختصاص الديوان

وكان من اختصاص هذا الديوان تعيين رؤساء الموظفين ولكن ترقيتهم مباشرة فى الحقيقة كانت للرؤساء الفرنسيين وكانوا مجردين من كل سلطة . واحتفظ الفرنسيون بتعيين بعض كبار الموظفين (١١) دون استشارة الديوان فكان المسيو (بوسليج) مديرا للشئون المالية للحكومة (وزير المالية الفعلى) ويطلق عليه أيضا مدير الحدود ويعبر عنه بالروزنامجى أى مدير الروزنامة وعينوا (برتلمى الرومى) (١٢) كتخدا مستحفظان (وكيل المحافظ) وقسموا القاهرة وبولاق ومصر القديمة الى عشرة أخطاط عينوا لكل خط حاكما (قومندان) فرنسيا (رؤساء أحياء) ثم عينوا أحد الأفرنج أمين البحرين (١٣) (مدير الجمارك) وآخر

(٩) الجبرتى جزء ٣ ص ١١ .

(١٠) المصدر السابق الجبرتى ص ١١ .

(١١) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الراقى جزء أول ص ١٠٢ .

(١٢) الجبرتى جزء ٣ ص ١٢ .

(١٣) الاسم العامى هو « برطلمين » وكان يتناول الرشاوى ومن اسمه استخرج العامة

لفظ « البرطلة » للرشوة .

(أغا الرسالة) أى مدير البريد • وعهد نابليون الى المسيو سوى مدير مهمات الجيش لينظم مكاتب البريد فى القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط والرحمانية والمنصورة • وكان من أبواب المشورة فى الديوان الخواجة موسى أما وكلاء الفرنساويين فكان منهم حنا بينو •

نظام العمل

كان هذا الديوان يجتمع يوميا بحضور ثلاثة من أعضائه يجتمعون طول اليوم بالتناوب وبدأ الفرنسيون وعن طريق الديوان بحصر أملاك وثروة أمراء المماليك الهاريين واستولوا عليها لحساب الفرنسيين • ثم أخذ الفرنسيون بمعاونة الديوان فى مطاردة اللصوص وبخاصة الجعيدية والخطافة من العربان الذين يهددون أمن الشعب على أطراف الصحراء وبصفتهم منافسين للفرنسيين فى نهب ثروات الشعب • ثم اهتم الفرنسيون بمطاردة المماليك وأمراهم الهاريين وكان مراد بك بعد الهزيمة مباشرة قد ذهب الى قصره وقضى بعد اشغاله بسرعة ثم بادر بالفرار هو ومن معه الى الجهة القبليّة (وجه قبلى) أما ابراهيم بك والباشا التركي والأمراء العسكر فقد فروا الى جهة العادلية واستمرت هذه المطاردة الفرنسية لمراد بك وابراهيم بك حتى آخر أيام الفرنسيين فى مصر وانضم بعض أهالى المحافظات الجنوبية الى هذه المقاومة ليس حبا فى المماليك ولكن انتظارا لانتصار المماليك المسلمين على الجيش الفرنسى فكان عبء القتال يقع كاملا على عاتق أفراد الشعب المصرى ومناصرة المماليك فى الوقت المناسب عند اشتداد المعارك •

التنافس الغربى

واقعة أبى قير البحرية (١٤) أول أغسطس ١٧٩٨

يبدو ان نابليون قد تجاهل ما كان لبريطانيا اذ ذاك من السيادة البحرية فى البحر المتوسط ولاسيما ان جيشه وأسطوله المتجه لغزو مصر قد تمكن من الافلات من الاسطول البريطانى الا أن انجلترا تأكدت سيادتها البحرية فدهم الاسطول البريطانى الاسطول الفرنسى الرابض فى خليج أبى قير وحطمه وأحرق معظمه تماما فى أول أغسطس ١٧٩٨ كما انسحب الاسطول الروسى من البحر الأسود فضرب حصارا حول جزر بحر ايجيه (الجزر الايونية) التى تحتلها فرنسا وظل حصارها مشددا

(١٤) الغرب والشرق للأستاذ محمد على الفتيت (المرحلة الأولى) ص ١٤٧ وعبد الرحمن الرافى جزء أول ص ٢١٥ •

حتى تخلت عنها فرنسا . وظل الانجليز بمراكبهم (١٥) بميناء الاسكندرية يقدون ويروحون ويرصدون الفرنسيين - ووقف الانجليز بطريق البحر يمنعون المسافرين في حصار شامل وبالأخص على الفرنسيين وكان تصرف القيادة الفرنسية في القاهرة هو التماهي والامعان في الجشع وسلب المال وفرض الضرائب على كل مقومات الحياة الشعبية المصرية لتعويض خسائرهم فيما منيت به قواتهم البحرية خصوصا وانه كان ضمن اسطولهم المحترق في أبي قير البارجة Orient المسماه بنصف الدنيا والتي كانت مدرعة بالنحاس الأصفر وكان بها أموالهم وجانب كبير من دفاترهم واستطاع الأسطول البريطاني (١٦) المنتصر أن يفرض السيطرة الكاملة فكان يجوب بصفة دائمة بين دمياط والاسكندرية تحت قيادة الكومودور (هود) ويقطع كل اتصال بين جيش بوناپرت والعالم الخارجى بصورة فعالة وظل شاطئ أبي قير كله ولعدة ليالى عقب المعركة مشتعلا بالنيران والحرائق التي أشعلها البدو (١٧) شمانية فى الفرنسيين الغزاة .

اندلاع المقاومة

بعد سقوط القاهرة وطلب الأمان وفرار أمراء المماليك وأتباعهم وجلائهم عن القاهرة اعتقد الفرنسيون خطأ ان الأمور استتبعت لهم فإرسل بوناپرت قواته المختلفة الى شتى أنحاء مصر سواء فى الدلتا أو فى الصعيد لأجل السيطرة على البلاد وفرض جباية الأموال بشتى الأساليب التعسفية بأشد من أساليب المماليك وتعداها الى أسلوب السلب وفرض الاتوات فكان الشعب يقابلهم بالمقاومة واشتدت المقاومة والاضطرابات حول رشيد وفى دمنهور وتكرر الاعتداء على قوافل الفرنسيين هناك . وفى أبى زعبل يوم ٤ و ٥ أغسطس ١٧٩٨ معركة انضم فيها المماليك للأهالى واشتدت المقاومة حتى انسحب الفرنسيون من الخانكة تحت ضغط عنف المقاومة . وفى الصالحية اندلعت المقاومة فى ١١ أغسطس ١٧٩٨ وكان العنصر الأساسى فى المقاومة هم فرسان المماليك وقام العربان بدور فعال فى نهب وقتال الفرنسيين . ثم عمت الاضطرابات فى الشرقية واستمر فيها الأهالى يناوشون الحاميات الفرنسية واشتدت المقاومة فى أكتوبر ١٧٩٨ (معركة بلبيس فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨) واستمرت المقاومة الشعبية فى الشرقية مدة طويلة حتى آخر ديسمبر ١٧٩٨ وفى المنصورة وسنباط اشتعلت المقاومة فى أغسطس ١٧٩٨ وكذلك فى ميت غمر وفى البحر

(١٥) الجبرتي جزء ٣ ص ١٥ .

(١٦) بوناپرت فى مصر تأليف ج . كريستوفر هرولد ص ١٣٥ .

(١٧) هذا يؤكد دور البدو والعربان انهم شاركوا فى مقاومة الاحتلال .

الصغير • وتردد في مديرتي المنصورة ودمياط اسم البطل الثائر حسن طوياد شيخ بلدة المنزلة والأمير مصطفى • كما اندلعت في مركز دكرنس في بلدة الجبهالية ثم في دمياط في سبتمبر ١٧٩٨ أعمال المقاومة وكانت هناك موقعة الشعراء التي بلغ ثوارها أكثر من ١٥٠٠ مقاتل استخدموا في معركتهم المدافع واندلعت المقاومة في المنزلة في ٤ أكتوبر ١٧٩٨ وكذلك في المطرية •

المقاومة في الوجه القبلي

بعد معركة الأهرام فر مراد بك الى الصعيد واستقر في الفيوم ومعه جانب من أمراء المماليك وفر إبراهيم بك ومعه جانب آخر من المماليك الى سوريا • وانضم الى مراد بك عدد غفير من الأهالي المستعدين للمقاومة وكانوا هم السبب الرئيسي في شدة وعنف مقاومة مراد بك في الصعيد والتي اتخذت مقاومتهم الصبغة العسكرية والتسليح القوي بحيث كانت شوكة في جانب الاحتلال الفرنسي فان المقاومة (١) التي لقيها الجنود الفرنسية في الوجه البحري كانت في الغالب ذات صبغة محلية ولكن القوات الفرنسية بالوجه القبلي هي التي اضطرت ان تواجه عمليات حربية حقيقية • واضطر نابليون ان يخصص جانبا كبيرا من قواته تحت قيادة القائد الفرنسي « ديزيه » (١٨) لاختضاع الوجه القبلي لمطاردة وهزيمة مراد بك والقضاء على مقاومته في الصعيد لأنه اعتبر بقاء قوة معادية له في الصعيد بمثابة خطر يهدد سلطات حكومة الاحتلال • ويشجع المقاومة الشعبية ويعطل الملاحه في النيل وبذلك يمنع وصول الغلال اللازمة للبلاد ولجيشه من الوجه القبلي • واتصل بونابرت بمراد بك عن طريق قنصل النمسا المسيو روستي يفاوضه على ان تبقى مديرية جرجا (١٩) تحت سيطرة مراد بك بشرط أن يدفع للفرنسيين الخراج الذي كانت تدفعه المديرية سابقا وقبل الحملة وعلى أن يخلى مراد بك الى ما قبل حدود مديرية جرجا من قواته • ولكن مراد بك رفض شروط نابليون للصالح والتسليم •

مطاردة مراد بك (سبتمبر ١٧٩٨)

قام الجنرال ديزيه على رأس قوة تبلغ ٥٠٠٠ جندي يكامل أسلحتهم ومدافعهم بالسفن الحربية في النيل ووصل الى بنى سويف يوم ٤ سبتمبر ١٧٩٨ ثم احتل البهنسا ولما شعر مراد بك بتحرك الفرنسيين انسحب الى أسيوط ولم يتمكن من سحب كل أسطوله فاستولى

(١٨) تاريخ الحملة الفرنسية للأستاذ الراحل جزء أول من ص ٣٣٧ الى ص ٣٩٥ •

(١٩) مراسلات نابليون جزء (٤) وثيقة رقم ٢٩٢١ •

الفرنسيون على بعض قطع الاسطول المملوكي واستولوا على ما بها من ذخيرة وحبوب وتابع ديزيه تقدمه حتى وصل الى ملوى يوم ١٢ سبتمبر ثم أسبوط يوم ١٤ سبتمبر ١٧٩٨ ولم يجد أى أثر لمراد بك وأسطوله حيث رحل الى جرجا فعاد ديزيه الى ديروط وشرع ديزيه فى الاستيلاء على الغلال وعلى مراكب الأهالى وثرواتهم فاستهدفت المراكب الفرنسية هجمات الأهالى المتعاونين مع المماليك . وفى ٣ أكتوبر ١٧٩٨ اشتبكت قوات ديزيه بقوات مراد بك والأهالى وفى اليوم التالى أحاط الأهالى فى الشاطئ بأسطول ديزيه وأطلقوا عليه النيران واضطر ديزيه الى الانسحاب بطريق البر بعيدا عن الشاطئ .

موقعة شبومنت ٧ أكتوبر ١٧٩٨

ويوم ٦ أكتوبر بدأ الأهالى والمماليك يشتبكون مع الجيش الفرنسى فى شبومنت وكان مراد بك قد جمع قوة كبيرة من أهالى الفيوم كانت تقدر بنصف قوات الجيش الفرنسى واحتلوا مواقع حصينة ونصب مراد بك على تل مرتفع يشرف على ميدان القتال ثمانية مدافع وفى يوم ٧ أكتوبر بدأ الاشتباك واستماتت قوات الأهالى والمماليك فى القتال وفتكت بكثير منهم مدفعية ديزيه وكانت المعركة بين كر وفر نظرا لتعادل الفريقين تقريبا الفرنسيون بقوة النيران والمصريون بعددهم واستماتتهم فى المقاومة وكادت الدائرة تدور على الجيش الفرنسى عندما هاجمت جموع المصريين من الأهالى والمماليك الفرنسيين وأحدثوا بهم خسائر جسيمة وأخيرا اضطر مراد بك وقواته للتقهقر بعد فتك المدافع الفرنسية بهم وكانت خسائر الفرنسيين ٣٤٠ قتيلًا و ١٥٠ جريحًا وخسائر المصريين كانت ٤٠٠ قتيل وفى هذا الوقت بالذات ظهرت بوادر ثورة القاهرة .

ثورة القاهرة الأولى (٢٠) : ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ م - ١١ جماد أول ١٢١٣ هـ

رغم مظاهر الهدوء فى القاهرة بعد الغزو الفرنسى ورغم محاولة بونايرت استمالة واسترضاء المصريين وقادتهم المشايخ بإنشاء الديوان بعضويتهم ورؤاستهم واشترأكه فى حفلاتهم فقد كان أعضاء الديوان يتظاهرون بالطاعة للسلطة الفرنسية إلا أن « قلوبهم كانت منكرة ونافرة » وليس أدل على ذلك من انه « عندما جمع بونايرت أعضاء الديوان للباسهم طيلسان (شارة) الجمهورية الفرنسية الثلاثى الألوان وعندما بدأ بوضع الشارة بيده على كتف الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان تكريمًا

له وتعظيما رمى بها الشيخ الشرقاوى على الأرض محنقا غاضبا واستعفى من الديوان ورفض باقى المشايخ أعضاء الديوان وضع الشارة ، وكانوا يمثلون المؤسسة الوطنية وكان فى ذلك معنى رفض الاعتراف بالسيادة الفرنسية وبالتالي استجاب الشعب لهذا السخط وهذا الرفض وبخاصة عندما تصاعدت تصرفات وأعمال الفرنسيين الاستفزازية والظالمة حتى انتهت بنشوب ثورة القاهرة الأولى بعد ان استفزت قسوة الحملة الفرنسية شعور العامة • وقد مرت هذه الثورة بمراحل الثورات الطبيعية فكانت عبارة عن سلسلة من الثورات كل منها تمهيد للآخرى •

ثورة القاهرة الأولى

أولا : مرحلة استغلال وتحكم الأقلية فى الأغلبية

الممارسات الفرنسية الاستفزازية الظالمة (٢١)

١ - سسلوك نابليون مع المصريين بعد الأمان خالف فى كثير من المواطن ما وعد به فى منشوراته وبياناته فقد كان ينكر على الممالك ظلمهم واعتسافهم وقام هو بأسوأ من اعتسافهم وظلمهم .

٢ - فرض الفرنسيون على سكان القاهرة ضرائب فادحة فى شكل سلف اجبارية وبدأ نابليون يطلب سلفا باهظة من التجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام وتجار الفرنج . وفرض على الاسكندرية ٣٠٠ ٠٠٠ فرنك وعلى رشيد ١٠٠ ٠٠٠ وهكذا على دمياط وكذلك على تجار المنسوجات وتجار البن والبهار وعلى الأقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب فى الأقاليم وعلى تجار خان الخليلي ووكلاء الصابون وتوكيلات الفاكه وحتى على السقاين وتجار السكر والأقمشة .

٣ - تمادى الفرنسيون فى طرق ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بشتى الوسائل وفرضوا اتاوات وغرامات على نساء البكوات الممالك المتخلفات فى القاهرة ليفتدين بها أنفسهن واستولوا على منازلهن عنوة وكذا على متاع أزواجهن حتى ان السيدة نفيسة زوجة مراد بك دفعت لهم اتاوة كبيرة تقدر ١٢٠ ٠٠٠ فرنك فرساوى لتفتدى نفسها .

(٢١) الحركة القومية للاستاذ عبد الرحمن الرافعى من ٢٦٠ الى ٢٦٨ .

وكان الشعب يراقب هذا التعنت ويزداد سخطا على الفرنسيين رغم انه كان لا يكن أى احترام أو مودة لزوجات الممالك ولكن هى الشخصية المصرية تحتقر جلالة ونذالة القوى الذى يستضعف ويستغل النساء مهما كانت جنسياتهن أو انتماؤهن .

٤ - طلب الفرنسيون الاستيلاء على الخيول والجمال والحمر والأبقار والثيران والسلاح من الفلاحين وسكان الأقاليم أو أخذ نقود مقابلها - وكان الفرنسيون يفتشون المنازل ويكسرون الدكاكين فى كل يوم بحثا عن المخبثات الثمينة وينقلون على الجمال والحمر الأمتعة والفرش والصناديق والسروج المنهوبة من الشعب كما يستخرجون الخبايا والودائع وفرضوا الاتاوات على أهل الحرف والأسواق .

٥ - تمادى الفرنسيون وتوسعوا فى عملية جمع الأموال بدون وجه حق بالإضافة الى الضرائب المفروضة وبخاصة بعد انحراق أسطولهم فى أبى قير كتعويض عن خسائرهم فى هذه المعركة وبذلك صارت الحالة من سوء الى أسوأ مما كانت مع الممالك وكان جمع المال يتم فى الغالب تحت الضرب والاهانة بقسوة وعنجهية .

٦ - أخرج الفرنسيون كثيرا من الأهالى من أصحاب البيوت من منازلهم بحجة حاجتهم اليها كما هدموا كثيرا من المباني والآثار والمساجد وأبواب الحارات بحجة تحصين القاهرة .

٧ - اعتقل الفرنسيون حاكم الاسكندرية السيد / محمد كريم لا لئى جرم ارتكبه ولكن لوطنيته والدفاع عن وطنه وحوكم ظلما فى محاكمة صورية دون أى ذنب اقترفه ونفذوا فيه حكم الاعدام على رأى من أفراد الشعب الذى يحترمه ويقدره وبعد أن أبى ان يفتدى نفسه بالمال رغم ما كان للسيد كريم من مكانة شعبية عظيمة .

٨ - قام الجنود الفرنسيون بحرق كثير من القرى والمنازل والتنكيل بالأهالى بحجة مقاومتهم للوجود الفرنسى وارتكبوا فى هذا المجال فظائع وجرائم وحشية وكانوا يحضرون الرهائن مكبلين وعلى رأى من الشعب ويحبسونهم فى القلعة وكانوا يسرفون فى قتل الناس ليدخلوا الرهبة فى قلوبهم ويحققوا الخضوع والاذعان وكان على رأس هؤلاء السفاحين نابليون بونابرت نفسه حيث جاء فى أحد تعليماته لحاكم المنوفية الفرنسى (٢٢) يجب أن تعاملوا المصريين بمنتهى القسوة لأنى هنا أقتل كل يوم ثلاثة وأمر بأن يطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة وهذه هى الطريقة الوحيدة لاختضاع هؤلاء الناس .

(٢٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٠١ .

اشاعة الفرقة والتجسس

ولأجل مزيد من السيطرة تعتمد الفرنسيون الاعتماد على بعض السفلة من المقيمين بمصر ومن أحقر أنواع المواطنين ممن تهون عليهم أنفسهم سواء من المسلمين أو من الأقباط أو المغاربة أو الروم المتمصرين بغرض التجسس على أبناء الوطن المشتركين في المقاومة أو على مساتير الناس من الأقباط والمسلمين لنهب ممتلكاتهم عن طريق الغرامات أو الفردات أو السلب من عائلات المماليك . وبالغ الفرنسيون في إبراز دور العناصر القبطية من هؤلاء الجواسيس بصورهم كأحد أسباب غرس بذور الخلاف والفتنة بين عنصرى الأمة الأقباط والمسلمين . وجعلوا هذه العناصر القبطية العميلة تتماذى في التنكيل بالسكان وبخاصة المسلمون وممارسة الاضطهاد والعنف معهم فيأتى رد فعل الأهالى المسلمين متخذاً مظهر العنف ضد هذه العناصر العميلة يتعداها الى عامة المواطنين الأقباط وهذا ما كان يرمى اليه المستعمر الفرنسى بمخططة وبخاصة أثناء الانتفاضات والثورات الشعبية فى مواجهة قسوة الاحتلال الفرنسى ورغم أن هذه المقاومات الشعبية كانت أساساً كاسلوب رفض العامة لتسلط وتحكم وقهر الاحتلال الفرنسى الا أن مثل هذه الاشتباكات كان يرمى الفرنسيون من ورائها مزيداً من الفرقة وضرب الوحدة الوطنية وغرس الكراهية والبغض بين عنصرى الشعب ومن الأمثلة على هذه السياسة المخططة :

١ - برطلمين

أو برتلنى وكان يطلق عليه العامة فرط الرمان (٢٣) وقد قلده الفرنسيون وظيفة كتحدا مستحفظان (وكيل المحافظ) كما جعلوه عضواً فى الديوان والمذكور كان من أسافل نصارى الأروام العسكريين القاطنين بمصر وكان من الطبقية (المدفعية) عند محمد بك الألفى وكان له جانب بخت الموسيقى يبيع فيه القوارير والزجاج أيام البطالة (الأجازة) ومن أمثلة المهام الحقةرة التى كان يقوم بها برطلمين ومما يساعد على اشعال الفتنة أنه أثناء وبعد ثورة القاهرة الأولى (١) انتدب للتجسس (التجسس على من يحمل السلاح من المصريين فى وجه الفرنسيين) .

وكان هذا الضابط (بارتلمى) (٢٤) برطلمين الزاهى المظهر والمسلك يقود سرية قوامها مائة من الأروام والجزائريين والمغاربة المتوحشين وكان فارغ القامة لاينسى الناظر اليه مظهره وهو يخرج على وأس أتباعه الأوغاد فى عمامة بيضاء ضخمة تظهر بشرته البرونزية

(٢٣) الجبرتى جزء ٣ ص ١١ ، ص ١٢ .

(٢٤) بولابرت فى مصر تأليف كريستوفر هيرولد ص ٢٧ ، ٢٨ .

ونيناه تلمعان ، اعلى سفتيه ابتسامه يجمد لها الدم فى العروق وقد ارتدى ثوبه اليونانى الموشى بالفصص وحزاما أحمر ، وسراويل ضخمة ومعطفاً تعلوه رمانتان مما يضعها الكولونيل على كتفيه . وكانت زوجته العملاقة الرهيبة تركب أحياناً الى جواره . وكان محباً للعراك لاطهار شجاعته ولكن كان أحب الأشياء الى قلبه هو قطع الرقاب بالجملة . وكان يروى عنه أنه اذا لم يجد من البدو المتمردين من يحمل رؤوسهم الى القاهرة نذكارا كان يعزى نفسه برؤوس بعض الفلاحين العائري الحظ الذين يصادفهم فى عودتهم للمدينة . وقدم مرة الى الجنرال « ديبوى » زكية مملوءة بأكملها برؤوس من رجال البدو بينما كان هو وجنوده يتناولون طعام الغداء .

« وبث أعوانه فى الجهات ينجسبون (٢٥) فى الطرقات فيقبضون على الناس بحسب أهوائهم فيحكم فيهم بمراده ويعمل برأيه واجتهاده . يأخذ منهم الكثير (المعتقلين) ويسير فى موكبه وهم موثقون بين يديه بالبحال ، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجون ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب » .

٢ - نيقولا بابا زوغلو

كان فى عهد الماليك (٢٦) خادماً لمراد بك . وهو رومى الأصل وكان رئيساً للترسانة التى أنشأها مراد بك بالجيزة وخدم الماليك الى أن حلت بهم الهزيمة فى معركة الهرم فعرض خدماته على الفرنسيين واستعانوا به فى تكوين تشكيل عسكري على أساس طائفى وبلغ عدد جنوده فى هذه الكتيبة الطائفية فى عهد كليبر ١٥٠٠ مقاتل وكان له دور مماثلاً لدور يعقوب حنا فى التجسس على المصريين والشوار منهم ومساعدة الفرنسيين فى عمليات الانتقام والتكيل بالثوار والوطنيين .

٣ - شكر الله

لما اشتد أمر (٢٧) الفرنسيين فى مطالبتهم بالمال كلفوا لهذه المامورية لجمع المال رجلاً قبلياً يسمى « شكر الله » فاستبد بالناس بقسوة لا توصف فكان يدخل دار أى شخص لطلب المال وبصحبتة العساكر الفرنسية ومعهم العقلة وبأيديهم الفؤوس والقزم وأدوات الحفر

(٢٥) الجبرتى جزء ٣ ص ٢٧ ، ص ٢٨ .

(٢٦) الرافعى جزء ص

(٢٧) ودخلت الخيل الأزهر للأساذ جلال كشك ص ٤٣٦ .

والهدم • فيأمرهم بهدم الدار اذا لم يدفعوا له ما يقرره هو وفي الحال •
ومما ارتكبه من سوء الأفعال ببولاق أنه كان بعد ثورة القاهرة وبعد هدم
الفرنسيين للحى وحرقه عن آخره ، كان يحبس ما يقى منهم أحياء من
الرجال والنساء ويدخن عليهم بالقطن والقطران وينوع عليهم العذاب •

٤ - استخدام الأقلية من اليهود المصريين
أصدر نابليون نداء الى اليهود بالانضمام تحت رايته لخيانة المصريين
ووعدهم بأن يعيدهم الى فلسطين ويملكهم اياها •

٥ - المعلم الجنرال يعقوب حنا
ولد فى ملوى فى حوال عام ١٧٤٥ (٢٨) أبوه حنا وأمه مارية غزال
وفى عهد على بك الكبير التحق بخدمة « سليمان » أغا بالانكشارية وكان
رئيسها ولما نشب القتال بين مراد بك وقوات قبطان باشا التركى اشترك
فى هذه الحرب مع مخدمه سليمان بك أغا وعندما دخل بونايرت مصر
التحق المعلم يعقوب بخدمة الفرنسيين • وكان أفاكا كما كان غيره من
العملاء المسلمين • وحيث كان له خبرة بمناطق الصعيد فقد ألحقه
الفرنسيون بخدمة الجنرال « ديزية » قائد حملة الصعيد ليطلعه على
مخبآت المصريين ومقوماتهم فكان المعلم يعقوب أدواته وعميله فى التكيل
بالصعيدة أقباط ومسلمين • وكان أهل الصعيد يسمون فرقة ديزية
باسم « جيش المعلم يعقوب » وقال عنه الجبرتى « (٢٩) فى خامس عشرة
سافر عدد كبير من عساكر فرنساوية الى جهة الصعيد وكبيرهم ديزية
بصحبتة يعقوب ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخبآت وكان من أبشع
ما قام به ومن أخطر الأعمال عندما سمح الجنرال بليار لجنوده يستحيون
النساء ليرفع معنوياتهم فقدم خدماته الحقيرة فى هذا المجال بحيث كان
يفتش عن نوع آخر من المخبآت وذلك بالبحث وتقديم (٣٠) فتيات
الصعيد مسلمات أو قبطيات ليقدمهن الى ساداته من الضباط والجنود
الفرنسيين •

وقد كانت هذه الأعمال من الأسباب الرئيسية لاشتعال الثورات
فى جميع أنحاء البلاد المصرية وليست الأسباب الجانبية الأخرى لأنه
لا توجد أى أمة حية بعقيدتها الاسلامية أو المسيحية لا تهب لمقاتلة مثل
هؤلاء الفجرة ومعلمهم وجنرالهم يعقوب حنا وأمثاله •

(٢٨) نفس المصدر من ص ٤٢١ الى ص ٤٣٦ •

(٢٩) الجبرتى جزء ٣ ص ١١٤ •

(٣٠) دخلت الخيل الأزهر من ٤٣٧ •

ومن شدة ثقة الفرنسيين في ندالة المعلم يعقوب فقد قال الجبرتي (٣١) « وركب سارى عسكر » كليبر « من يومه ذلك ، وذهب الى الجزيرة ووكل يعقوب يفعل في المسلمين ما يشاء » . وبعد حملة الصعيد الفرنسية التي رجعت شبه خائبة عاد يعقوب حنا الى القاهرة حيث حول بيته الى قلعه حربية ضمن (٣٢) الخطة الفرنسية التي أعقبت الثورة الاولى وهي تطويق القاهرة بالقلاع المحصنة احتياطا لاي تحرك مقبل . وعندما نشبت الثورة الثانية حارب المعلم يعقوب مواطنيه من قلعتهم هذه وبواسطة الجنود الفرنسيين الذين كانوا بها بصفة دائمة ، ولما انتهت الثورة أشرف يعقوب على اعتصار المصريين بالتعسف في جمع الغرامات والفردات . واستعان به الفرنسيون في تجنيد عدد من شباب القبط في تشكيل عسكرى أطلقوا عليه الفيلق القبطي .

الفيلق القبطي ١٢١٥ هـ واحد ١٨٠٠ ميلادية
وفيه طلب الفرنسيون (٣٣) عسكرا من القبط وأرسلوا الى الصعيد فجمعوا من شبابهم نحو الألفين وأحضروهم الى مصر وزيوهم بزيمهم وقيدوا لهم من يعلمهم كيفية حربهم وتدريبهم على ذلك وجعلوا يعقوب القبطى سارى عسكر القبطية بعد أن جمع شبان القبط وحلق لهم لحاهم وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنسية مميزات عنهم بقبع (قبعات) يلبسونها على رؤوسهم مشابهة لتشكل البرنيطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة مع ما يضاف اليها من قبح صورهم وسود أجسامهم وزفارة أبدانهم . وصيرهم عسكره وعزوته « . استخدمهم في هدم المساكن المجاورة لمسكنه خلف الجامع الأحمر « وبنى قلعتهم وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنان عظام وكذلك بنى أبراجا في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية وفي جميع السور المحيط والأبراج طيقانا (طاقة) للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر . ورتب على باب قلعتهم للخارج والداخل عدة من العسكر الملائمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم البنادق على الطريقة الفرنسية « . وقال الجنرال (٣٤) (مينو) في خطاب أرسله الى بوناپرت « انى وجدت رجلا ذا دراية ومعرفة واسعة اسمه المعلم يعقوب وهو الذى يؤدى لنا خدمات باهرة منها تعزيز قوة الجيش الفرنسى بجنود اضافية من القبط لمساعدتنا » .

(٣١) الجبرتي جزء ٣ ص ١١٤ .

(٣٢) دخلت الخيل الأزهر ص ٤٣٩

(٣٣) الجبرتي جزء ٣ ص ١١٥ .

(٣٤) ودخلت الخيل الأزهر للاستاذ جلال كشك ص ٤٣٧ .

٦ - عبد الله

وتولى رجل قبطى (٣٥) يقال له عبد الله من طرف يعقوب حنا يجمع طائفة من الناس للمساعدة فى عمل المتاريس لحساب الفرنسيين فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم ونعسف معهم .
أما من استخدمهم الفرنسيون من المسلمين فى التجسس والخيانة فكان :

٧ - عمر القلعجى

كلفه الفرنسيون بنسكيل (٣٦) قوة عسكرية فقام بنجنيده عدد كبير من « مغاربة الفحامين » وجمع منهم ومن غيرهم عددا وافرا وبخاصة من اسافل المغاربة وعرضهم على سارى عسكر بونايرت فاختر منهم الشباب وأولى القوة وأعطاهم سلاحا وآلات حرب ودربهم عسكريا ورئيسهم عمر المذكور .

وقامت قوات القلعجى بأول مأمورية لهم حيث أوفدهم بونايرت الى مناطق الدلتا الثائرة والتي تجاوبت مع ثورة القاهرة الأولى فاعتدوا على جنود الفرنسيين وضربوا مركبين بها عدة عساكر فرنساوية فحاربوهم وقتلوههم وذهب عمر القلعجى بقواته الى ناحية عشنا « فلما ذهب أولئك المغاربة أسكتوا الفتنة وضربوا عشنا وقتلوا كبيرها المسمى بأبن شعير ونهبوا داره ومتاعه وماله وبهائمه وكان شيئا كثيرا جدا وأحضروا اخوته وأولاده وقتلوههم » وسكن القلعجى المغربى بدار عند باب سعادة :

٨ - محمد الطويل

وكان محمد الطويل الى وقت أن دمر الفرنسيون وأحرقوا حى بولاق بالكامل فيما قبل نهاية ثورة القاهرة الثانية يقاتل بين صفوف النوار . وبعد ما أصاب حى بولاق من حراپ وأخذ الفرنسيون فى البحث عن البطل مصطفى البشتيلى زعيم بولاق لينكلوا به « ففى يوم الجمعة ثالث عشرينة (٣٧) (ابريل سنة ١٨٠٠) كاتب محمد الطويل الفرنساوية وأخذ منهم الأمان وأوهم أصحابه (النوار) أنه يحارب معهم . وفى وقت هجوم العساكر الفرنساوية اختفى البشتيلى فدلهم عليه (وعلى أعوانه) وقبضوا على وكيله وعلى الرؤساء فحبسوا البشتيلى بالقلعة والباقي ببيت سارى عسكر ٠٠٠ الخ » .

(٣٥) ودخلت الخيل الأزهر - جلال كفشك ص ٤٣٦

(٣٦) الجبرتى جزء ٣ ص ٢٨ .

(٣٧) الجبرتى جزء ٣ ص ١٠٢ .

٩ - شيخ البلد مراد بك

ومن أسوأ العناصر العملية الانتهازية المسلمة والتي تخصصت في
الخيانة فهو أمير البلاد السابق مراد بك (شيخ البلد) والذي كان لايهمه
الا مصلحة وسلطانه الشخصي . فمجرد أن سيطر الجيش الفرنسي على
القاهرة فر الى الصعيد وبرغ في الكر والفر والمناوشة والمراوغة وأمكنه
خداع العامة من أهل الصعيد حتى المتطوعين العرب المكيين (٣٨) القادمين
من الجباز عن طريق مينائي جدة والقصير وكان قادرا وبارعا في اقناع
هؤلاء بالمقاومة وكانوا يحنلون بقواتهم القوات الرئيسية فكان بمكره
وخداعه يدفعهم في مقدمة الصفوف وعندما يجد المعركة أو المقاومة مع
القوات الفرنسية في غير صالحهم وصالحه . قبل أن يقا تل هو من الخلف
ويشتبك مع العدو كان يبادر بالفرار والانسحاب قبل ان تناله وقوات
سمائكه أى خسائر ويجعل الخسائر كلها في صفوف العامة
والمطوعين العرب .

ومنذ تاريخ سابق على ثورة القاهرة الثانية وبمجرد أن حاول كليبر
التفاوض معه فقد بدأت المهادنة وتبادل الهدايا بين كليبر ومراد بك
في شهر جماد الأول (أكتوبر سنة ١٧٩٩) ، وتم الصلح في أوائل ابريل
سنة ١٨٠٠ بشرط أن يقلده الفرنسيون امارة الصعيد تحت حكمهم
ويدفع لهم الخراج الذي (٣٩) كان يسلم للسلطان قبل الحملة الفرنسية .
وتم تبادل التوقيع على الصلح بين مراد بك والفرنسيين في ٥ ابريل
سنة ١٨٠٠ كل ذلك تم وثورة شعب مصر في القاهرة والأقاليم على أشدها
ضد المحتل الفرنسي وأمير البلاد السابق والمفروض أن يكون المسئول الاول
الذي يجب أن يتصدى للمحتل ظل بعيدا عن الأحداث بموجب اتفاقه
الغادر مع الفرنسيين بل تمادى في الخيانة ومد الفرنسيين بالمؤن وعرفهم
على أماكن الأسلاب بل وساعد بالمشورة في خطة احراق القاهرة بل
ومدهم بمواد الحريق .

ولمساعدة حلفائه الفرنسيين أثناء ثورة القاهرة أرسل أحد أنبائه
عثمان بك البرديسي الذي لا يقل خيانة عنه ليصرف المال بك (الوطنيين
المشتركن في الثورة) عن الثورة ويدعوهم الى النكوص على أعقابهم .
وقد جاء في مذكرات كليبر « أن مراد بك (أثناء ثورة القاهرة الثانية)
أرسل عدة قطعان من الماشية ليبرهن له على إخلاصه . وجاءت شروط
صلح مراد بك مع كليبر كلها تؤكد على خيائته . فكانت نص على أن
الحكومة الفرنسية بموجب هذا الاتفاق الاعتراف بمراد بك أميراً
وحاكماً للوجه القبلي ابتداء من بلصفورة بمديرية جرجا الى أسوان في

(٣٨) بولابرث في مصر للمؤلف كريستوفر هيرولد ص ٢٥٦ ، ص ٢٥٧ .

(٣٩) الرافعي جزء ٢ ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ .

مقابل أن يؤدي للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب دفعه لصاحب الولاية على مصر (كليبر الفرنسي) (٢٥٠ كيس ، ١٥٠٠٠ أردب قمح ، ٢٠٠٠ أردب شعير وجيوب) وكانت كل هذه الكميات تخص شعب مصر الذي يقاوم حلفاء مراد بك الفرنسيين) ويسمح مراد بك بأن يحتل الجيش الفرنسي ثغر القصير (وبذلك يحرم مراد بك المقاومة المصرية من وصول المتطوعين المكين) . وكذلك نصت الاتفاقية على أن يدفع مراد بك (من أموال المصريين في منطقة امارته « جرجا ») نفقات الحامية الفرنسية في القصير ولا يجوز لكل منهما (مراد بك أو الفرنسيين) قبول الفلاحين الذين يمتنعون عن دفع الضرائب ويفرون الى منطقة الطرف الآخر . ويتعهد الفرنسيون بحماية مراد بك في حالة مهاجمته (طبعاً من المصريين) كما يتعهد مراد بك أن يرسل الى الفرنسيين القوة الكافية من جنوده الى المنطقة التي يحتلها الجيش الفرنسي في حالة مهاجمة الفرنسيين (طبعاً من الثوار المصريين) على الا تقل القوة التي يرسلها كنجدة للفرنسيين عن نصف قواته . وقمة خيائته لأمنه بل لواجب الوفاء لشريكه السابق في حكم مصر ابراهيم بك الذي لجأ الى تركيا للتعاون مع العثمانيين لاستعادة مصر فقد دأب مراد بك بعد اتفائه مع كليبر على أن يبلغ الجانب الفرنسي عن نوايا واستعدادات وتحركات القوات التركية والتي كان يرسلها له ابراهيم بك (٤٠) من تركيا فقد كان مراد بك المسلم أسوأ من الجنرال يعقوب القبطي في خيائاته وبخاصة لأنه كان سابقاً يمثل أميراً على البلاد وكان يستهين بكل هذه الخيانات ويعتبرها تصرفات طبيعية وكان من أعوانه وعلى شاكلته عدد كبير من أمراء المماليك المسلمين فكانوا على مصر أشد نكالا من أى عناصر خائنة أخرى .

غضب الكنيسة القبطية الوطنية والكتاب الأقباط من المعلم يعقوب حنا

وتسجل كتب التاريخ القبطي تبرؤ الكنيسة المصرية من الشخص الذي ينحرف عن الجدور العريقة وهو ولاء الأقباط لوطنهم مصر فتقرأ في كتاب تاريخ الأمة القبطية الذي طبعه (نخلة روفايلا) عام ١٨٩٨ أن يعقوب هذا سار (٤١) في خطة تخالف ما كان عليه أبناء جنسه . . . فانه فضلاً عن مخالفتهم في الزى والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية . كما أن رجال الدين ولاسيما البطريك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله . وسمعت من بعض شيوخ الأقباط المسنين أن البطريك نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة . . . فلم يقبل

(٤٠) الراعي جزء ٢ ص ٢١٩ ، ص ٢٢٠ .

(٤١) مجلة الطليعة ديسمبر سنة ١٩٦٦ مقال للدكتور وليم سليمان .

... وسمعت من آخر أن ما كان بينه وبين البطريك من المنازعة والمشاحنة دفعه الى التجرد على الدخول فى الكنيسة مره راكبا جواده رافعا سلاحه . ومن الكتاب الأقباط (٤٢) الذين استنكروا كل أعمال يعقوب فترة الحملة الفرنسية جاك تاجر الذى كتب « ونقول أن الجنرال يعقوب أنكر وطنه ان لم يكن قالبا فقلبا منذ اللحظة التى كون الفرقة القبطية ... ان الأمة القبطية استقبلت عمل الجنرال يعقوب بفتور » .

ثانيا : مرحلة الوعى الشعبى بالظلم والتعسف

منذ احتلال الفرنسيين للقاهرة فان الشعب كان على تمام الوعى بإبعاد هذا القهر الأجنبى وبمجرد تولى السيد عمر مكرم مهمة الدعوة الى الجهاد فقد استجاب شعب القاهرة بكل طبقاته ونوعياته وألوانه لدعوة المقاومة وشارك بوعى كامل فى هذه المقاومة مع الجنود العثمانية وجنود المماليك وأمراء المماليك والعربان وبذلك فان مرحلة الوعى الشعبى كانت تلقائية ومع مرور الزمن وتحكم الأقلية الفرنسية المحتلة الحاكمة فى مقدرات الشعب المصرى بشكل استغلالي تعسفى كما سبق وتناولناه فقد ازداد الوعى الشعبى بالسخط ، وفرض هذا الوعى مقاومة وطنية مستمرة مع استمرار الاحتلال فكانت تستنكر وتتمرد على هذا التعسف والظلم والاستغلال الاستبدادى والغير آدمى سواء فى النهب أو فرض الغرامات أو الاتاوات أو فرض الضرائب المتتالية والتنكيل بالوطنيين فكان الوعى الشعبى فى تزايد وكانت الدعوة (١) الى المقاومة بالسخط والثورة تختلط علنا بأذان المؤذنين فيدعون الله ويدعون الى الصلاة وفى الوقت يدعون الى الثورة وذلك صباح مساء قبل كل صلاة وبلغ تهيج الناس أشده استعدادا للانتفاضة والثورة .

ثالثا : مرحلة تكوين المؤسسة الوطنية

لما كانت ثورات مصر المتكررة فى مواجهة الاحتلال الفرنسى هى حرب تحريرية وطبيعية المقاومة الشعبىة فى الحرب التحريرية هى تداخل مراحل الثورة بعضها فى بعض لأن القهر بالاحتلال العسكرى باعتباره مرحلة اذا ما ووجه بالمقاومة الشعبىة كما حدث ومباشرة أثناء الغزو وحتى بعده مباشرة فان هذه المرحلة من المقاومة التى تعتبر مرحلة الوعى الشعبى

(٤٢) ودخلت الخيل الأزهر للأستاذ جلال كشك ص ٤٥٨ ، ص ٤٥٩ .

(١) تاريخ الحركة القومية جزء أول للرافعى ص ٣٦٨ .

بأبعاد المرحلة الأولى وهى الفهر أى (استغلال الأقلية المعتدية) بالأغلبية الشعبية المقهورة .

كذلك فان هذه المقاومة اذا ما وجدت كان لازما أن تكون لها قيادة تحركها وتعمل على الدعوة وزيادة الوعي فان مرحلة تكوين المؤسسة الوطنية تداخلت هى الأخرى فى المرحلتين الأولىين . وعموما فقد ولد السخط المتجمع فى نفوس العامة تعبئة قام بها لفيق من المشايخ فى الأزهر سرعان ما نظمت صفوفها لمواجهة هذا الظلم والتعسف بأسلوب ايجابى بعد أن حاول رجال الديوان من المشايخ الوساطة لدى الفرنسيين وفشلوا فى كل وساطاتهم لتهدة النفوس ، وتكونت فعلا لجنة ثورية قامت بدور المؤسسة الوطنية وقامت بدورها فى نشر الدعوة لمقاومة الظلم وإثارة الكراهية فى نفوس الناقمين وبتنظيم الصفوف ، فكان الجامع الكبير بالأزهر مكان اجتماعها وتداولها - وقال نابليون فى مذكراته (٢) « ان الشعب المصرى قد انتخب ديوانا للثورة ونظم المتطوعين للقتال واستخرج الأسلحة المخبوءة وأن الشيخ السادات انتخب رئيسا لهذا (٣) الديوان وكانت هذه اللجنة الثورية من المتعممين وعلى رأسهم الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ اسماعيل البراوى وابراهيم أفندى كاتب البهار وهو المسئول عن الأسلحة .

رابعا : مرحلة ممارسة الأغلبية

العمل الايجابى (الثورة) (١٧٩٨/١٠/٢١)

بعد أن تقرر الضرائب (٤) الجديدة الباهظة بواسطة الديوان وبعد أن صار الصاق الأوامر والبيانات يوم ١٧٩٨/١٠/٢٠ فى الشوارع والحارات وأخذ دعاة الثورة يحرضون الناس على التمرد والانتفاض على الفرنسيين ويثيرون الشكوك والريب حول أعضاء الديوان لنصديقهم على هذه الضرائب الظالمة ، وكان عدد الناقمين قد زاد وسرت فى بادئ الأمر روح الثورة الى طبقة الملاك والتجار وأصحاب الصناعات والحرف التى أثقلت كاهلهم ثم سرت الثورة فى العامة الذين تعاهدوا على الاجتماع ليلا . وفى الميعة والمكان المحددين اجتمع عدد منهم يبلغ الثلاثين (بصفة قيادة ثورية) وأخذوا يتشاورون ويضعون الخطط - وحسب ما رسموا اجتمع الجميع بالأزهر الشريف فى عدد غفير وكانت القاهرة فى ذلك اليوم فى

(٢) مذكرات نابليون .

(٣) الجبرتمى جزء ٣ ص ٢٥ ص ٢٧ ، ص ٢٨ وعتبر هذه الشخصيات هى الجهاز السرى للثورة ص ١٠ ، ص ١١ .

(٤) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الراحل جزء أول ص ٢٦٩ .

حالة قصوى من التجفؤ والغليان ، فكان الناس يتألبون في الشوارع زرافات يشكون ويتهددون ويخطب فيهم المغممون فيشعلون نار الحماسة في قلوبهم ويقابلهم الشعب بالتأييد والتحيز .

وكان الناس (٥) يتلاقون على غير تعارف يتبادلون الشكوى ويتعاهدون على المقاومة ، فظهرت الأسلحة في أيدي المتجمهرين في الشوارع والميادين وأقبل الفلاحون وأهل الضواحي الى القاهرة واشتركوا في التجمهر ، فأخذت صيحات السخط واللعنات تنصب على الضرائب الجديدة وعلى تعسف وظلم الفرنسيين وسادت الجلية « واختلطت الأصوات وعلت الصيحات » ولم يعد هناك شك في أن الثورة قد بدأت وكان أبلغ وصف لهذه الثورة هو ما جاء مسجلا عن المؤرخ المعاصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي « وفي يوم السبت (٥) عاشر جمادى الأول سنة ١٢١٣ عملوا (اجتمع) الديوان وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرنسه والأوسط ستة والأدنى ثلاثة (فئات الضرائب الجديدة) وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافي وأما الوكائل (المتاجر الكبيرة) والخانات (فنادق) والحمامات والمعاصر والسياح والحوانيت فجعلوا عليها ثلاثين أو أربعين حسب الخسة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك مناشير على عاداتهم وألصقوها بالمفارق والطرق وأرسلوا منها نسخا للأعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى (مثنين) وشرعوا في الضبط والاحصاء وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها . ولما أشيع ذلك في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء » .

الثورة (٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨) (*)

« وانتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين فتجمع الكثير من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبجوا يوم الأحد ١١ جمادى أول (متحيزين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرائية ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح في الكلام « نصر الله دين الاسلام » فذهبوا الى بيت قاضي العسكر (القاضي التركي ابراهيم أفندي بجمقش زاده) فخاف القاضي العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف خجابه فرجموه بالحجارة والطرب

(٤) وصف ربيب الفرنسي لنداية الثورة .

(٥) الجبرتي الجزء ٣ ص ٢٥ .

(*) نفس المصدر السابق ص ٢٥ .

وطلب، الهرب فلم يمكنه الهروب (كان العامة وقادتهم يأملون في أن يرافقهم القاضي المحترم الى بونايرت ليتشفع لهم بالغاء الضرائب) وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر (بعض كبار العلماء) وفي ذلك الوقت حضر ديوى (القائد الفرنسى) بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع الغورية وعطف على خط الصناديفية ، وذهب الى بيت القاضي ، فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وتلك الأخطاط بالخلاتى مزحومة ، فبادروا اليه وضربوه وأثخنوا جراحاته ، وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه ، فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون ، ومن كل حذب ينسلون ، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة ، كباب الفتوح وباب النصر والبرقية الى باب زويلة فباب الشعرية وجهة البندقائين وما حذاها ، ولم يتعدوا جهة سواها ، وهدموا مصاطب الحوانيت ، وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة ، لتعوق هجوم العدو فى وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس ، وأما الجهات البرانية والنواصى الفوقانية فلم يفرع منهم فازع ، ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع . وكذلك (٦) شد عن الوفاق مصر العتيقة وبولاى وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر ، ولم تزل طائفة المحاربين ، فى الأزقة متترسين ، فوصل جماعة من الفرنساوية ، فظهروا من ناحية المناخلية ، وبندقوا على متراس الشوائين ، وبه جماعة من مغاربة الفحامين ، فقاتلوهم حتى أجلوهم وعن المناخلية أزالوهم . وعند ذلك زاد الحال ، وكثر الزحف والزلال ، وخرجت العامة عن الحد ، وبالفوا فى القضية بالمكس والطرد .

وباتوا تلك الليلة (٧) سهرائين ، وعلى هذا الحال مستمرين . وأما الأفرنج (الفرنسيين) فانهم أصبحوا مستعدين ، وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين ، وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقناير والبنيات ووقفوا مستحضرين ولأمر كبيرهم منتظرين وكان كبير الفرنسيين أرسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ومل من المطاولة ، هذا والرمى متتابع من الجهتين ، وتضاعف الحال ضعفين حتى مضى وقت العصر ، وزاد القهر والحصر . فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنيات (القنايل) على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجسروا عليه المدافع والقنبر (الدانات) وكذلك ما جاور من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين . فلما سقط عليها ذلك ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، نادوا ياسلام من هذه الآلام ، يا حقى الألفاظ نجنا مما نخاف ،

(٦) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى جزء ٣ ص ٢٥ ، ص ٢٦ ، ص ٢٧ .

(٧) نفس المصدر (الجبرتى جزء ٣) ص ٢٦ .

وهربوا من كل سوق . ودخلوا في الشقوق . وتتابع الرمي من القلعة والكيان حتى تزعزت الأركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور وسقطت في بعض القصور ونزلت في البيوت والوكائل (المتاجر الكبرى) وأصمت الأذان بصوتها الهائل فلما عظم هذا الخطب ، وزاد الحال والكره ، ركب المشايخ الى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ويمنع عسكره من الرمي المتراسل ، ويكفهم كما يكف المسلمين عن القتال ، والحرب خدعة وسجال . فلما ذهبوا اليه واجتمعوا عليه . عاتبهم في التأخير واتهمهم في التقصير ، فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم . وأقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان في المسالك ، وتسامع الناس بذلك ، فردت فيهم الحرارة (٨) وتسابقوا لبعضهم بالبشارة واطمأنت منهم القلوب وكان الوقت قبل الغروب ، وانقضى النهار وأقبل الليل ، وغلب على الظن أن القضية لها ذيل . وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمي والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود . والافرنج (الفرنسيون) أثخنوهم بالرمي المتتابع بالقناير والمدافع الى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات ، وفرغت من عندهم الأدوات ، فعجزوا عن ذلك وانصرفوا ، وكف عنهم القوم وانحرفوا ، وبعد هجعه من الليل دخل الافرنج المدينة كالسيل ، ومروا في الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين أو جنود إبليس ، وهدموا ما وجدوه من المتاريس ، ودخل طائفة باب البرقية ، ومشوا الى الغورية ، وكروا ورجعوا ، وترددوا وما هجعوا ، وعلموا باليقين ، أن لا دافع لهم ، ولا كمين ، وتراسلوا أرسالا ، ركبانا ورجالا .

اقتحام الجامع الأزهر بالخيالة

تم دخلوا الى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبيلته ، وعاشوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاص ، والودائع والمخبات ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبألوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيها ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه عروه ، ومن ثيابه أخرجوه ، وأصبح يوم الثلاثاء (١٣ جماد أول) ٢٣ أكتوبر سنة ١٧٩٨ (ثالث يوم

(٨) نفس المصدر الجبرتي جزء ٣ ص ٢٦ .

(٩) نفس المصدر السابق الجبرتي جزء ٣ ص ٢٦ .

الثورة (٩) قاصطف منهم حزب بباب الجامع ، فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر رأجا ويسارع ، وتفرقت طوائفهم بتلك النواحي أفواجا ، واتخذوا السعى والطواف بها منهاجا (داوريات سيارة) وأحاطوا بها احاطة السوار ، ونهبوا بعض الديار ، بحجة التفتيش على النهب وآلة السلاح والضرب ، وخرجت سكان تلك يهرعون ، وللنجاة بأنفسهم طالبون ، وانتهدت حرمة تلك البقعة ، بعد أن كانت أشرف البقاع ، ويرغب الناس سسكنها ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه من الضياع ، والفرنساوية لايمرون بها الا نادرا ، ويحترمونها عن غيرها في الباطن والظاهر (قبل الثورة طبعا) فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع ، وانخفض على غير القياس المرفوع ، ثم ترددوا في الأسواق ، ووقفوا صفوفًا ماثنا وألوا ، فان مر بهم أحد فتشوه ، وأخذوا ما معه وربما قتلوه ، ورفعوا القتلى والمطروحين ، من الأفرنج والمسلمين ، ووقف جماعة من الفرنسيين ، ونظفوا مراكز المتاريس ، وأزالوا ما بها من الأتربة ، والأحجار المتراكمة ، ووضعوها في ناحية ، لتصير طرق المرور خالية ، وتخربت نصارى الشوام ، وجماعة أيضا من الأروام ، واغتنموا الفرصة في المسلمين ، وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين ، وضربوا فيهم المضارب ، وكانهم شاركوا الأفرنج النوايب ، مع أن المسلمين الذين جاورهم ، نهبهم الزعر أيضا وسلبوهم ، وكذلك خان (دكان) الملايات المعلوم ، الذي عند باب حارة الروم ، فيه بضائع المسلمين وودائع الغائبين ، فسكت المصاب على غصته واستعوض الله في قضيته ، لأنه ان تكلم لاتسمع دعواه ، ولا يلتفت الى شكواه » .

تنكيل الفرنسيين بالشعب

« وانتدب برطلمين للتفتيش ، على من حمل (١٠) السلاح أو اختلس ، وبث أعوانه في الجهات ، يتحسسون في الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم فيحكم فيهم بمزاده ، ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ، ويركب في موكبه ويسير ، وهم موثوقون بين يديه بالحبال ويسجنهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجون ، ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب ، ويدل بعضهم على بعض ، فيضعون على المدلول عليهم أيضا للقبض ، وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين الأغا (وهو مصطفى أغا وقد عينه الفرنسيون محافظا للمدينة بعد أن عزلوا محمد المسلماني) وتجبر في أفعاله وطفى ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفي بحر النيل قذفوهم ،

(١٠) نفس المصدر السابق الجبرتي جزء ٢ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ .

ومات في هذين اليومين وما بعدهما أم كثيرة لا يحصى عددها .الا. الله ،
وطال بالكفرة بغيرهم وعنادهم ، ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم » .

توسط المشايخ (٢٤ أكتوبر ١٧٩٨)

« وأصبح يوم الأربعاء ٢٤ أكتوبر ١٧٩٨ ، فركب فيه المشايخ
أجمع ، وذهبوا لبيت صاري عسكر وقابلوه ، وخاطبوه ، في العفو
ولاطفوه ، والتمسوا منه أمانا كافيا ، وعفوا ينادون به باللغتين (الفرنسية
والعربية) شافيا ، لتطمئن بذلك قلوب الرعية ، ويسكن روعهم من هذه
الزربة ، فوعدهم وعدا مشوبا بالتسويق ، وطالبهم بالتبيين والتعريف ،
عمن تسبب من المتعمدين في إثارة العوام ، وحرصهم على الخلاف والقيام ،
فغالبوه عن تلك المقاصد ، فقال على لسان الترجمان ، نحن نعرفهم
بالواحد ، فترجوا عنده في اخراج العسكر من الجامع الأزهر (طلب
حيوى بالنسبة لمشايخ الأزهر) ، فأجابهم لذلك السؤال وأمر باخراجهم
في الحال » .

القبض على قادة الثورة والتنكيل بهم

وصدرت أوامر يونابرتيه بالقبض على من اتهم من المشايخ باشعال
الثورة فتم القبض على الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان
والمشايخ أحمد الشرقاوى ، وعبد الوهاب الشبراوى ، ويوسف المصيلحى ،
واسماعيل البراوى وحبسوهم في بيت البكرى ، وفر هاربا السيد بدر
الى جهة الشام « واتهموا أيضا ابراهيم أفندى كاتب البهار بأنه جمع لهم
جمعا من الشطار (الفدائيين) (١١) وأعطاهم الأسلحة والمساوق فقبضوا
عليه وحبسوه في بيت « مصطفى أغا » .

ولم تنفع أى شفاعة من الشيخ السادات وباقى شيوخ الديوان فى
الافراج عن المشايخ المسجونين بالقلعة وبيت الأغا مصطفى . ثم نقل
الجنود المشايخ المعتقلين الى القلعة بعد أن عروهم من ثيابهم فسجنوهم
الى الصباح وعلى رأسهم الشيخ الجوسقى ثم أخرجوهم وقتلوهم بالبنادق
وألقوا بجثثهم من السور خلف القلعة . وتغيب حالهم عن أكثر الناس
أياما ولما علم العامة بأسلوب قتل هؤلاء الزعماء ساد الحزن عليهم وانتقلت
أخبار هذا التنكيل الى الأقاليم واحتاط عسكر الفرنسيين بزيادة
التحصينات والاستعدادات . ومع ذلك قامت بعض البلاد على عسكر
الفرنساوية بالأقاليم وقتلوهم وضربوا أيضا مركبين بها عدة من عساكر
الفرنسيين فحاربوهم .

وكان كبير ثوار الأقاليم ابن شعير أرسل لهم بونا بورت شرذمة من شباب المغاربة فقبضوا على كثير من أفراد الشعب وعلى كبيرهم ابن شعير وقتلوه ونهبوا داره ومتاعه وماله وأحضرُوا أخويه وأولاده وقتلوه ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير ، واستعان الفرنسيون بقوة المغاربة الخونة فى إشعال الفتنة بين العامة لأنهم كانوا يعتبرون من الشعب .
كما سافر العميل برطلمين الى ناحية سرياقوس لمطاردة الفارين الى جهة الشرق واعتقل كثيرا من الأهالى ونهب ثرواتهم .

اعادة تقوية الحصون

بعد اخماد (١٢) ثورة القاهرة الأولى بالعنف والقتل والذبح والتفكيك أخذ الفرنسيون فى الاهتمام فى تحصين النواحي والجهات وبنوا أبنية على التلوى المحيطة بالبلد ووضعوا بها عدة مدافع وقناير وهدموا أماكن بالجيزة وحصنوها تحصينا زائدا وكذلك مصر العتيقة ونواحي شبرا وهدموا عدة مساجد وقطعوا نخيلا كثيرة وأشجارا لعمل الحصون والمتاريس وحفروا بالجيزة خنادق كثيرة .

خاتمة لهذه الثورة

وبذلك تكون الثورة الأولى بالقاهرة فى مواجهة ظلم واستبداد الفرنسيين قد توقفت نتيجة فداحة الخسائر ووحشية التفكيك الفرنسى وضعف أسلحة الثوار . هذا التوقف والتسليم الاذعانى كان يقابله مزيد من التعسف والوحشية والظلم والامعان فى نهب أموال العامة والخاصة وكان فى كل هذه معالم بدور مقومات ثورة أخرى ولم يترك الشعب المصرى المحتل الفرنسى ليلتقط أنفاسه .

خامسا : مرحلة التغيير

فى الحقيقة رغم اطلاق كلمة ثورة على ثورة القاهرة الأولى فى جميع كتب التاريخ العربية والأجنبية الا أنها لاتعتبر ثورة كاملة لأن العمل الايجابى وهى المقاومة الشعبية لم تحقق الهدف الأساسى والبعيد وهو ارغام الحملة الفرنسية وقواتهم للجلاء عن البلاد ولكنها حققت مرحلة من مراحل الجلاء الكامل فالمزيد من تفكيك الفرنسيين بالشعب عقب الثورة ولد مزيدا من السخط الشعبى فى جميع أنحاء مصر الذى دعم روح المقاومة

والعناد والصلابة الشعبية فى مواجهة القوة الفرنسية بأسلحتها الحديثة وتفوقهم العلمى فى مستوى المعدات الحربية وآلات الحرب المتفوقة . فاذا ما حاولنا حصر التغيير الذى أحدثته هذه المقاومة لأمكننا تجاوز اطلاق كلمة ثورة عليها وكان التغيير يتلخص فى الآتى :

١ - حقق المصريون أملهم فى تكوين حكومة وطنية وأصبح المصريون يحكمون أنفسهم بأنفسهم بعد أن استبعد العنصر الغريب عن الشعب المصرى وهم أمراء الممالك الذين كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة الأساسية باستبدادهم واستغلالهم وتعاليمهم وتحكمهم فى أرواح وأموال الناس وكذلك رمز السلطة العثمانية وهو الوالى التركى ورغم أن الفرنسيين بعد ثورة القاهرة الأولى أبطلوا اجتماع الديوان عقابا لسكان القاهرة على ثورتهم ولكن الفرنسيين لم يمكنهم (١٣) الاستغناء عن الحكومة الوطنية لتحقيق السيطرة على البلاد فأعادوا تشكيل الديوان (الحكومة الوطنية) الذى اجتمع فعلا يوم ٢٧ ديسمبر ١٧٩٨ .

٢ - رغم الاجراءات الفرنسية العنيفة ضد الثوار والأهالى فقد انتشرت الأفكار الثورية فى جميع أنحاء البلاد وصار هناك نواة شعبية قادرة على العمل الايجابى فى جميع أنحاء مصر وبذلك استمرت المقاومة ولم تخمد رغم التنكيل والتشيت والتخويف والردع .

٣ - تكونت فى مصر معالم ونواة « مبدأ مصر للمصريين » بعد طول سيطرة الدخيل على مصر سواء كان على شكل ممالك أو أتراك ولأول مرة يشعر المصرى بالثقة بالنفس وبإمكان الاعتماد على النفس والثقة فى ممثلهم الأزهريين وزعماء الشعب ومن خلال ذلك تكونت الحكومة الوطنية على شكل الديوان والمؤسسة الوطنية من زعماء المقاومة . وكانت هذه المؤسسة الوطنية تحمل فى طيات تكوينها إمكان استدامة الكفاح طلبا للحرية ولآخر مدى .

٤ - أصبح الوعي الشعبى حساسا لدرجة مرتفعة بحيث تعود على متابعة أحوال المحتلين الفرنسيين وظروف ضعفهم ازاء حصار الانجليز لهم وعلى متابعة القوى المتصارعة معهم اما فى صورة الممالك المنتشرين فى أنحاء البلاد وبخاصة فى الصعيد فكان الشعب وقت اللزوم ورغم عدم الثقة بأمرائه السابقين الممالك كان يساهم ويشترك ويدعم مقاومة الممالك للفرنسيين على أساس أن الفرنسيين هم العدو العاجل والممالك هم العدو الأجل .

وينفس القدر كان يتابع موقف الأتراك وتذبذبهم بين التجالف مع البريطانيين أو التعاقد مع الفرنسيين على حساب المصريين كما كان ينفس القدر من الاهتمام يتابع وينتظر من الأتراك المساهمة في إمكان طرد المحتل الفرنسي .

وينفس القدر أصبح الشعب المصري من الوعي بمكان حيث تعلم كيف يتابع ويستفيد من عداوة البريطانيين التقليدية للفرنسيين وإمكان استغلال ذلك لمصلحتهم لتحقيق جلاء الفرنسيين وأعظم مثل على ذلك مساهمة الشعب المصري في الاحتفال بهزيمة الفرنسيين في معركة أبي قير البحرية بانتصار الأسطول البريطاني وإحكامه الحصار بحيث قطع خط الاتصال بين جيش نابليون في مصر وقاعدته في فرنسا مما أعطى الثقة للشعب المصري بأن استمرار الكفاح أصبح ضرورة لأنه بالقطع سيساعد على جلاء الفرنسيين إن آجلا أو عاجلا .

ما بين الثورتين

الحملة الفرنسية على سوريا

قام والى عكا من قبل الأتراك أحمد باشا الجزار باحتلال قلعة العريش يوم ٢ يناير ١٧٩٩ ولم تكن في يد الفرنسيين حتى ذلك الوقت ولكن كان من المعلوم أنها من أملاك مصر فاعتبر نابليون هذا نذيرا بزحف الجيش العثماني على مصر - حاول نابليون الاتصال بالأتراك للتفاهم والتفاوض ورفض الأتراك التفاهم أو حتى مقابلة المندوب الفرنسي . قرر نابليون أن يتخذ المبادأة ويبدأ هو الزحف على سوريا باعتبارها خط الدفاع الأول عن مصر ، وحتى إذا ما نجح بالاستيلاء عليها أمكنه بعد ذلك أن يواصل زحفه على الهند . وقبل أن يبدأ زحفه على سوريا اتخذ احتياطات محكمة لتقوية دفاعاته في مصر لتكون قواته قادرة على اخماد أى انتفاضات أو ثورات أو اعتداءات على السواحل من الأسطول الانجليزي . كذلك بذل بونابرت مجهودات واسعة بالتودد الى الأهالي المصريين وزعماء الشعب واصطحب معه بعض المشايخ من أعضاء الديوان بالإضافة الى القاضي التركي وأبراهيم أدهم أفندي وأمير الحج مصطفى بك نائب الوالى التركي تودد لهم وفي نفس الوقت ليكونوا بمثابة رسل التفاهم بينه وبين الشعب العربي في سوريا . ولكن قبل أن يبدأوا الرحلة مع قوات بونابرت انفصلوا عن الحملة حيث لم يكونوا راضين عن الحملة الفرنسية على سوريا أسوة بباقي الشعب المصري رغم أن نابليون أشاع عن طريق أعضاء الديوان أن الحملة على سوريا كانت بغرض محاربة المماليك وفتح طريق التجارة بين البلدين .

بدء الحملة

تحركت مقدمة الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال (لاجرانج)
Lagrange قبل أن يتحرك نابليون بمدة - وارتحل نابليون من القاهرة
يوم ١٠ فبراير ١٧٩٩ .

احتلال العريش

وهزم الفرنسيون قوات العثمانيين والمماليك فى العريش فى المعركة
الحامية التى استمرت من ١٥ الى ٢٠ فبراير ١٧٩٩ .

احتلال يافا (*)

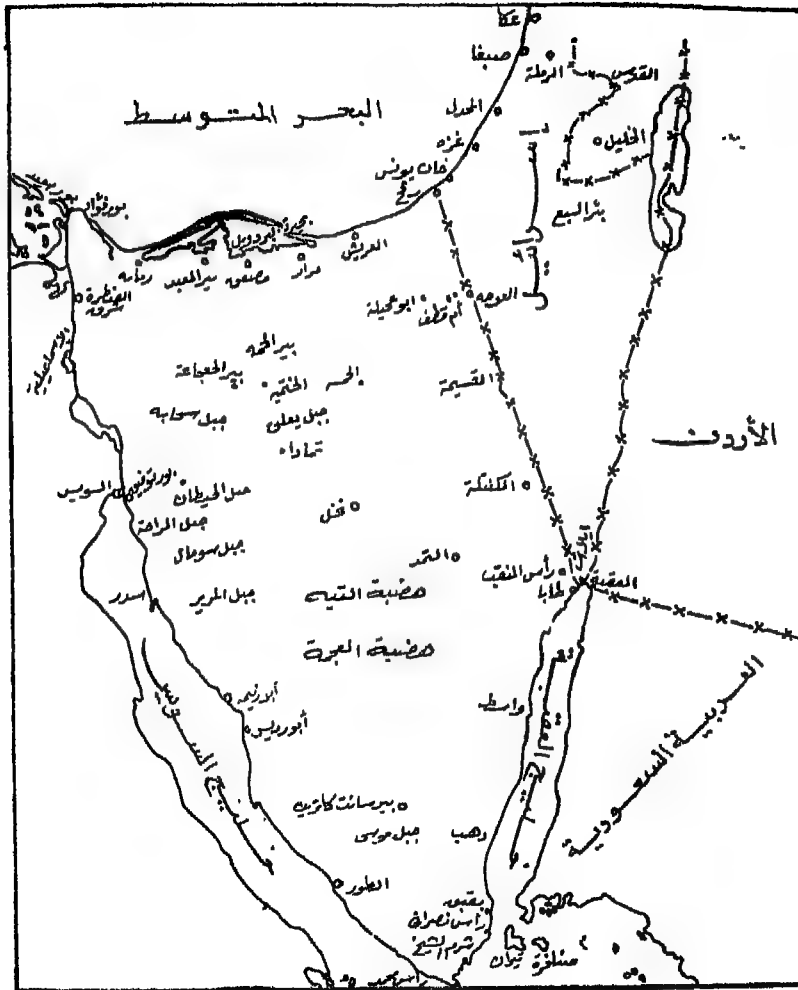
ثم تابع بوناپرت زحفه فاحتلت قواته خان يونس ثم غزه دون
مقاومة واستأنفوا زحفهم يوم ٢٨ فبراير ١٧٩٩ فاحتلوا على التتابع الرملة
واللد حتى وصلوا الى يافا وهناك دارت معركة عنيفة واستولى الفرنسيون
عليها يوم ٢٧ مارس ١٧٩٩ وارتكبوا فيها فظائع ومذابح بوحشية ومارسوا
أسوأ أنواع السلب والنهب وكان قمة التصرفات اللا انسانية والبعيدة
كل البعد عن شرف الجندية والقتال أنه فى آخر مراحل القتال عرض الجنود
العثمانيون المدافعون داخل المدينة على الفرنسيين التسليم بشرط أن
يضمنوا لهم أرواحهم بعد التسليم وكان عددهم يبلغ ثلاثة آلاف مقاتل
وتعهد الياوران الفرنسيان المتفاوضان بوهارنييه Beuharnais
وكروازييه Crosier بهذا العهد ولكن نابليون نكث بالعهد وساقهم
جميعا الى ساحل البحر وأمر باعدامهم جملة رميا بالرصاص بحجة عدم
تمكنه من حراستهم واطعامهم - وقد أثارت هذه العملية الوحشية النفوس
العثمانية والعربية على طول البلاد وعرضها مما جعل باقى الحاميات
العثمانية تستमित فى الدفاع عن مناطقها . وكان الله أراد الانتقام من
الجيش الفرنسى فى صورة انتشار الأمراض فى قوات الفرنسيين فى يافا
وبغيرها من الوحدات وبشكل وبائى نتيجة كثرة الجثث والدماء ، وكانت
خسائر الفرنسيين من الأمراض الوبائية تفوق بكثير عدد قتلى الحرب
والنزاع ولم يكتب للفرنسيين بعد ذلك أى نصر أو نجاح حيث استمات
المدافعون العثمانيون فى قتالهم .

حصار عكا والارتداد عنها

بدأ الفرنسيون حصار عكا وضربها من يوم ١٩ مارس ١٧٩٩ ودارت
حول أسوارها معركة طاحنة استمات فيها العثمانيون فى الدفاع بقيادة
أحمد باشا الجزائر وقاومت عكا مقاومة عنيفة وبعد شهور من الحصار

(*) تاريخ الحركة القومية جزء ٢ للأستاذ الرافعى ص ٣٧ .

اضطر الفرنسيون للارتداد عنها يوم ٢١ مايو ١٧٩٩ وانتهت الحملة الفرنسية بالفشل والانسحاب الى مصر وبخاصة بعد أن وصلت الرسل الى بونايرت من الجنرال دوجا والوزير بوسليج باستئناف الشعب المصرى للاضطرابات فى جميع أنحاء البلاد بالاضافة الى تفشى الوباء بين جنوده والى اشتداد حصار الأسطول البريطانى للشواطىء الشمالية ومناوراته أمام شواطىء السويس .



شبه جزيرة سيناء

اندلاع الثورة في كل مصر

(اولا) - مرحلة استغلال وتحكم الأقلية الفرنسية في الأغلبية

(ب) مرحلة وعى ومقاومة الأغلبية المصرية وعدم الاستسلام
إذا اعتبرنا أن حرب التحرير في مواجهة جيوش الاحتلال الأجنبية أنها
ثورة بجميع مراحلها المتعارف عليها .

فإننا لا يمكن أن نفصل زمنيا بين المرحلتين في حالة ثورتى القاهرة
الأولى والثانية خصوصا بعد فظاعة التنكيل والانتقام التى قامت بها القوات
الفرنسية ضد العامة بجميع فئاتهم وطبقاتهم فى الثورة الأولى ، فقد تداخلت
المرحلتان فى بعضهما نظرا لتداخل الفعل ورد الفعل فكان المزيد من الظلم
والوحشية والذبح والقتل وسلب ممتلكات الناس يقابلها فورا رد فعل
شعبى بالسخط والمقاومة لأن الوعى كان متوفرا بدرجة عالية وكان يرجع
بصفة خاصة الى تمرس المصريين من دروس الثورة الأولى والى عملية التوعية
والشحن والاثارة من زعماء المؤسسة الوطنية من مشايخ وزعماء طوائف
الشعب فلم تكن ثورة القاهرة الثانية اعملا ايجابيا بكل أبعاده لمقاومة
الاحتلال فلم تكن ثورة تقليدية ضد حكومة داخلية أو محلية بل ضد
عدو أجنبى محتل . ويمكن تتبع هاتين المرحلتين من بعد العنف والتنكيل
والوحشية فى اخماد ثورة القاهرة الأولى حسب عرف الفرنسيين لأن ثورة
القاهرة الأولى لم تخمد ولكنها توقفت الى حين ، ازاء شدة التنكيل وتفوق
السلاح الفرنسى ولكن حب الانتقام وطبيعة المصرى فى الثأر والاستماتة
عند اليأس وبخاصة بعد أن وصلت أخبار مذبحه نابليون فى الثلاثة آلاف
عثمانى المسلمين فى يافا اعتمادا على الشرف الفرنسى العسكرى القبيح ،

هذه الروح العنيدة والمصرة على المقاومة استأنفت نشاطها بمجرد أن واثتها الظروف المناسبة للانتفاضة والمقاومة والثورة وبخاصة أثناء انشغال جنود نابليون في الحملة على سوريا ووصول أخبار ارتداد نابليون عن عكا واستماتة الجنود العثمانية في الدفاع عن بلادهم وفشل الحملة الفرنسية على سوريا بالإضافة الى الحصار البريطاني للشواطئ المصرية والذي جعل عند الفرنسيين حالة قلق عسكري شعر به الثوار المصريون ولكل ذلك فقد قامت فجأة الانتفاضات في كل أنحاء مصر .

المقاومة في الوجه البحري

الثورة في الشرقية (***)

كانت مظالم الفرنسيين هي السبب في اشتعال التمرد والثورة فقد أخذوا يفرضون الاتاوات فكانوا في القرى يصادرون الجمال والحمير والماشية فثارت نفوس الأهالي ووقعت مصادمات في بردين والعصلاجي والغار والزنكلون . وعند استفزاز الأهالي بجمع دوابهم ومواشيهم في بردين في أول مارس ١٧٩٩ قاوم الأهالي باستخدام الأسلحة النارية وفر الفرنسيون فعادوا يوم ١٦ مارس للانتقام وكنلوا بالفلاحين في بردين والزنكلون ثم انتشرت الثورة بعد ذلك الى وسط الدلتا .

معركة كفور نجم (*)

تجددت الثورة في القليوبية في آخر شهر مايو ١٧٩٩ وفي منطقة ميت غمر وانضم للثوار جماعة من المماليك يوم ٣٠ مايو وهجموا على سفينة حربية فرنسية في النيل واستولوا عليها وغنموا أربعة مدافع وقاومت الجنود الفرنسيون من منوف وانسحب الثوار الى كفور نجم وتعقبهم الفرنسيون ودارت معركة شديدة هناك يوم ٥ يونيو ١٧٩٩ على شاطئ بحر مويس انتهت بانسحاب الثوار وفيما بعد أقام الفرنسيون قلعة في ميت غمر لحماية الملاحة ولقمع الثوار .

الثورة في غرب الدلتا (*)

كانت هذه الأقاليم غرب الدلتا مسرحا للقلل والثورات وبخاصة في الاسكندرية ورشيد ومديرية البحيرة عندما قام الأسطول البريطاني بضرب قلاع الاسكندرية من أول فبراير ١٧٩٩ بالإضافة الى اشاعة خبر

(**) الرافعي (جزء ٢) ص ٥٣ .

(*) الرافعي الجزء ثاني ص ٦١ .

(*) الرافعي جزء ٢ ص ٦٢ .

قرب قدوم الأتراك - كل ذلك حفز الأهالي الى الهياج وظهرت بوادر الثورة في الاسكندرية ورشيد في مارس ثم في البلاد المجاورة .

وكان الجنرال مارمون قومندان الاسكندرية قد فرض أتاؤه على شكل سلفة اجبارية على مديرية رشيد موزعة على بلادها وكفورها فامتنت معظم البلاد والقرى عن الدفع فقام الفرنسيون بإرسال حملة تأديبية مسلحة واستخدموا العنف فقامت الثسورة في جهات برنبال ، ومطوبس ، وكفر شباس عمير والسعدة وغيرها - ولم تستطع الحملة أن تتغلب على دفاعات الأهالي وبخاصة في شباس عمير لقوة دفاعاتها وتحصنها فاضطرت القوة الى هدمها عن آخرها بضرب المدفعية وحدث نفس الشيء في بلدة السعدة وأقفر معظم البلاد من السكان .

الثورة في البحيرة (ثورة مولاى محمد)

أما ثورة البحيرة فكانت (١٤) أعظم وأقوى الثورات لكفاءة تسليحها وتنظيمها والفضل يرجع الى زعامة وقيادة الثائر العربى المهدي أو مولاى محمد فقد حضر من درنة (طرابلس الغرب) رجل قوى الشخصية والحجة ادعى المهديّة وكان يطلق عليه (مولاى محمد) ودعا الناس الى الجهاد يقتال الفرنسيين وأقبل الناس عليه أفواجا وضم اليه رجال القبائل من عرب أولاد على والهنادى وغيرهم - وبسرعة مذهلة تجاوزت معه نفوس المصريين الساخطة الأبية حتى بلغت مجموع قواته في فترة ما ١٥٠٠٠ خمسة عشرة ألفا مقاتل مشاة ، ٥٠٠٠ وخمسة آلاف من الفرسان ومعظمهم كانوا مسلحين بالأسلحة الفردية الحديثة .

ففي ٢٤ - ٢٥ ابريل ١٧٩٩ هاجم مولاى محمد بقواته الحامية الفرنسية في دمنهور وقتل الثوار رجال الحامية الفرنسية جميعهم - واحتل دمنهور وكانت تحت قيادة الضابط مارتان Martin . وواصل انتصاراته حتى وصل الى الرحمانية ورشيد وحقق نصرا مظفرا - وكان لهذه الانتصارات على جيوش الفرنسيين أثر كبير في رفع معنويات عامة الشعب المصرى بعد انتشار صدها وعمت الفرحة جميع أنحاء مصر حتى فكر أمراء المماليك العسكريين في الصعيد وغيرها في الانضمام الى قوات المهدي (مولاى محمد) .

هزيمة الفرنسيين مرة أخرى

جهز الفرنسيون قوات كثيرة بأقوى الأسلحة للانتقام من المهدي وسارت القوة الفرنسية من الاسكندرية يوم ٢٧ ابريل ١٧٩٩ في اتجاه

(١٤) نفس المصدر ص ٦٣ الى ٦٨ .



بين رشيد وخرتوم (مخطوط سنة ١٨٠٠)

الرحمانية لينضم الى حامية الرحمانية الفرنسية استعدادا للهجوم المركز على دمنهور
ولكن قوات المهدي التقت بهذه القوات القادمة من الاسكندرية قبل ان تصل الى الرحمانية
ودارت معركة رهيبه وقتالا عنيفا انتهى بانسحاب القوات الفرنسية المهزومة الى الاسكندرية •

المهدى ومعركة سنهور (٣ مايو ١٧٩٩)

أرسل الفرنسيون مددا عظيما الى الرحمانية وأصبحت قواتهم تشكل قوة ضاربة رهيبة - وتقدموا لقتال المهدى فقابلهم يوم ٣ مايو عند سنهور بالبحيرة بالقرب من دمنهور ودارت معركة من أشد المعارك وأظهر أتباع المهدى في هذه المعركة بسالة فائقة واستماتة واستهانة بالموت في سبيل الله (كالمجاهدين تماما) وأظهر أتباعه شجاعة فائقة لانظير لها بشهادة الفرنسيين أنفسهم كل ذلك رغم أن مدافع الفرنسيين الحديثة كانت تحصده صفوفهم حصدا ومع ذلك ورغم خسائر رجال المهدى في الأرواح وقد بلغت ألفين ٢٠٠٠ فان باقى قواته اقتحمت صفوف الفرنسيين في بسالة واستشهد كثير من قادة السوار وكان على رأسهم المجاهد ابراهيم الشوربجى والمجاهد عبد الله باش من مشايخ دمنهور والشهيد مراد عبد الله شيخ قبيلة الهنادى وكان النصر في النهاية حليف قوات المهدى (مولاى محمد) وقرب الغروب ارتد الفرنسيون الى الرحمانية .

وأعاد المهدى حشد قواته وأعاد تسليحها وتدعيمها تمهيدا لاستئناف الجهاد ، فقام بمهاجمة معسكر ودفاعات الفرنسيين في الرحمانية ولكنه اضطر ازاء مناعة المواقع الفرنسية الى الارتداد الى دمنهور واتخذها معسكرا وقاعدة له .

معركة دمنهور (مرة أخرى)

حشد الفرنسيون معظم قواتهم المبعثرة في أنحاء الدلتا لتكون معركتهم المقبلة مع المهدى حاسمة في دمنهور قبل أن يستفحل أمره أكثر حيث أن قواته أصبحت حتى هذا التاريخ تشكل خطورة على الوجود الفرنسى في مصر كلها وقادرة على أحداث الهزائم المتتالية للقوات الفرنسية - وتمكن الفرنسيون بهذا الحشد الكبير ومع استخدام النيران المركزة بأحدث الأسلحة من الاستيلاء على دمنهور معقل قوات المهدى في منتصف مايو ١٧٩٩ . وارتكب الفرنسيون في دمنهور بعد سقوطها أشد أنواع التنكيل ومارسوا الذبح والقتل والحرق بالنار للرجال والنساء والأطفال والشيوخ من السكان وكذلك هدم وحرق المباني انتقاما من هزائمهم السابقة وكان القتل للأهالى يتم بحد السيف امعانا في الوحشية وجعلوا دمنهور ركاما من الأحجار السوداء التى اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى - وأشيع في صفوف الفرنسيين أن المهدى قتل - والحقيقة أنه لجأ الى الصعيد بعد مطاردة الفرنسيين له ثم عاد الى القاهرة أثناء



ثورة القاهرة (١٥) الثانية واشترك فيها مع الثوار وشوهد يحرض الناس على القتال . وبعد اخماد ثورة القاهرة الثانية (١٦) انضم مولاى محمد الى جيش الصدر الأعظم - ثم عاد الى مصر فى أواخر عام ١٨٠٠ مع قوات الحملة العثمانية الانجليزية على مصر وهكذا كان المهدي مولاى محمد الثائر العربى مع الثوار المصريين يمثلون مقاومة الأمة العربية النائرة فى وجه السيطرة الأجنبية .

الهدوء الذى يسبق العاصفة (انتفاضة المنوفية)

بعد استتباب الحال بالبحيرة للفرنسيين ، بعد القضاء على أخطر مقاومة مسلحة مصرية . ساد الهدوء فترة ، وفجأة وصلت لبونابرت أخبار التجهيزات التركية الانجليزية لاعداد تجريدة بغرض اخراج الفرنسيين من مصر ، وصادف توقيت وصول هذه الأخبار حالة سكون وهدوء الشعب المصرى وكان هذا الهدوء المصرى علامة على التحفز للانتفاض . والتمرد مرة أخرى - وأخذ نابليون فى تحصين مواقعه وقواعده وبخاصة القلاع والطوابى على شواطئ البحر الأبيض كما توقع أن يكون النزول التركى الانجليزى على شواطئ البحر الأبيض وعند أبى قير بين الاسكندرية ورشيد ، وكلف الجنرال (دومارتان) قومندان المدفعية ليشرف على الدفاعات وتقوية الطوابى والقلاع وغادر دومارتان القاهرة يوم ١٩ يونيو ١٧٩٩ على سفينة مسلحة بالمدافع وعند عبورها النيل عند طنوب والزعيرة من بلدان المنوفية بالبر الشرقى على فرع رشيد بمركز تلا هجم عليهم جمع من الأهالى المسلحين بالبنادق ودار قتال عنيف وكان الجنرال دومارتان ضمن الجرحى ثم توفى عند نقله الى رشيد .

معركة أبى قير العثمانية (١٧ يوليو ١٧٩٩)

نزل الجنود العثمانية على شاطئ أبى قير يوم ١٤ يوليو ١٧٩٩ بقيادة كوسه لى مصطفى باشا سر عسكر الروملى (١٧) وحاصروا القلعة التى يحتلها الفرنسيون بقيادة القومندان جودار Godard وتحصن جودار بالمدخل وتولى الكابتن فيناش Vinche الدفاع عن القلعة .

وبعد حصار يوم واحد هاجم العثمانيون القلعة وتمكنوا من احتلال الاستحكامات وقتل كثير من الفرنسيين وعلى رأسهم القومندان (جودار) .

(١٥) الرافعى جزء ٢ ص ٦٣ الى ص ٦٨ عن كتاب التاريخ العلمى والعربى للحملة الفرنسية .

(١٦) الرافعى جزء ٢ ص ٦٣ الى ٦٨ عن كتاب التاريخ العلمى والحرب للحملة الفرنسية الجزء الخامس .

(١٧) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الرافعى جزء ثانى ص ٧٧ الى ص ٨٤ .

وسلم الكابتن (فيناش) القلعة وأسره العثمانيون واحتلها العثمانيون
يوم ١٧ يوليو ١٧٩٩ •

معركة أبي قير البحرية (٢٥ يوليو ١٧٩٩)

لما علم نابليون بهذه الهزيمة حشد جيشا قوامه عشرين ألف من المشاة وثلاث آلاف من الفرسان مزودين بالمدافع الكافية واتخذ المبادرة قبل أن تعيد القيادة العثمانية أوضاعها وأسرع نابليون بالزحف من الاسكندرية ولما وصل أبي قير نشبت معركة صباح يوم ٢٢ يوليو فهاجم الجنرال (دستنج) قائد القلب والجنرال (توس) من الميسرة والجنرال (لان) من الميمنة وكان الجنرال (كليبر) قائد الاحتياط وتمكن الفرنسيون من احداث ثغرة في استحكامات الأتراك وبذل الفريقان منتهى البسالة وكثرة عدد وعدة الفرنسيين فقد انتصروا في النهاية ووقع مصطفى باشا ورجاله أسرى وكانت كارثة عثمانية لكثرة الخسائر فيهم وبخاصة في القتلى • وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثماني وذخائره • وقام الفرنسيون بحصار القلعة من بادية الأمر وظلت تقاوم القلعة هجماتهم وكان بها ثلاثة آلاف مقاتل عثماني بقيادة ابن مصطفى باشا الذي أبى أن يسند لهم واستمر الحصار قائما والحرب مستمرة الى أن نفذت ذخائر العثمانيين فاحتل الفرنسيون القلعة يوم ٢ أغسطس ١٧٩٩ •

المقاومة في الوجه القبلي

في أعقاب ثورة القاهرة الأولى كان القائد ديزيه يمارس مطاردة المالك في الوجه القبلي وفي أثناء ذلك قابلته مقاومة عنيفة وبخاصة بعد أن انضم المصريون الى المالك ومعهم المجاهدون من العرب المكيين فتصاعدت المقاومة في وجه ديزيه •

معركة سلمنت (آخر أكتوبر) •

بعد أن استولى القائد الفرنسي ديزيه على كثير من الغلال من أهالي الوجه القبلي وبالذات من أهالي بني سويف والمنيا والفيوم تجددت الاضطرابات والمقاومة من الأهالي والممالك وأمعن الفرنسيون في عمليات النهب والسلب وبخاصة في الغلال والحبوب • ففي المنيا استولى ديزيه على جميع الغلال وعلى الجياد وقام جنود أحد المراكب الفرنسية باغتصاب ممتلكات الأهالي واستولوا على جميع السلع من سوق مدينة سدمنت وثار الفلاحون وقتلوا بعض الجنود الفرنسيين وصدرت الأوامر بعد ذلك لهم بعدم مزاوله النهب وتوقفت مثل هذه العمليات •

ثورة الفيوم

في آخر أكتوبر ١٧٨٩ أقامت قوات ديزيه في معسكر للراحة في الفيوم انتظارا لورود المدد من نابليون استعدادا لاستئناف الهجوم على قوات مراد بك فائد المماليك ولكن الروح الثورية للشعب لم تتوقف وتجددت الاضطرابات ومارس الشعب حرب العصابات على قوات ديزيه - وقام ديزيه بالتقدم يوم ٦ نوفمبر ١٧٨٩ لاختماد هذه الاضطرابات ولقي الفرنسيون مقاومة شديدة في طارس (١٨) وسيلة وسرستنا بالفيوم وازاء تفوق القوات الفرنسية انسحب الأهالي من هذه القرى تحت قيادة على كاشف طبقا لأسلوب حرب العصابات . واستولى الفرنسيون على هذه القرى فنهبوها وأحرقوها عن آخرها انتقاما من هذه المقاومة . ثم فرض الفرنسيون الغرامات والاتاوات على أهالي باقي القرى المجاورة مما ولد في نفوس الشعب السخط والتبرم فقاموا مع المماليك في يوم ٨ نوفمبر سنة ١٧٩٨ بالهجوم المركز على قاعدة الفرنسيين بمدينة الفيوم نفسها واضطر الفرنسيون تحت عنف القتال للتراجع بعد أن هاجم الأهالي أسوار المدينة واقتحموا الشوارع وبلغت قوات الأهالي ثلاثة آلاف وخمسمائة من المماليك وفصييلة فرسان عرب من المكين وألفا من الفلاحين .

ديزيه يستأنف القتال

في أوائل نوفمبر ١٧٨٩ شعر ديزيه وبخاصة بعد معارك الفيوم بخطورة الموقف حيث تصاعدت استعدادات المقاومة الشعبية والمماليك والمجاهدين العرب واستخدمهم أسلوب حرب العصابات في الكر والفر فقد أقر ديزيه التوقف عن مطاردة المقاومة الشعبية وألح في طلب المدد من بونايرت (١٩) ، ورغم انشغال بونايرت في الاعداد للحملة على سوريا فقد أرسل المدد على دفعات الى ديزيه حتى وصلت قواته الى ١٥٠٠ من الفرسان وقوات كافية من المشاة والمدفعية وكميات وافرة من الذخائر وست سفن حربية مزودة بالمدافع الحديثة وكان مجموع هذه القوات ٤٠٠٠ مقاتل . وكان سبب اهتمام نابليون بتعزيز حملة الصعيد هي أمله في الحصول على الغلال التي أصبحت البلاد وجيش الفرنسيين في شدة الحاجة إليها حيث كادت تحدث مجاعة في الوجه البحري ، وارتفعت أسعار الغلال بشكل كبير مما قد يعجل ذلك بالثورة الشعبية في هذه النواحي .

(١٨) من قرى مركز سنوس تاريخ الحركة القومية الجزء الأول للأستاذ الرافعي جزء ٢ ص ٣٥٠ .
(١٩) بونايرت في مصر كريستوفر هيرولد ص ٢٤٦ .

94.

وكان كل ذلك نتيجة الاضطرابات المستمرة والمنظمة في الوجه القبلي والتي دأبت على حرمان الفرنسيين بصفة مستمرة من الحصول على هذه الغلال .

وبعد أن تم تعزيز قوات ديزيه استأنف التقدم بقواته الكافية. وزحف على باقى الوجه القبلي في اتجاه أسيوط وعندما وصلت قواته صباح يوم ١٧ ديسمبر ١٧٩٨ على مقربة من قرية الفقاعى بالفشن (٢٠)، قام أحد الغلمان الفلاحين وكان سنه ١٢ سنة بسرقة كثيرا من أسلحة الفرنسيين فتبعوه وقبضوا عليه بعد إصابته بالسيف وأحضره الى القائل ديزيه والدعاء تسيل منه فلما سأله ديزيه عن السبب في هذه الأعمال العدوانية ومن حرصه على ارتكابها أجابه الغلام بمنتهى الشجاعة والثبات . « أن الله هو الذى أمره بهذه المقاومة وأنه لم يعرضه أحد على ذلك . ثم قال فى منتهى الثبات والشجاعة « دونك رأسى فاقطعوه » وكان لموقف هذا الغلام من عامة الشعب دلالة واضحة فى نفس الفرنسيين. عن مدى صلابة المقاومة المصرية التى يواجهونها .

وتقدمت قوات ديزيه واحتلت أسيوط يوم ٢٥ ديسمبر ١٧٩٨. وقامت الحملة بعد ذلك بمواجهة المقاومة العنيفة فى كل من سوهاج ٣ يناير ١٧٩٩ وفى طهطا فى ٨ يناير ١٧٩٩ وفى سمهود فى ٢٢ يناير سنة ١٧٩٩ واشترك مع المقاومة المصرية فى هذه المعركة مجاهدون من عرب جدة وينبع وكثيرا من المجاهدين من سواحل البحر الأحمر .

المجاهدون العرب

وقومية المعركة

بمجرد أن شعر شعب الجزيرة العربية بمحنة البلاد (٢١) المصرية التى ابتليت بالغزو الفرنسى قام المجاهدون هناك بتنظيم عملية التطوع لانتفاذ البلاد المصرية وللمشاركة فى الجهاد وقاموا بتنظيم أنفسهم وإعدادها للجهاد بين ميناء جدة بالحجاز وبين ميناء القصير بمصر على البحر الأحمر وذلك لامتداد المقاومة المصرية بما يلزمها من المجاهدين المسلمين . ونفس الشيء حدث - حضر متطوعون عرب آخرون من البلاد العربية فى شمال أفريقيا وكان يطلق عليهم المغاربة والذى كان على رأسهم

(٢٠) بونابرت فى مصر كريستوفر ميرولد ص ٢٥٤ .

(٢١) بونابرت فى مصر تأليف كريستوفر ميرولد ص ٢٥٦ .

كل ذلك من واقع تمييز الكاتب كريستوفر ميرولد .

مولاي محمد أو (المهدي) والذي (٢٢) قاوم الفرنسيين بعنف حتى كاد ينتصر عليهم في البحيرة كما جاء ذكر ذلك في مكانه في مقاومة المصريين في البحيرة في الوجه البحري .

وفي الوجه القبلي كان القائد الفرنسي ديزيه وقواته يشعرون بالرهبة من المقاتلين العرب القادمين من الحجاز والذين عبروا البحر الأحمر بالآلاف .

« وقد زعموا كلهم أنهم من سلالة الرسول » (وهذا هو تعبير الكاتب المسيحي كريستوفر هيرولد) ويحملون البنادق والسيوف والرماح والخناجر وفي خلقتهم صلابة تنطق بها وجوههم ، وقد تبين أن كثيرا منهم من الحجاج المغاربة الذين تطوعوا بسرعة وهم في طريق الحج ولكن أكثرهم وأشدهم تعصبا بالطبع هم العرب الخالص من شبه الجزيرة وتجمع الروايات على أن « المكين » أو « أشراف ينبع » (٢٣) كما أسماهم الفرنسيون هم هؤلاء المقاتلون ذوا الجلود البرونزية والأجساد النحيلة ، كانوا مصداقا لوصف بونايرت لهم .

« ان ضراوتهم لا يعدلها الا انحطاط مستوى معيشتهم لأنهم معرضون أبدا لرمال الصحراء الساخنة والشمس المحرقة ، ومحرمون من المياه ، لا رحمة في قلوبهم (٢٤) ولا عهد لهم » .

(بونايرت كان سفاح مذهبة يافا التاريخية ٧ مارس ١٧٩٩ - ص ١٤١ من الكتاب) ويستطرد نابليون عن المجاهدين المكين قائلا « انهم صورة مجسمة للرجل المتوحش كإبشع ما يصوره العقل وكان هؤلاء الرجال من سلالة - أسلافهم الذين فتحوا نصف العالم قبل إحدى عشر قرنا ، وقد جاءوا في عام ١٧٩٨ ليقاتلوا الفرنسيين الكافرين بنفس الايمان » . ونزلت كل الامدادات العربية في ثغر القصير الصغير .

واتفق (٢٥) أنه حين وصلت أول قوة عربية كان بونايرت قد أرسل لتوه أسطولا صغيرا من السويس ليحتل القصير ووصل الأسطول المكى في نفس الوقت .

(٢٢) ص ٨٣ ، ٨٤ من الكتاب .

(٢٣) نفس المصدر السابق ص ٢٥٦ (بونايرت في مصر) .

(٢٤) وأين كانت رحمة وعهد نابليون التي مارس عكسها تماما مع جنود قلعة يافا الأتراك الذين استسلموا له على وعد منه بالأمان ولكنه فكر لهذا الوعد بالأمير يرميهما جميعا رميا بالرصاص على شاطئ البحر .

(٢٥) بونايرت في مصر ص ٢٥٧ الى ص ٢٦٧ .

وضرب الأسطول (٢٦) الفرنسي ضربا شديدا وقفل راجعا الى السويس واختتم قائده الفرنسي تقريره لبونايرت راجيا الا يرسله مستقبلا في مهام مستحيلة التنفيذ كهذه المهمة . وجاء في خطاب (٢٧) القائد ديزيه في الصعيد الى بونايرت في ١٨ فبراير ١٧٩٩ « اننى في معارك متصلة مع الفلاحين والمتطوعين المكين » وفى ٤ مارس ١٧٩٩ أبلغ الجواسيس (يعقوب حنا) الجنرال بليار الفرنسى (تحت قيادة ديزيه) وكان فى أرمنت أنه من ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ (آلاف) آخرين مكين نزلوا فى القصير .

وفى ٨ مارس ١٧٩٩ التقت قوة الجنرال بليار الفرنسى المؤلفة من ألف رجل (يشكون كلهم تقريبا من الرمد) بقوة من المكين قوامها ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف و ٣٥٠ من المماليك عند أبنود وكان لديهم عدد من مدافع استطاعوا أن يطلقوها على الفرنسيين باحكام واستمرت المعركة ثلاثة أيام .

استمرار المقاومة بالوجه القبلى

واستمرت المقاومة لقوات ديزيه وبخاصة بعد انضمام بكوات المماليك عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى . ثم واصلت قوات ديزيه التقدم الى أسوان وقابلت مقاومة فى جزيرة فيلة فى منتصف فبراير ١٧٩٩ وكانت مقاومة عنيفة اشتركت فى معاركها النساء وتجدد القتال بين جرجا وأسوان فى آخر فبراير ١٧٩٩ ، وكذلك حدثت اضطرابات ومعركة فى الرديسة فى ١١ فبراير ١٧٩٩ ، وهاجم الأهالى القوات الفرنسية عندما وصلت الى قنا فى ليلة ١٣ فبراير ١٧٩٩ - ثم حدثت معركة مع المقاومة المصرية فى (أبى مناع) فى ١٧ فبراير ١٧٩٩ ثم فى اسنا فى ٢٥ فبراير ١٧٩٩ ولم تتوقف المعارك بين قوات ديزيه والمقاومة المصرية فى جميع نواحي الوجه القبلى كلما كانت تظهر طلائع قوات الحملة الفرنسية فكانت الصوامع فى ٥ مارس ١٧٩٩ وكان من أشد أعمال المقاومة هى عملية بارود .

عملية بارود (٣ مارس ١٧٩٩)

كانت ١٢ سفينة حربية تسير ببطىء خلف حملة ديزيه بالوجه القبلى وكانت مشحونة ذخائر وعند قرية (بارود) جنوبى قنا وبالقرب من قوص

(٢٦) نفس المصدر السابق .

(٢٧) اعتبر الفلاحين والمتطوعين المكين أعنف من المماليك نفس المصدر السابق ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٨ .

سحق فيها الجيش العثماني - ولكن زاد قلقه عندما علم أن تركيا تجهز جيشا عظيماً في عدده وتحشده في سوريا بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا .

وبعد معركة أبي قير كان نابليون يفكر بصفة جدية في اجراء صلح مشرف مع الانجليز والأتراك . ولكنه عجل بالرحيل وجعل قائد الجيش التركي الأسير في معركة أبي قير (مصطفى باشا) وسيطا لاجراء الصلح وأوفده لهذا الغرض الى تركيا قبل رحيله .

تولى كليبر القيادة

وقبل أن يغادر نابليون مصر ترك (٣١) رسالة على شكل تقرير مفصل وصف فيه أحوال مصر السياسية وصفا دقيقا وشرح فيه خطة العمل الذي يتعين على كليبر أن يتبعها حيث أن نابليون غادر مصر ولم يقابل كليبر وجها لوجه . واستشاط كليبر غضبا حين علم أن بوناپرت عينه لقيادة جيش الشرق ، ففي رأيه أن بوناپرت هرب من المسؤولية تاركا اياه لمواجهة المشكلات التي خلفها وليدفع كليبر ثمن أخطاء بوناپرت . وكان كليبر معدودا من خيرة قوات الجيش الفرنسي ومن أكفاهم وكان محبوبا من رؤسائه ومرؤوسيه وكان يتصف بالصراحة والشجاعة والاقدام كما كان من خاصة أصدقاء نابليون ولكن ساءت العلاقة بينهما أثناء الحملة وبدأت في التدهور عندما عارض كليبر نابليون في أسلوب التشدد مع الأهالي المصريين في جمع الأموال بالاناثوات والغرامات والضرائب الظالمة وعمليات نهب المحاصيل والدواب والمواشي . وكان قمة هذا الخلاف عندما عنفه نابليون في خطاب أرسله له عندما كان كليبر قائدا لحامية الاسكندرية وصرف مبالغ طائلة مما أرسله له نابليون ليصلح بها سفن الأسطول التالفة - بعد معركة أبي قير ولكن كليبر صرفها كمرتبات متأخرة للجنود لإقتناعه بعدم جدوى الصرف على اصلاح سفن الأسطول التالفة - رغم ذلك أسند اليه نابليون قيادة الجيش الفرنسي بمصر بعد رحيله المفاجيء الى فرنسا لاقتناعه بكفاءة كليبر الحربية والسياسية وأخلاقياته وقدرته على القتال والحكم والادارة .

الموقف العام بعد تسليم كليبر القيادة

- بادر كليبر بعد اسناد القيادة له بالاجتماع مع أعضاء الديوان باعتبارهم زعماء البلاد وكبداية طيبة لحسن التفاهم مع الشعب المصري واتصفت بداية أيام قيادته بالهدوء النسبي للحالة الثورية في القاهرة

(٣١) عبد الرحمن الرافعي ص ١١٢ ، ص ١١٣ ، ص ١١٤ .

وباقى الأقاليم • ونظرا لأن الشعب المصرى كان قد أصيب بخيبة أمل كبيرة بعد أن انهزم الأتراك شر هزيمة فى معركة أبى قير الثانية بعد أن كانوا يعتقدون الآمال على العثمانيين ليخلصوهم من الاحتلال الفرنسى •

— انتهز كليبر فرصة حالة الهدوء هذه فقطى كل وقته فى اصلاح حال الجيش الفرنسى وفى تقوية الحصون والقلاع والدفاعات والاستحكامات والمصانع الحربية وازاء ذلك احتاج الى المال فاستعاد نفس أسلوب نابليون فى فرض الاتاوات وجمع المال بكل الوسائل من الأهالى مخالفا مبادئه وبذلك أعاد السخط والتذمر الشعبى •

— ثبت لكليبر أن الأهالى فى مصر لم يخمد سخطهم وتذمرهم من الوجود الفرنسى بل كانت معالم الثورة كامنة فى نفوسهم وانهم يكرهون الدخيل الفرنسى وزاد ذلك التحفز المصرى بعد أن انقطعت صلة الحملة الفرنسية بالبلد الأم فرنسا وتوقف الامدادات وانتشار حالة الضيق الاقتصادى والمالى نتيجة تدمير الأسطول الفرنسى وأحكام الحصار البريطانى على مصر وشواطئها علاوة على انتشار الأوبئة والأمراض بالجند الفرنسيين •

وبعد أن أنهكتهم المقاومة المصرية المستمرة بالوجهين البحرى والقبلى بالإضافة الى حالة الأزمة الاقتصادية المصرية وارتفاع الأسعار مما ساعد على تزايد حالة السخط والتبرم المصرى وكما تسبب انخفاض منسوب مياه النيل الى سوء الانتاج الزراعى •

— كان كليبر (*) نفسه ومعظم قواده على دراية كاملة بأن الشعب المصرى لا يحمل لهم أى ذرة من الود بل الكراهية لاختلاف الطبيعة والعقلية والعقيدة الدينية لأن المصريين اعتبروا تصرفات القوات الفرنسية العنيفة ضد الثوار من حرق القرى واقتحام الأزهر بخيولهم وما صاحب ذلك من أفعال اعتبرها المصريون اعتداءات على مقدساتهم الدينية ناهيك عن أسلوب الضرب والاهانة والتنكيل بزعماء الشعب المعتمين والذين يبجلهم ويحترمهم وقد أفصح كليبر « أن الشعب المصرى كان قلبه متجها الى الأمل فى حدوث الانقلاب الذى يتوقعه » •

وجاء فى تقرير من بوسليج الوزير المرافق للحملة « أن الشعب المصرى يكرهنا وهيئات أن يحبنا مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن أن نعامل به شعب بلاد محتلة • وأن المصريين يمتنون حكم الممالك ويرهبون ظلم الاستانة ولا يحبون حكمها ، ولكنهم لا يطيقون حكمنا ولا يصبرون عليه الا بأمل التخلص منا » •

(*) من رسالة كليبر الى حكومته فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٩٩ •

ولكل ذلك يادر كليبر بالتمهيد للصلح مع تركيسا وعرض.
التفاوض (٣٢) •

فقد حدث أنه في آخر أكتوبر ١٧٩٩ وصلت الى شاطئ البحر بالقرب من دمياط ٥٣ سفينة حربية تركية تحمل ٧٠٠٠ مقاتل من الانكشارية تصحبهم بارجة انجليزية عليها قائد الأسطول البريطاني (سير سيدنى سميث) وقابلهم الفرنسيون في أول نوفمبر ١٧٩٩ وهزمهم شر هزيمة بالقرب من عزبة البرج • هذا النصر الكبير شجع كليبر على إعادة الاتصال للتفاوض والصلح وهو في موقف المنتصر • وقبل الأتراك مبدأ الصلح - ولكن الأتراك أثناء هذا الاتصال قاموا بأعداد جيشا كبيرا بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا وبدأ يتقدم من غزة قاصدا العريش فوصل الى مشارفها في ٢٢ ديسمبر ١٧٩٩ وضرب حصارا عليها وطلب من حاميتها الفرنسية القليلة العدد تسليم القلعة ، ومع اشتداد الهجوم، العثماني على القلعة سلمها الفرنسيون واحتل الأتراك قلعة العريش يوم ٣٠ ديسمبر ١٧٩٩ •

معاهدة العريش ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠

عند هذا الحد من الصراع الحربى أعاد لطرفان العثماني والفرنسي استئناف الموافقة على مبدأ التفاوض وأخيرا اجتمع الوفدان الفرنسي والتركي في العريش بحضور (سير سيدنى سميث) ووقع الطرفان الفرنسي والتركي على معاهدة الصلح ولكن في بادئ الأمر رفض الجانب البريطاني (سير سيدنى سميث) التوقيع على المعاهدة تبعا للمكر البريطاني وسوء نيتهم كمبرر وقت اللزوم لعدم الالتزام بأى شئ وحتى يمكنهم نقض هذا الاتفاق وكان التوقيع على المعاهدة يوم ٢٤ يناير ١٨٠٠ عن الجانب التركي الصدر الأعظم ومصطفى أفندى راسخ رئيس الكتاب وعن الجانب الفرنسي الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج وعن الجانب البريطاني سير سيدنى سميث (بعد المزاوغة) وعن الجانب الروسى القنصل فرنكين Franchine

وكانت المعاهدة تنص على اتفاق الطرفين على جلاء القوات الفرنسية من مصر بكامل أسلحتهم ومعداتهم الحربية وخلافه بحرا وعلى السفن الفرنسية وعلى السفن التي تعدها الحكومة العثمانية ، ووضع جدولا زمنيا للجلاء على أن تتسلم القوات العثمانية المواقع التي يجلو عنها الفرنسيون أولا بأول حسب الجدول الزمني المتفق عليه •

(٣٢) من رسالة كليبر الى حكومته في فرنسا في ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٩٩ •

وفي أثناء التفاوض في العريش كان كليبر قد انتقل بقواته الى الصالحيه ليكون على مقربة وعلى استعداد لرد هجوم الأتراك اذا لم يتم الصلح واجتمع هناك بقواد جيشه يتداولون في الحطة التي يجب اتباعها .

بعد توقيع معاهدة العريش عاد كليبر الى القاهرة وكان بصحبته مندوب الصدر الأعظم اسمه محمد أغا ليتسلم أعمال الحكومة « وخرج الناس (٣٣) لمشاهدته والفرجة عليه » وانتشرت أنباء الاتفاقية وقرب جلاء القوات الفرنسية من مصر وعمت الفرحة جميع أنحاء البلاد . ولكنها كانت فرحة ممزوجة بحب أخذ الثار لطول معاناة العامة من صنوف القهر والتنكيل والحرق وسلب المحاصيل .

— في نفس الوقت بادرت القوات التركية وعجلت في الوصول الى مصر واستلام مواقع الجيش الفرنسي في أنحاء الدلتا بصفة عامة وفي القاهرة بصفة خاصة .

وتعجل بعض قادة الجيش الفرنسي في الرحيل ومنهم الجنرال ديزيه والجنرال دوجا والفومسير Miot والوزير بوسليج وآخرون وأقلعوا من الاسكندرية ولكن الأسطول البريطاني اعترضهم في عرض البحر وتحفظ عليهم .

ثانيا : انجلترا تتنكر لمعاهدة العريش (٣٤) وتركيا تبارك موقف انجلترا

وفي ١٨ مارس أرسل لورد كيث قائد القوات البحرية الانجليزية في البحر الأبيض خطابا الى كليبر صيغ بلهجة مهينة وأخطره فيه بأن جلالة ملك بريطانيا لا يستطيع الموافقة على التسليم الا بشروط وبخاصة ضرورة انسحاب الفرنسيين من مصر بعد تسليم الأسلحة . وكان الصدر الأعظم في هذا التاريخ قد اقترب بقواته من أبواب القاهرة بجيش قوامه ٤٠٠٠ مقاتل وكان رد الفعل (٣٥) عند كليبر سريعا للغاية فلم يمض ثمان وأربعون ساعة حتى أعلن الغاء جميع أوامر الجلاء . وأخطر الصدر الأعظم بانتهاء الهدنة . في نفس الوقت تعمد الصدر الأعظم عدم الرد على كليبر وزحفت قواته في اتجاه العاصمة .

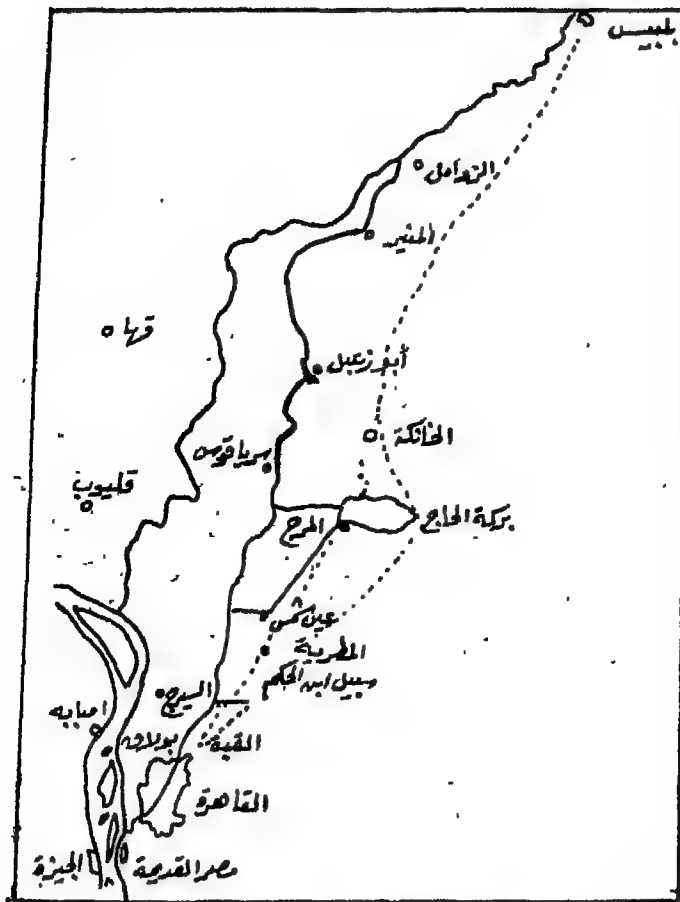
وأصدر كليبر لجنوده منشورا به النص الكامل لخطاب القائد

(٣٣) الجبرتي جزء ٣ ص ٨٣ ، ص ٨٧ .

(٣٤) بولابرت في مصر تأليف ج . كريستوفر هيرولد ص ٣١٨ .

(٣٥) نفس المصدر السابق ص ٣٦٩ .

معركة عين شمس
(٢٠ مارس سنة ١٨٠٠)



بين القاهرة وبلبيس (تخطيط سنة ١٨٠٠)
ولها بيان ميدان معركة عين شمس

البريطاني كيث وأضاف إليها « أيها الجنود لا جواب لدينا على هذه الوقاحة
(البريطانية) إلا النصر ، فأعدوا أنفسكم للمعركة » .

معركة عين شمس

لم يضيع كليبر الوقت (٣٦) وتحرك بقواته في ٢٠ مارس ١٨٠٠ .
« ركب (٣٧) ساري عسكر كليبر قبل طلوع الفجر بعساكره وصحبته
المدافع وآلات الحرب » للقاء قوات الصدر الأعظم وقبل مساء يوم ٢٠ مارس
كان قد أوقع الهزيمة بجيش الصدر الأعظم الذي يبلغ قواته أربعة أضعاف
قوات الفرنسيين وذلك قرب أطلال عين شمس . وأخذ هجومه الأتراك
على غرة . على أن انتصار كليبر في عين شمس كان انتصارا ناقصا رغم
سرعته لأنه حدث أنه بينما كان كليبر يطارد قوات الصدر الأعظم بعد
المعركة أفلح ناصف باشا (ابنه) مع شطر من القوات التركية من الأفلات
من الفرنسيين ويهم مسرعا شطر القاهرة وكذلك تمكنت قوة من فرسان
الجيش العثماني ومشاته بقيادة نصوح باشا أن تغلت من المعركة وأرسل
كليبر خلفها قوة فرنسية لمطارقتها لتأمين سلامة خطوطه الخلفية ولكن
قوات الجيش العثماني ومشاته بقيادة نصوح باشا تمكنت أيضا أن تغلت
من المعركة وأرسل كليبر خلفها قوة فرنسية لمطارقتها لتأمين سلامة خطوطه
الخلفية ولكن قوات نصوح باشا تغلبت على القوة الفرنسية الصغيرة وتمكن
هو الآخر بقواته من دخول القاهرة .

وفي نفس الوقت وأثناء (٣٨) انشغال كليبر في معاركه مع قوات
الصدر الأعظم في عين شمس كان معظم البكوات المماليك قد دخلوا
القاهرة من جديد مع جانب من القوات التركية المنسحبة من معركة
عين شمس إلا واحدا اشتهر بالقدرة على المراوغة والانتهازية وهو مراد بك
وظل متفرجا ومحايذا بين الأطراف . فلما دعاه زملاؤه البكوات للانضمام
اليهم للمقاومة راوغ في الجواب ونصحهم بعدم مقاومة الفرنسيين .

رابعا : مرحلة العمل الايجابي (من ٢١ مارس ١٨٠٠ الى
٢١ ابريل ١٨٠٠)

الثورة

في واقع الأمر أنها لم تكن ثورة القاهرة فقط لكنها كانت تعم جميع
أنحاء مصر لأنه حسب ما ذكرنا سابقا عن الموقف العام في أول أيام قيادة

(٣٦) الجبرتي الجزء ٣ ص ٩١ .

(٣٧) بونايرت في مصر تأليف كريستوفر هيرولد ص ٣٦٩ .

(٣٨) بونايرت في مصر تأليف كريستوفر هيرولد ص ٣٧٠ .

كليببر للقوات الفرنسية بعد رحيل نابليون أن الهدوء وقتها كان قد ساد في القاهرة ولكنه كان هدوءا ظاهريا لأن النفوس كانت مشحونة ومعبأة وجاهزة للانفجار في أى وقت لأن القاهرة كانت سريعا ما تتجاوب مع آلام الشعب في أى ناحية من نواحي مصر في الدلتا أو في الصعيد .

فلم تنقطع الثورات والمقاومات فيها لأنه بينما كان كليببر يستعد لقتال العثمانيين في عين شمس بعد تنكر الانجليز والعثمانيين لاتفاقية العريش تجددت الثورة في كثير من بلاد الوجه البحرى وبخاصة في دمياط ومنوف وسمنود وكان يساعد على اشتعالها فلول القوات التركية التي أمكنها الافلات من معركة عين شمس .

وأمكن لمعظم هذه القوات بقيادة نصوح باشا وناصر باشا من دخول القاهرة التي كانت بها حامية فرنسية ضعيفة لا تزيد عن ٢٠٠٠ ألفى مقاتل - وأخذ قواد وجنود الأتراك الذين دخلوا القاهرة في أثناء انشغال كليببر بمعاركه في عين شمس يحرضون عامة الشعب في القاهرة على الثورة حيث كانت نفوسهم مشحونة بالبغض والكراهية للفرنسيين وجاهزين لطلب الثأر من الاعتداءات الوحشية والتنكيل القاسى الذى مارسه الجنود الفرنسيون منذ اخماد ثورة القاهرة الأولى بالإضافة الى ما قاساه عامة الشعب في الدلتا وفي الوجه البحرى من قتل وحرق ونهب وسلب .

- كما كان من أهم الأسباب سوء الحالة الاقتصادية وحالة الغلاء الفاحش .

- وساعد على سرعة اشتعال الثورة الثانية في القاهرة أيضا شعور الشعب وشعور قادته الوطنيين بضعف القوات الفرنسية المتبقية بالقاهرة أثناء انشغال كليببر بحربه مع العثمانيين في عين شمس ووجد قادة الثوار في القاهرة أن الفرصة سانحة للانتقام من الفرنسيين ويجب انتهازها للاستعانة بالقوات العثمانية لامكان التغلب على القوات الفرنسية القليلة العدد بالقاهرة والتخلص منها نهائيا خصوصا وأن الشائعات كانت قد انتشرت بالمبالغات عن هزيمة الجيش الفرنسى في عين شمس بدليل امكان وصول قوات نصوح باشا وناصر باشا سليمة من أرض المعركة الى القاهرة ودخولها القاهرة في شكل مظاهرة عسكرية منتصرة .

كما تخلل ثورة القاهرة الثانية التحريض السافر للعامة من القائد التركى وجنوده فقد نادى نصوح (٣٩) باشا العامة على قتل النصارى كما قامت في نفس الوقت عناصر أخرى عثمانية ومن المغاربة والأغراب

الغير مصرية فى القاهرة بدور تحريض ومهيج للجماهير وبدأ التحريض على الأجانب من الشوام والأروام والفرنسيين دون تمييز • كل ذلك حدث قبل أن تتولى القيادة الوطنية زمام الثورة •

ولذلك حدث فى بدء الثورة بعض التصرفات غير السليمة من المندسين بين صفوف الشعب وذلك بالاعتداء على الأقباط المصريين والأروام وبإلغ المؤرخون وبخاصة الغربيون فى وصف هذه التصرفات حتى نعتوها بأنها فتنة طائفية من المسلمين المصريين ضد الأقباط الوطنيين •

— قام بعض الأقباط والأروام بالتحصين داخل منازلهم واضطروا للدفاع عن النفس باستخدام الأسلحة وفتح النار على المهاجمين •

القيادة الشعبية المصرية تتولى مسئوليتها

وسرعان ما تدخل والى الشرطة (٤٠) ونادى بين الناس « بوجوب المحافظة على أرواح المسيحيين وتوجيه قواتهم (الناس) ضد الفرنسيين وحدهم » كما أن منازل بعض (٤١) المسيحيين كانت تجاور بيوت المسلمين وقام المسلمون باستضافة الأقباط المهددين فى منازلهم وحمايتهم ونسائهم وأطفالهم — أما أكبر القبط (٤٢) مثل جرجس الجوهري وفتنوس وملطى فانهم عندما طلبوا الأمان من (القيادة الوطنية) لكونهم انحصروا فى دورهم وخافوا على نهب دورهم اذا خرجوا فأعطوهم الأمان وأعانهم المسلمون بالمال واللوازم وتمكن قادة الثورة الوطنية الحقيقيون من تولى زمام الموقف •

وهم السيد عمر مكرم والسيد أحمد المحروقي كبير تجار القاهرة وكثير من أمراء المالك الثوار (٤٣) وعلى رأسهم حسين بك الجداوى وعثمان بك الأشقر وكان العامة يطلقون على حسين بك الجداوى (ذى السبع أرواح) لبراعته فى التخلص من مآزق الموت أثناء القتال عدة مرات وتواجده دائما عندما يطلب للنجدة مهما كان الموقف • وكذلك الحاج مصطفى البشتيل (٤٤) كبير أعيان بولاق وحقق هؤلاء القادة الثوار نجاح أعظم ثورة شعبية فى العالم ضد الاستعمار فى ذلك الوقت رغم وحشية الانتقام الفرنسى وتفوق جيوشه وأسلحته ومعداته •

(٤٠) الرسمى جزء ٢ ص ١٥٥ (من مذكرات كليبر) •

(٤١) الجبرتى جزء ٣ ص ٩١ •

(٤٢) الجبرتى جزء ٣ ص ٩٦ •

(٤٣) الجبرتى جزء ٣ ص ٩١ •

(٤٤) وهو من قرية بشتيل من قرى مركز امابة وقد اختار بولاق كساحة للمقاومة

لان الامدادات بالرجال والسلاح والمؤونة كانت تحصله عبر النيل من راق الحضر التى كانت شبه قاعدة •

وللرد على التشويه الذى أرادوا أن يصفوا به ثورة القاهرة الثانية فان قادة الثورة الوطنيين عندما تولوا بسرعة زمام الموقف من رعاى الأتراك والمماليك ومن العناصر المهيجة الغربية والمشبوهة كانت الثورة تنتقم من الخونة سواء كانوا من المسلمين أو الأقباط على حد سواء ودون تفرقة • فعندما وصلت لقيادة الثورة أنباء أن المحافظ المسلم مصطفى أغا (٤٥) مستحفظان يتعاون مع الفرنسية وياويهم فى داره وتحققوا من ذلك بعد مهاجمة منزله فقد تم القبض عليه وحكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم •

وبنفس القدر من التصرف الثورى الطبيعى ودون تمييز بين مسيحي ومسلم فأباح قادة الثورة دم المعلم يعقوب حنا الخائن الذى باع نفسه للفرنسيين • وكان يعقوب حنا الخائن يقوم بالبحث عن مخبآت المصريين الثوار والتبليغ (٤٦) عنهم • وكان يعقوب حنا قد « كرنك (حصن نفسه) فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعساكر المحاربين وتحصن بقلعته التى كان قد شيدها لحماية نفسه من انتقام الثوار » •

وبلغ الاخاء القبطى الاسلامى ذروته فى الوحدة الوطنية أثناء ثورة القاهرة الثانية بأن قام أغنياء الطرفين بمد الثوار بالأموال والمؤن (٤٧) والمعونات •

ولكن كتاب الغرب يصفون أعمال يعقوب حنا فى مقاومة الثوار أنها أعمال كلها (٤٨) بسالة رغم أنها كانت أعمال استفزازية للشعور الوطنى • لأنه كان يساعد المحتل الفرنسى ضد مواطنيه الثوار من أهل البلاد وكان يؤجر (٤٩) على هذه الأفعال الدنيئة •

(٤٥) الجبرتي الجزء ٣ ص ٩٦ •

(٤٦) الجبرتي جزء ٣ ص ٩٦ •

(٤٧) نفس المصدر السابق ص ٩٧ •

(٤٨) بونايرت فى مصر كريستوفر هيرولد ص ٣٧١ •

(٤٩) نرجع الى ص من الكتاب •

ثورة القاهرة الثانية

بداية الثورة

بعد أن تمكن قادة الثورة الوطنية من التعاون مع والى الشرطة فى القضاء على بؤادر الفتنة (٥٠) الطائفية فى مهدها ثاب العامة الى رشدهم وتوقف العثمانيون عن التمدادى فى التعرض للأقباط وقام جنود الأتراك بإحضار ثلاثة مدافع من التى كانت مدفونة بجهة المطرية وأصلحوها وقام ناصف باشا القائد التركى بنفسه مع بعض (٥١) أمراء المماليك الثوار وشمروا عن ملابسهم وشدوا المدافع وضربوا بها بيت الألفى بالأزبكية وكان مقر قيادة الجيش الفرنسى ورد عليهم الفرنسيون بالمدافع والبنادق واستمر الاشتباك بين الفريقين ولم يكذ (*) يسمع سكان العاصمة قصص المدافع حتى تأكدوا أن الثورة قد بدأت فاشتعلت الثورة فى الحال فى حى بولاق بزعامة الحاج مصطفى البشتيل وأمثاله من دعاة الثورة • وذهب ثوار بولاق الى معسكر الفرنسيين بساحل النيل وقتلوا كل من وجدوه من الحراس الفرنسيين واستولوا على ما به من خيام ومتاع ورجعوا الى البلد واقتحموا مخازن الغلال وودائع الفرنسيين واستولوا على ما بها ثم أقاموا الحصون والمتاريس حول البلد وحملوا ما وصلت اليه أيديهم من السيوف والبنادق والعصى واتجهوا جنوب قلعة « كائو » ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها لقوة دفاعاتها واستشهد من الثوار هناك ثلاثمائة •

(٥٠) الجبرى الجزء ٣ ص ٩٢ •

(٥١) الرافعى جزء ٢ ص ١٥٠ •

الثورة الشاملة

بعد ذلك عمت الثورة أنحاء القاهرة وأعاد الثوار الهجوم على معسكر الأوبكية ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليه وأخذت أعداد الثوار في الزيادة ووزع قادة الثوار أنفسهم بين مختلف الأحياء يحثون الناس على القتال وامتلات بالثوار الشوارع والميادين والأسطح وبلغ عددهم خمسين ألفا حاملين جميع أنواع الأسلحة من بنادق وعصى وخلافه واندفعت جموعهم يتقدمهم طائفة من جنود الانكشارية وانضم اليهم النساء والأطفال واعتبر الجميع أن هذا واجب الجهاد ، فكان للجميع نداءات وصيحات تصم الأذان .

ثم أعاد الثوار الهجوم على معسكر الأوبكية مرة أخرى . فكانت ذخيرة المدافع قد نفذت من الثوار استعاضوا عنها بكرات الموازين الحديد واستمر القتال الى اليوم التالى وأحدثت مدافع الفرنسيين في الثوار كثيرا من الخسائر ، في نفس الوقت أخذت جميع القلاع الفرنسية المنتشرة حول القاهرة والموجودة بالأحياء في ضرب المدينة بالمدافع وبخاصة على الأحياء الثائرة ، فوق العرعب (٥٢) في الناس . وقام قادة الثورة بنور فعال في تقوية الروح المعنوية في نفوس العامة بالدعوة للثبات واتسع نطاق الثورة يوم ٢١ مارس ١٨٠٠ فأخرج الثوار كثيرا من المدافع التي كانت مدفونة في بيوت الأمراء المماليك وجمعوا من الأهالي والتجار كل ما يصلح للمدافع حتى الحجارة وصاروا يضربون بها الأهداف الفرنسية . وجاء مدد من كليبر من عين شمس فاقترحم صفوف الثوار .

لكن بمعاونة جنود العثمانيين المقاتلين وأمراء المماليك أمكن الثوار أن يضمّدوا لهذا الاقتحام . وتوقف القتال أثناء الليل .

اتساع الثورة

فى يوم ٢٢ مارس ١٨٠٠ أعاد الفرنسيون اقتحام مواقع الثوار وفشلوا في ذلك لكثرة ما كان بها من المتاريس القوية والمنازل المحصنة ، واستطاع الأهالي أن يقيموا كثيرا من الدفاعات القوية على جميع أبواب مدينة القاهرة وفى معظم أحيائها فى باب اللوق وناحية المدايق والمحجر ، والشيوخ ريحان والناصرية وقصر العيني وقناطر السباع ، وسوق السلاح وباب العصر وباب الحديد ، وباب القرافة وباب البرقية وتحصن الناس للقتال .

نواة الصناعة الحربية

ومما أدهش الفرنسيين (بل (٥٣) العالم أجمع) أن الثوار تمكنوا في فترة وجيزة جدا من انشاء مصنع البارود في بيت قائد أغا بالخرنفس وورشة لإصلاح الأسلحة والمدافع ، ومصنعا آخر لصنع القنابل وصيب المدافع. وأمكنهم جمع الحديد اللازم لهذه الصناعات الحربية من المساجد والجوانيت ، وتطوع الصناع المهرة للعمل في هذه الصناعات وقدم الأهالي طوعا ما لديهم من الحديد والمعادن اللازمة وأخذوا يجمعون القنابل التي كانت تتساقط من المدافع الفرنسية في الشوارع ويعيدون استعمالها كقذائف جديدة للضرب . وصار هذا كله يصنع (٥٤) عند بيت القاضي من جهة المشهد الحسيني واهتم قادة الشعب وأثريائه بهذه الصناعة الحربية اللازمة وجميعوا لها الأموال اللازمة . وصارت البندقية والعربية والحدادين والسباكين يبذلون الجهد الخارق في صنع المدافع والقنابل والمتفجرات وبذلك أمكن للثوار تغيير وجه مصر بإنشاء أول نواة للصناعات الحربية من أسلحة وذخائر بمصر. ويمكن اعتبارها بحق أول ثورة صناعية تولدت من كفاح الشعب وبأيدي الثوار وتصميمهم كاملة الهوية المصرية. وهذه تكفي المصريين فخرا بثورة قاهرتهم الثانية العظيمة .

- وفي اليوم (٥٥) الرابع من الثورة استكمل التنظيم الثوري وبرز دور المؤسسة الوطنية المصرية الثائرة القائدة للثورة وصار احكام التنظيم الثوري ، وتطوع الأهالي لامداد الثورة بالزاد وتوزيع الأقوات وبأشر السيد المحروقي وباقي التجار الكلف والنققات والمآكل وأعان بعضهم بعضا (٥٦) وفعلوا ما في وسعهم وطاقاتهم من المعونة بالإضافة الى تدفق أهل الأرياف القريبة من القاهرة والتي كانت تحضر الاحتياجات من السمن والجبن واللبن والغلة والتبن والغنم . وكانوا يمثلون أكفأ سلاح أو جهاز تموين عسكري وبذلك استكملت ثورة القاهرة الثانية جميع الحلقات الخاصة بأي ثورة ناجحة .

عودة كليبر الى القاهرة (٢٧ مارس ١٨٠٠)

بعد انتصار كليبر على جيش الصدر الأعظم (٥٧) يوسف باشا ضيا ومطاردته في عين شمس عاد كليبر بسرعة الى القاهرة يوم ٢٧ مارس.

(٥٣) تاريخ الحركة القومية جزء ٢ ص ١٥٤ .

من كتاب تاريخ الحملة الفرنسية في مصر للمسيو مارتان أحد مهندسي الحملة .

(٥٤) الجبرتي جزء ٣ ص ٩٣ .

(٥٥) الرافعي جزء ٢ ص ١٥٤ .

(٥٦) الجبرتي جزء ٣ ص ٩٤ .

(٥٧) بونايرت في مصر تأليف كريستوفر هيرولد ص ٣٧ .

سنة ١٨٠٠ وشق طريقه بصعوبة الى مقر قيادته من مدخل حديقة الأزبكية وسط مقاومة الثوار العنيفة . وبينما كان كليبر ينتظر وصول المدفعية اللازمة لقتل الأحياء الثائرة أمر جنوده بتطويق المدينة وعزلها عن موارد الزاد ودعا الأتراك في نفس الوقت للتسليم ورغم أن القواد الأتراك كانوا وقتها راغبين في التسليم إلا أن التنظيم الثوري (المؤسسة الوطنية) منعهم من ذلك وأرسل كليبر رسولا للثوار وقيادتهم يعرض عليهم العفو مقابل التوقف عن الأعمال العنيفة وخشى التنظيم الثوري من خداع القيادة الفرنسية كما حدث في خيانة العهد منهم لوجود الأتراك الذين سلموا للفرنسيين في يافا بعد تعهد الفرنسيين بأمنهم ثم نكرو بونابرت لتعهده وقتلهم جميعا وهم نحو ثلاثة آلاف رميا بالرصاص لذلك كان رد الثوار على الرسول الفرنسي أن قتلوه وصمم الشعب على المقاومة .

خطة الفرنسيين للتغلب على الثورة

في الوقت الذي أخذ فيه كليبر يعيد تنظيم قواته (٥٨) وأسلحته وخططه داخل القاهرة لسحق الثورة عسكريا وجد انه لا يمكنه تحقيق ذلك إلا بعد محاولة عزل الثوار عن الأتراك والمماليك . ورأى كليبر أن استخدام القوة لا يؤدي الى اخماد الثورة لان دفاعات الشعب المصري كانت قوية ومنشرة في أحياء القاهرة . والثوار مستبسلون في المقاومة بمساعدة العسكريين الأتراك وامراء المماليك الثوار ورأى أن مهاجمتهم في معابدهم يفقده كثيرا من جنوده وكان وقتها في شدة الحاجة اليهم بالإضافة الى أن جزءا كبيرا من قواته كانوا لا يزالون في دمياط وفي المنوفية والشرقية وسائر بلاد الدلتا الثائرة وفضل أسلوب بذر الشقاق (فرق تسد) بين صفوف المقاومة .

ففي الفترة بين ٢٧ مارس ١٨٠٠ الى ١٤ إبريل ١٨٠٠ ركز كليبر على التعزيز وتكثيف مدفعيته بالقلاع لتكون قادرة على إحداث أفدح الخسائر في الأنفس والممتلكات ومتاريس الثوار في الوقت المناسب والذي فيه يكون قد تمكن من التفاهم مع مراد بك والأتراك كل على حده ليكونوا خارج القاهرة كلية . وفيما بين هذين التاريخين صمدت المقاومة في مواقعها ومتاريسها وكانت في غاية القوة واستمروا في مقاتلة جنود الفرنسيين وأحدثوا بهم خسائر فادحة .

خيانة مراد بك والأتراك

عاد كليبر الاتصال بمراد بك لاستمالته لجانب الفرنسيين خصوصا أنه قد وجد سابقا سابقة اتصال بين بونابرت ومراد بك منذ وجود بونابرت

(٥٨) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الراقى جزء ٢ ص ١٥٦ .

وأثناء مقاومه مراد بك مع شعب الصعيد ضد الحملة الفرنسية . حيث عرض
مقاومة مراد بك مع شعب الصعيد ضد الحملة الفرنسية . حيث عرض
بونابرت عليه وقتها حكم جرجا تحت السيطرة الفرنسية على أن يدفع
الخارج للفرنسيين ويجمع لنفسه ما يراه من أموال ورفض وقتها
مراد بك (٥٩) . وبنفس الأسلوب فقد أرسل كليبر مندوبه (فورييه) في
١٤ مارس ١٨٠٠ للتفاوض مع نفيسة هانم زوجة مراد بك لضم مراد بك
الى الفرنسيين مقابل تقليده حكم الصعيد وبلغت هذا العرض الى زوجها
بطريقة خفية ولم يكن مراد بك تواقا للقاء الاتراك لتحقيقه من هزيمة
الصدر الأعظم لذلك وافق على العرض الفرنسي وتمكن من التأثير على كثير
من أمراء المماليك الذين كانوا متعاونين مع الثوار مثل عثمان بك فانضموا
الى مراد بك في هذه الخيانة وفي ٥ ابريل ١٨٠٠ أرسل مراد الى كليبر
مندوبه عثمان بك البرديسي ليبرم معه التحالف وليخون المصريين وهكذا
اكتملت الحلقات : فقبل عامين هاجم مراد بك الفرنسيين باسم السلطان
حليف الفرنسيين أو العكس (فقد طارد الفرنسيون مراد بك باسم
حليفهم السلطان) - ثم عاد مراد بك وقاوم الفرنسيين باسم سيده
(نفس السلطان) ثم تمكن مراد بك أن يفلت من مطاردة الفرنسيين
قاربة عام وهو يدوهم ويراوهم من القاهرة الى أسوان وبالعكس وهاهو
ذا في وقت الشدة للثورة الشعبية ينضم بقواته الى أعدائهم الفرنسيين .
وحسب ما سجله المؤرخ المصرى الجبرتي « ان ابتداء المهادنة بين كريبر
ومراد كانت باتصالات تمت بينهما في شهرى سبتمبر واکتوبر ١٧٩٩
فقال الجبرتي « وفي شهر ربيع ثان ١٢١٤ هـ (سبتمبر ١٧٩٩ م) أرسلوا
حملة عساكر من فرنساوية الى مراد بك بناحية الفيوم وعليهم كبير منهم
فوقع بينهم وبينه أمور لم أتحقق منها وترددت بينه وبين عسكر كليبر
الرسل والمراسلات ووقع بينهم وبينه الهدنة والمهادنة واصطلح معهم على
شروط منها تقليده ادارة حكم الصعيد تحت حكمهم » ويؤكد هذه
الاتصالات أيضا كثير من المراجع الفرنسية وهكذا كان أمراء المماليك من
مراد بك وأمثاله لا أمان لهم لأنهم قوم لا انتماء لهم فكانوا عبيدا في
ملابس الأسياذ ولا ولاء لآى جهة الا الى مصالحهم من طلب السلطة
والسلطان حتى ولو كان بتبعيته لآى سلطان (٦٠) من غير ملته ودينه
مادام هذا الفرنسى الأجنبى سيحقق لهم مظاهر الامارة والسلطة . وهكذا
ترقب مراد بك المعركة بين الفرنسيين والعثمانيين لينضم بعد حسمها الى
الجانب المنتصر دون الحفاظ على أى مبدأ أو عهد ولهذا يقول كليبر في
مذكراته « ان مراد بك لم يكذب يتحقق من هزيمة الصدر الأعظم حتى

(٥٩) بونابرت في مصر كريستوفر هيرولد ص ٣٧٠ .

(٦٠) تاريخ الحركة القومية جزء ٢ للأستاذ الرامى ص ١٥٩ و ١٦٠ .

أرسل لى يبدى رغبته فى عقد صلح معى « وأرسل مراد بك الى كليبر عن طريق مندوبه حسين كاشف « انه يريد أن يعيش مع الفرنسيين فى سلام على شرط ان يضمنوا له عيشة راضية وانه يستطيع أن يقدم خدماته للفرنسيين للمساهمة فى وضع حد لمقاومة المصريين » . وتم فى ٥ أبريل سنة ١٨٠٠ التوقيع على شروط الصلح بين مراد بك والفرنسيين وكانت كلها شروطا تؤكد على خيانة وعمالة مراد بك ومن يتبعونه من أمراء المماليك وأخطر الشروط المؤكدة للخيانة السافرة البند الذى يقول (٦١) « اذا حصل هجوم على المنطقة التى يحتلها الجيش الفرنسى فعلى مراد بك أن يرسل إليها قوة من جنوده توازى على الأكثر نصف قواته » (هكذا !!) . علاوة على الشروط التى تحتم على مراد بك حرمان الثوار والأهالى من المؤن والمواد الغذائية المصرية واعطائها حتى على شكل هدايا للجيش الفرنسى .

كل هذه الاتصالات المكوكية بين كليبر ومراد بك وبالعكس كانت تجرى والثورة المصرية القاهرية على أشدها وكلما قاربت المفاوضات على النهاية كلما ارتفع القهر والتنكيل والانتقام الفرنسى بالشعب المصرى .

أما عن كليبر مع العثمانيين والثوار المصريين

استخدم كليبر فى فتح باب المفاوضات مع الأتراك مصطفى باشا كوسيط وهو قائد الجيش التركى فى موقعة أبى قير البرية وقد كان أسيرا لدى الفرنسيين وكان وقت ثورة القاهرة لم يزل بالأسر ولكنهم كانوا يحسنون معاملته . وتدخل مصطفى باشا كوسيط واقنع ناصف باشا القائد التركى بالكف عن القتال . ثم وسط الفرنسيون (٦٢) وفدا من العلماء لمشاورات الصلح بين الفرنسيين وقائد الأتراك على ان يخرج ناصف باشا والجنود العثمانية من القاهرة ويلحقوا باخوانهم من فلول جيش الصدر الأعظم يوسف باشا . فلما وصلت هذه المعلومات للجنود الانكشارية والأهالى تصدى الثوار ومعهم تهديد الأهالى لهذه العناصر التركية ومن على شاكلتهم ممن كانوا يتوقون لهذا الصلح وهددوهم وأهانوهم وأعادوا الاستقرار والصلابة الى صفوف المقاومة التى حاول مخطط كليبر أن يخدعهم حتى اذا هدأت المقاومة أمكنه أن يوجه انتقامه وتنكيله الى الشعب المصرى الثائر ، وللمصريين تجارب مع الفرنسيين فى الغدر الفرنسى . وبذلك وجدت الثورة المصرية نفسها بعد تخلى معظم

(٦١) نفس المصدر .

(٦٢) الرافعى جزء ٢ ص ١٦٩ .

أمراء المماليك وتعاونهم مع الفرنسيين وعلى رأسهم مراد بك وبعد تخاذل الجيوش العثمانية التي وجهت كل همها في هذه اللحظة الحرجة للسلب والنهب وجباية الأموال عنوة من العامة بحجة الصرف على المقاتلين العثمانيين . ووجد الثوار المصريون ومؤسستهم الوطنية أنفسهم في وضع وحيد يميل عليهم المقاومة لآخبر مدى وعدم التراجع مهما كانت النتائج لأنها الحل الوحيد ولا بديل له وإن المقاومة والثبات عليها هي الخطوة المنشودة نحو التحرر الكامل مهما كانت العواقب ورفضت المؤسسة الوطنية المشكلة للشعب المصري وأيدها في ذلك الشعب المصمم على استمرار المقاومة وعدم التسليم والضغط على العثمانيين حتى مستوى التهديد لمنعهم من التسليم أو الصلح مع الفرنسيين . ونجحت خطة قادة الثورة فان (٦٣) رؤساء العثمانيين ناصف باشا وعثمان باشا كتحدا الدولة لم يستطيعوا السيطرة على عساكرهم وأرسلوا الى كليبر يقولون « ان العساكر لم يرضوا بالصلح ويقولون لن نرجع عن حريمهم حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا » وبذلك أخفقت المساعي وتجددت المذابح ومارس الفرنسيون أبشع أنواع الانتقام والقتل وسفك الدماء والاحراق وتدمير المنازل والمباني بدءا من يوم ١٤ ابريل ١٨٠٠ .

الهجوم الكبير

وفي ١٤ أبريل ١٨٠٠ كان كليبر قد نجح في استقطاب مراد بك وأتباعه من بعض أمراء المماليك وضمن ولاهم ومساعداتهم العسكرية ضد الثوار كما كان قد أثر بشكل أو بآخر على القدرات القتالية للجنود العثمانية بالتفاوض مع قادتهم بالإضافة الى إعادة تنظيم وتقوية وتدعيم استعداداته العسكرية وبخاصة بعد وصول قواته التي كانت منتشرة ببلاد ونواحي الدلتا وبعد قضائها على الثورات التي تفجرت هناك ، فقد أندر كليبر العاصمة اذا لم تسلم . ولم يعبأ الثوار ببنائه وإنذاره لعدم ثقة الشعب المصري وقادة ثورته في وعود وعهود الفرنسيين وصمموا على الجهاد الى آخر مدى . واستعمل الفرنسيون (٦٤) نوعا مبتكرا من قاذفات اللهب « فعملو فتائل مغروسة في الزيت والقطران وكعكات غليظة ملوية على أعناقهم معمولة بالنفط والمياه المصنوعة المقطرة التي تشتعل ويقوى لهيبها بالماء » ولسوء الحظ للمصريين كانت الأمطار تنهمر وقتها مما ساعد على انتشار الحرائق وفي نفس الوقت ركز الفرنسيون بتوجيه الضرب بمدفيعتهم وتركيزه على الأحياء النائية والمتاريس والمباني دون تمييز لأحداث الدمار الشامل وقام الجنود الفرنسيون بأشغال

(٦٣) الرامى جزء ٢ ص ١٦٩ و ١٧٠ .

(٦٤) الحرثى جزء ٣ ص ١٠١ .

النيران في كل ما قابلوه في طريقهم ، فكانوا (٦٥) يلهبون السقائف
ضرب (أبواب) الحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة
شيئا فشيئا وبذل الثوار والعامّة أقصى همّتهم في الجهاد وفي هذا الجحيم
استمرت المفاوضات مرة أخرى بين ناصف باشا القائد التركي وبين كليبر
بتوسيط الخائن مراد بك ، وفي يوم ١٥ إبريل ١٨٠٠ (٦٦) كانت معظم
أحياء القاهرة مازالت في أيدي الثوار . وركز كليبر هجومه ضد حي
بولاق الذي استبسل في القتال ورفض التسليم وكان أشد الأحياء قتالا
ومقاومة بفضل زعيمه البشتيلي . وأخذ الفرنسيون يضربون حي بولاق
بالمدفعية بشكل مركز ومستمر وحطمت المدفعية في النهاية المتاريس
القائمة على مدخل الحي وأحدثت تفرة كبيرة تدفق منها جنود الفرنسيين
ونفذوا الى شوارع بولاق وأحرقوا النار في البيوت فاشتعلت واتسع
مداها بفضل قذائف اللهب المبتكرة (٦٧) واحترقت المنازل والمخازن
والوكائل ومحلات التجارة واحترقت بولاق ودمر الحي الكبير ومستودعاته
التي كانت عامرة بالسلع والأغذية واحترقت الدور بسكانها وأصبح معظم
السكان جثثا تحت الأنقاض فكانت مأساة مروعة أما عن النهب والسلب
والتعذيب فقد ذكر الجبرتي عن ممارسات الفرنسيين المتوحشة
« فمن لم يجدوا عنده سلاحا نهبوا متاعه وعروه من ثيابه . . وأصبح من
بقي من ضعفاء أهل بولاق وأهلها وأعيانها . . فقراء لا يملكون ما يستر
عورتهم » .

استمرار المقاومة

بعد أن خمدت المقاومة في حي بولاق وبعد الدمار والخراب الشامل
أمر كليبر بالهجوم العام المركز على جميع مواقع الثوار في باقي أحياء
القاهرة وتساعد هذا الهجوم يوم ١٨ إبريل ١٨٠٠ وتركز من جهة
الناصرية وباب بولاق والمدابغ والفجالة وكوم أبي الريش وباب الشعيرة
وأخفق الفرنسيون في احتلالها في بادئ الأمر لشدة المقاومة وأخفق
الجنرال دونزولو Donzelo في هجومه على حي المدابغ عندما اعترضه
خندق عميق يحيط بالمنازل التي يحتلها الثوار المسلحون فانسحب
واشتدت المقاومة في أحياء الأزبكية والفجالة وكوم أبي الريش وباب
الشعيرة فكان القتال سجّالا ولم تتوقف مقاومة الثوار الا بعد نفاذ
ذخائرهم وكثرة قتلهم وتدمير منازلهم وهدم متاريسهم ودفاعاتهم
وأصيب الجنرال بليار بجرح بليغ .

(٦٥) نفس المصدر السابق .

(٦٦) بونايرت في مصر كريستوفر هارولد ص ٣٧١ .

(٦٧) عبد الرحمن الرافعي جزء ٢ ص ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ .

وحشية الانتقام الفرنسي

وأصبح منظر القاهرة مزعجا يملأ القلوب الانسانية بالحزن والأسى. بعدما حل بها من التخريب والاحراق والتدمير وسفك الدماء «فتهدمت (٦٨) جميع ما هناك من الدور والمباني المظلة على البركة واحترقت جميع البيوت وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة واستولى الفرنسيون على الخانات والوكائل ونهبوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات (الهوانم) والصبيان والبنات وأما بركة الرطلي وما حولها من الدور والمتنزهات والبساتين فانهما كلها صارت تلالا وخرائب وكيمان أثرية ٠٠٠ وكانت رائحة العفونة (٦٩) تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم وزاد هذا المنظر فظاعة أن الجنود مدفوعين بفكرة النهب وكانوا ينبشون الجثث من تحت الأنقاض من الخرائب فكلما أظهروا جثة زاد هؤلاء فظاعة سوء المنظر ٠ ومن أفظع ما ارتكبه (٧٠) الفرنسيون في قسوة انهم عندما قبضوا على بطل بولاق مصطفى البشتيلي خلعوا عنه الثياب وأرغموا زمره من أعوانه تحت التهديد بالقتل على ضربه بالنابايت وهو عار حتى الموت وعلى مرأى من أتباعه وأهله ومات البطل مصطفى البشتيلي شهيدا رغم أنف الخونة والأعداء ٠

استنزاف مصر

بعد استسلام القاهرة تفاوض المشايخ مع كليبر وكان كليبر مصمما على ان « يعصر مصر كما يعصر الشربتلي الليمونة » (٧١) وذلك حسب تعبيره فاعتزم البقاء في الديار المصرية وإدارة شئونها الى ما شاء الله كمستعمرة فرنسية بعد أن كان يتعجل التفاوض على الرحيل بشرف وذلك قبل ثورة القاهرة الثانية وبعد تصوره أنه أخمد الثورة ولذلك صمم على أن يبعث الرهبة في نفوس الشعب المصري فتعمد إقامة عرض عسكري بالغ فيه في تعمد اذلال المصريين وإبراز سيادة وعلو مكانة الفرنسيين فأقام احتفالا عرض فيه قواته عرض الظافرين مبالغ في الزينة واتخذ من أمراء المماليك الخونة شبه حراس له أثناء الحفل للتدليل للشعب المصري على مدى ارتباط أمراء المماليك وهم أسياد البلاد بالاحتل الفرنسي والولاء له ٠ وبعد ذلك أمعن في امتصاص ثروات مصر والمصريين وكأنه يعصر الليمونة تماما على حد تعبير كليبر وحتى يتمكن بهذه الأموال من

(٦٨) البحري جزء ٣ ص ١٠٢ و ١٠٣ ٠

(٦٩) نفس المصدر ٠

(٧٠) من كتاب صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسي للامسيو جالان ٠

(٧١) بونايرت في مصر - كريستوفر هيرولد ص ٣٧٣ ٠

الصرف على جيشه بالكامل وفام باعصار دماء المصريين واموالهم النى منحها اياه حليفه مراد بك وفى الوليمة التى أقامها راد له (٧٢) بقصره وكانت عبارة عن أربعة آلاف رأس غنم كان مراد بك قد نهبها من الشعب بعدما صادرها وهى مرسله للشعب أثناء ثورته من درويش باشا وذلك أثناء حصار القاهرة وكان كل من الهادى والمهدى اليه يمعنون فى تجويع الشعب . ثم بدأ كليبر يجمع أعضاء الديوان وافتتح الاجتماع بتوبيخهم على موقفهم السلبي والعدائى أثناء الثورة واتهم بعضهم بزعامته للثوار وتعرض تلميحا لموقف الشيخ السادات وكاد يتهم الشيخ السادات صراحة ثم أفادهم بأنه فضل ان يستولى على ثرواتهم بدلا من الحكم باعدامهم فقال حسب تسجيل الجبرتي « فكان جزاؤكم ان نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق (٧٣) من قتلكم عن آخركم وحرى بلدكم وسبى حريمكم واولادكم » وحيث اننا أعطيناكم الأمان فلا نفتلكم بل نأخذ منكم الأموال . ودخل مباشرة فى الموضوع « فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف فرنك (أى عشرة ملايين) فرنك عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة ٠٠ الخ » ولكن المراجع الفرنسية ومنها مذكرات نابليون أجمعت على أن الغرامة كما طلبها كليبر كانت تعادل ١٢ مليون فرنك) وهكذا يكون قد فرض على المصريين غرامة قدرها اثني عشر مليون فرنك (٧٤) بينما كل ميزانية الحملة الفرنسية التى اعتمدها الحكومة الفرنسية كانت تسعة ملايين فرنك فقط . وفى نفس الاجتماع مع أعضاء الديوان أعلن عن توزيع هذه الغرامة الباهظة بأسلوب تعسفى كما يلى (٧٥) تكون منها (الغرامة) ٥٣٥٠٠٠ على الشيخ السادات و ٥٠٠٠٠ على الشيخ محمد ابن الجوهري وأخيه الشيخ فتوح ٥٠٠٠٠ والشيخ مصطفى الصاوى ٥٠٠٠٠ (٧٦) والشيخ العنانى ٢٥٠٠٠٠ ألفا » ثم أباح نهب منازل وأموال من هرب من أعضاء الديوان وبخاصة الشيخ المحروقي والسيد عمر مكرم وحسين أغا شنن ثم أباح لأعضاء الديوان جمع باقى الغرامة من الأهالى « وما بقى تدبرون رأيكم فيه وتوزعونه على أهل البلد » . ثم استبقى من المشايخ أعضاء الديوان خمسة عشر شخصا دون مأكلا وأوراحه كرهائن وذلك أمعانا فى الارهاب والاهانة فأمرهم « وتتركون عندنا منكم خمسة عشر شخصا رهينة عندنا حتى تغلقوا (تسددوا) ذلك المبلغ » . ووقفت الحراسية (الحراس) على الباب الآخر يمنعون من يخرج من الجالسبن » .

(٧٢) الجبرتي جزء ٣ ص ١٠٦ .

(٧٣) الجبرتي الجزء ٣ ص ١٠٧ .

(٧٤) ودخلت الخيل الأزهر - جلال كشك عن مورهد ص ٢٤٧ .

(٧٥) الجبرتي جزء ٣ ص ١٠٧ .

(٧٦) نفس المصدر السابق ص ١٠٧ .

أما أعضاء الديوان الذين خرجوا ولم يحتجزوا فقد « شرعوا يبيعون ما يملكون لتسديد ما عليهم من الغرامة المفروضة » أما باقى المبالغ المطلوبة فقد « وزعوها على الملتزمين وأصحاب الحرف حتى على الحواء والقرداية والمحظنين (المشخصتية أو البهلونات وما فى حكمهم) والتجار وأهل الغورية وخان الخليلي والصاغة (٧٧) والنحاسين والدلالين والقبانية وقضاة المحاكم وغيرهم من بياعى التنباك والدخان والصابون والخردجية والعطارين والشواوون (الحاتى) والجزارون والمزينون « ٠٠٠ » وعلى ملاك العقارات والدور على ان يدفعوا أجرة سنة كاملة » وأفرج الفرنسيون عن المشايخ الذين يسددون ما فرض عليهم أما الذى لم يسدد ما عليه من غرامة فكان الفرنسيون « يلزمون به جماعة من العسكر حتى يغلق (يسدد) المطلوب منه » ٠ ومن هرب من المشايخ المفروض عليه الغرامة كالعنانى « فاضافوا غرامته على غرامة الشيخ السادات » (لأن كليبر كان يضطهد الشيخ السادات لأنه اعتبره زعيم الثورة ولم يتجرأ على قتله خشية اثاره الرأى العام) ٠ فالغرامة الفادحة التى فرضها كليبر على القاهرة « أنهكت المصريين على اختلاف طبقاتهم الأغنياء والفقراء والمعدمين وقد هال سكان القاهرة فداحة تلك الغرامة فزادت مصائبهم وآلامهم مما حدث لهم من أهوال القتل والنهب والسلب وسفك الدماء والحريق والتدمير والمجاعة فخربت بيوت كانت عامرة وباع كثير متاعهم ومات كثير فى السجن وهاجر البعض فرارا من الظلم والاضطهاد » ٠ ومن أسوأ ما مارسه الفرنسيون بعد ثورة القاهرة انهم « فتكوا بأهلها وغنموا أموالها (٧٨) وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات وصرن مأسورات عندهم فزينوهن بزى نسائهم وأجروهن طريقتهن فى كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء وهذا جانب » مما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال « ٠ هذا هو الاستنزاف المفروض ٠ أما معظم جنود الحملة الفرنسية فقد قلدوا قائدهم كليبر فى النهب وثاموا هم أيضا سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم (٧٩) بالنهب والسلب لحسابهم الخاص وفرضوا الغرامات ٠

الانفجار نتيجة الضغط

اعتقد كليبر بعد تصفية ثورة القاهرة الثانية بالقسوة والبطش والتمادى فى فرض الغرامات واهانة قادة الشعب وبخاصة المشايخ وعلماء الأزهر فقد تعمد فى الانتقام من الشيخ السادات بالذات بأن بغالى فى

(٧٧) نفس المصدر ص ١٠٨ ٠

(٧٨) الجبرتي جزء ٣ ص ١٦٢ ٠

(٧٩) الجبرتي جزء ٣ ص ١٦٢ و ١٦٣ ٠

أعمال أجهزة التعسس والتجسس الفرنسية والتي أكدت له أن الشيخ السادات وبعض أعضاء الديوان من المشايخ كانوا يشكلون الجهاز السرى للمؤسسة الوطنية الثورية وخشى كليبر أن ينفذ فيهم وفي الشيخ السادات بالذات حكم الاعدام خوفا من اثارة الشعب مرة أخرى لمكانة الشيخ السادات المبهجة في نفوس العامة فتعمد ان يحطم السادات ماديا ومعنويا ففرض الغرامة الفادحة التي لايمكن سدادها وكان البديل لذلك هو الاعتقال والسجن المهين والضرب أمام العامة حتى يحقق اهتزاز صورته في نظر العامة اذا ما أدى كل ذلك الى انهياره وتذلل له فتنسقط مكانته في أعين الناس . كل هذه الممارسات في حالة مصر المحتلة مرحلة جديدة في مراحل الثورة والانفجار وهذه هي طبيعة المقاومة في حروب التحرير لأن قسوة الحاكم يقابلها دائما العنف من المحكومين .

ويمكننا ذكر اسلوب كليبر والفرنسيين في المبالغة في اضطهاد الشيخ السادات :

فقد خصه الجنرال كليبر بأكبر غرامة (٨٠) والى من المستحيل لسدبدها .

وكانت النتيجة انه تم اعتقاله « فاصعدوه الى القلعة وحبسوه في حاصل لينام على التراب ويتوسد بحجر ، وضربوه » فاضطر الى بيع متاعه وأيضا لم يمكن تسديد المبلغ « ثم قدموا ما وجدوه من المصاغ والفضيات والفراوى والملابس وغير ذلك بابخس الأثمان » وأيضا لم يوف كل ذلك جزء من الغرامة المفروضة « ثم نقلوه الى بيت قائمقام ماشيا وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا في الصباح ومثلها في الليل وطلبوا من زوجته وابنه الحضور وحبسوا زوجته معه فكانوا يضربونه بحضرتها وهي تبكى وتصرخ » .

ويقول نابليون في مذكراته عند الكلام عن اخماد ثورة القاهرة الثانية (٨١) « ان السادات قد خصه كليبر بغرامة فادحة ، وكان معروفا عنه كرهه للفرنسيين على انهم أسرفوا في اهانتته لدرجة انهم نسوا مقامه المستمد من نسبه ومولده . . . فأمر كليبر بضربه بالعصا في السجن وهكذا ضرب السادات وعم السخط رجال الشرع والعلماء والشعب وكانت معاملة كليبر له على النقيض من معاملة نابليون للسادات عقب ثورة القاهرة الأولى ١٧٩٨ فقد قابله بونابرت بالعفو والتسامح مع قيام البيئات عليه بأنه زعيم الثورة » (٨٢) .

(٨٠) الجبرتي جزء ٣ ص ١٠٨ و ١٠٩ و ١١٠ .

(٨١) الراقى جزء ٢ ص ١٨١ و ١٨٢ .

(٨٢) الراقى جزء ٢ ص ١٨١ و ١٨٢ .

واستمر الشيخ السادات معتقلا في القلعة ولم يفرج عنه الا في ١٩ يونيو ١٨٠٠ بعد مصرع كليبر على يد سليمان الحلبي وتولى مينو القيادة •

الانتقام القومي

نتيجة القسوة والامعان في اهانة الشيخ السادات كانت هناك عناصر شابه عربية تدبر بمعرفة المؤسسة الوطنية السرية الانتقام من كليبر نفسه فقد جاء في مذكرات نابليون التي أملاها وهو في منفاه على الجنرال برتران « ان الشيخ السادات هذا هو الذي أمر الجنرال كليبر بتعذيبه وضربه واهانتته وكان هذا من أهم الأسباب التي أدت الى مقتل كليبر » •

وفي هذه المرة قام بالعمل (٨٣) الايجابي (٨٤) شاب طالب علم مسلم من حلب عمره أربع وعشرون سنة اسمه سليمان الحلبي وأبوه تاجر من حلب بالشام غادر بلده في سوريا وحضر الى القاهرة مارا ببیت المقدس والخليل وغزة وهدفه قتل القائد الأجنبي الظالم كليبر الذي ظلم واستبد وحرق وذبح اخوانه المسلمين بمصر وأمعن في اهانة الزعيم الروحي للثورة في مصر الشيخ السادات هذه النورة التي شارك فيها مجاهدون من المغرب العربي في البحيرة على يد المجاهد العربي مولاي محمد (المهدي) وفي مرحلة طويلة في المقاومة في الصعيد شارك المجاهدون المكيون في المقاومة المستمرة وهاهو شاب سوري تلقى العلم ثلاث سنوات في الأزهر وأرتوى من منهله أصول الدين الذي يحض على الجهاد على يد أساتذة أفاضل بلغ مدى ما ناله أكبرهم علما ومقاما ووطنية الشيخ السادات من الظلم والضرب والاهانة فحضر للانتقام لـأخوانه المصريين ولأساتذته الأزهريين ولا شك ان حركة سليمان الحلبي ما هي الا ثورة قومية يضيف الى عناصر قوميتها هذا الحادث الشجاع من هذا الشاب العربي • ويقول نابليون أيضا في مذكراته (٨٥) « ان لاضطهاد السادات دخلا في مقتل كليبر لأنه لا يمكن أن يجهل علماء الأزهر ما كان ينويه سليمان الحلبي من اغتيال كليبر فقد قضى بالابن هر ثلاثين يوما مصمما على القتل ولكنهم تجاهلوا نية القاتل وتجاهلوا كل ما له علاقة به لأنهم كانوا يودون الانتقام من كليبر » •

(٨٣) نفس المصدر من ص ١٨٥ الى ص ١٩١ •

(٨٤) الشرق الأوسط والعرب للأستاذ الفيت •

(٨٥) الرافعي جزء ٢ ص ١٨٢ •

مقتل كليبر والمحاكمة

حضر المجاهد سليمان الحلبي وسسنه ٢٤ سنة الى القاهرة في ١٤ مايو ١٨٠٠ ونزل عند وصوله بمنزل مدرسة السابق مصطفى أفندي البورصلي (نسبه الى مدينة بورصة بتركيا) وهو شيخ في الثمانين من عمره ولم يحدثه سليمان الحلبي عن سبب حضوره ويات عنده ليلة واحدة ثم انتقل للإقامة بالجامع الأزهر ومكث بالأزهر نحو ثلاثين يوما حتى تاريخ اغتياله لكليبر واتصل أثناء اقامته بالأزهر بأربعة من الطلبة العرب وهم محمد الغزى وأحمد الوالى وعبد الله الغزى وعبد القادر الغزى وفي يوم ١٤ يونيو ١٨٠٠ تربص لكليبر ومرافقه المهندس مسيو بروتان Protain وأثناء سيرهما في ممر الحديقة بين دار القيادة العامة ومنزل الجنرال ديماس ظهر سليمان الحلبي فجأة من مكنه ولم يكذب يلتفت اليه كليبر حتى عاجله (٨٦) سليمان بطعنة خنجر مميته أصابته في مقتل وحاول مرافق كليبر بروتان الإمساك به فطعنه هو الآخر فسقط على الأرض جريحا ومغشيا عليه وهرب المجاهد سليمان الحلبي وأخيرا أمكن القبض عليه داخل أشجار الحديقة ومعه آلة القتل وهي خنجر ووجدت آثار الدماء على ملابسه وانتشر الخبر بسرعة بالقاهرة وأجرى التحقيق بأسرع ما يمكن وكان المحققون يحاولون الصاق تهمة التحريض زورا بمشايع الأزهر وخاصة بشيخ الأزهر الشيخ الشرقاوى انتقاما من مشايخ الأزهر لشكهم بأن المشايخ وعلى رأسهم الشيخ الشرقاوى هم المحرضون على هذا القتل ولكن أثناء التحقيق مع الخمسة الذين اعترف المجاهد سليمان الحلبي بأنه اتصل بهم (فقد تمكن أحدهم وهو عبد القادر الغزى من الهرب) وقبض على الباقي واعترفوا تحت قسوة الضرب والتعذيب بأن سليمان الحلبي أبلغهم بأنه حضر الى مصر ناويا على الجهاد في سبيل الله بقتل ظالم أمته الجنرال كليبر ولكنهم لم يبلغوا السلطات بذلك ونفوا أى صلة بين القاتل وشيخ الجامع الشيخ عبد الله الشرقاوى أو أى صلة بينهم وبين الشيخ الشرقاوى ذلك تحت الحاح المحقق للايقاع بالشيخ الشرقاوى . أما المدرس مصطفى أفندي البورصلي فقد ثبت من التحقيق ان سليمان الحلبي لم يذكر له أى شيء عن مهمته . وكان الحكم هو احراق يد سليمان الحلبي اليمنى ثم اعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها الطيور الجارحة واعداد الأربعة الشهود (الذى كان أحدهم قد هرب) وذلك بقطع رؤوسهم واحراق جثثهم وبراءة المعلم مصطفى البورصلي . ونفذ فيهم الحكم عقب دفن جثة الجنرال كليبر يوم ١٧ يونيو ١٨٠٠ على تل أبو الريش . ورغم ان المجاهد سليمان الحلبي

(٨٦) مد سليمان يده الى كليبر كأنه يطلب احسانا فقال له كليبر « مايفش » فامسكه سليمان بيده اليسرى ثم طعنه عدة طعنات .

فد ذكر أثناء التحقيق ان الذى حرضه على القتل هو ضابط تركى اسمه أحمد أغا انتقاما لهزيمة الجيش التركى على يد كليبر فى عين شمس وقد صدق المحقق هذا السبب لدرجة اصداره منشور بأن المحرض على قتل الجنرال كليبر هم رؤساء الجيش العثمانى - الا أن ملايسات أقوال المجاهد سليمان الحلبي وصلابته رغم قسوة الضرب بعدم الاعتراف على أى من شيوخ الأزهر (أساتذته السابقين) وكذلك من واقع أقوال الشهود الثلاثة الآخرين واصرارهم رغم التعذيب على عدم التعرف أو الصاق التهمة الى أى من مشايخ الأزهر وبالذات الشيخ عبد الله الشرقاوى (كما كان يصبو المحقق) الا أنهم فى شجاعة فائقة أعلنوا انهم يفضلون الموت على أن يلصقوا التهم زورا على الأبرياء ، كل هذا يجعل أى مواطن عربى وهو يتأمل ملايسات هذا الحادث وبعد اعدام هؤلاء الشهداء محتفظين بسر هذا الدافع والتحريض عليه باعتباره جهادا واجبا للانتقام القومى من الغزاة الظلمة وبخاصة وبعد ان ثبت بالذات لقادة جيوش الاحتلال الفرنسى انه منذ دخول الجيش الفرنسى الى القاهرة واندلاع المقاومة فى جميع أنحاء مصر من الاسكندرية الى أسوان انه كان يدير تنظيم هذه المقاومة تنظيم سرى لمؤسسة وطنية وصلت اتصالاتها الى الحجاز والى المغرب والى الشام وانه كان هناك خلية لا يستهان بها من عدد من مشايخ الأزهر وهى التى كانت تنظم عملية هذه المقاومة وأعدم الفرنسيون الكثير منهم بعد ثوزة القاهرة الأولى وعلى رأسهم رئيس رواق العميان بالأزهر الشيخ الجوسقى وزملاؤه بأن أطلق عليهم الرصاص والقيت جثثهم فى النيل - كما تم تعذيب مشايخ الأزهر وعلى رأسهم الشيخ السادات بأسلوب يفوق طاقة البشر وكذلك استشهاد سليمان الحلبي سواء بتحريض أو من غير تدبير هو انتقام قومى ثورى من ممثل الظلم فى مصر رأس المحتل الأجنبى .

ما بعد كليبر

تولى الجنرال مينو القيادة

عقب مقتل كليبر كان مينو أقدم ضابط ولكن لم تكن له كفاءة عسكرية أو سياسية وكان هو يعلم أن القواد الفرنسيين لا يرضون به كقائد ولذلك جاء أمره العسكرى بتنصيب نفسه قائدا عاما مشيرا الى انه بصفة مؤقتة وذلك يوم ١٥ أكتوبر ١٨٠٠ .

شخصية مينو (٨٧)

كان مينو من عائلة عريقة وانتظم في سلك الجندية قبل الثورة الفرنسية وعندما اندلعت الثورة أعلن ايمانه بها وانتخب عام ١٧٨٩ عضوا في الجمعية العمومية وانضم الى نواب الشعب وتنازل على رتبة (بارون) وبعد حل الجمعية العمومية عاد الى الجندية وكلف بقمع الخارجين على الجمعية العمومية وفشل فاستبدلوه بنابليون بوناپرت الذي أمكنه بكفاءته وعبقريته من قمع هذه الفتنة ومن يومها التصق مينو بنابليون وتقرّب اليه بالنفاق لاعتقاده ان نابليون سيكون الحصان الرابع في مستقبل فرنسا .

جاء مينو مع نابليون ولم يسند اليه نابليون منصبا قتاليا ولكنه عينه حاكما على رشيد وامعانا في نفاق مينو حتى مع نفسه فقد اعتنق الاسلام ادعاء ونزوح من سيّدة مسلمة (السيدة زبيدة كريمة السيد محمد البواب من أميان رشيد) وذلك في ٢ مارس ١٧٩٩ ورزق منها بولد سماه (سليمان مراد جاك مينو) وكان يرمى من وراء هذه التمثيلية التظاهر بالتقرب من المصريين ومما يدل على أنها كانت تمثيلية وادعاء أنه يعد ذلك لم يراع أى حقوق للزوجة واساء معاملتها بعد أن رحل من مصر فهجرتها تماما وكان مينو من غلاة الاستعماريين الفرنسيين ويؤمن بأن مصر يجب أن تكون مستعمرة فرنسية ، وتصرف طوال أيام عمله بمصر على هذا الأساس وسار على منوال سلفه كليبر في امتصاص دماء الشعب المصرى بفرض الغرامات والضرائب وجمع الاتاوات واهانة المصريين بل وبأسلوب مبالغ فيه . ومن الغريب ان شخصا بهذه الصفات يعيد تشكيل الديوان بمجرد أن تولى القيادة وبأسلوب فيه كثير من الملامح الديمقراطية واحترام سيادة الشعب .

اعادة تشكيل الديوان

أعاد مينو تشكيل الديوان (الذى كان فى حكم الملغى) وذلك فى أكتوبر ١٨٠٠ وانتخب الشيخ الشرقاوى رئيسا من التسعة أعضاء وتوسع مينو فى اختصاصات الديوان .

- ١ - فجعله بمثابة محكمة استئناف لها حق نقض الأحكام .
- ٢ - وجعله مجلسا استشاريا للحكومة للسهر على تحقيق العدالة .
- ٣ - النظر بالمواجهة بين الشاكين والمشكل منهم فى شكاوى العامة .

(٨٧) تاريخ الحركة القومية جزء ٢ ص ١٩٩ لعبد الرحمن الرافعى ثم ص ٢٠٠ و ٢٠١ الى ٢٠٤ .

- ٤ - يختص بترشيح وانتخاب القضاة لمناصبهم وطلب عزلهم .
وفي عهد مينو كان الديوان الى حد بعيد بمثابة نواة لتنظيم تشريعي يحقق جانبا من التعبير عما يشعر به الشعب .

الأحداث السياسية أيام مينو

أعدت تركيا وانجلترا حملة مشتركة لمحاربة فرنسا واجلائها عن مصر وكانت الخطة .

- (أ) أن يزحف الجيش العثماني برا عن طريق العريش .
(ب) في نفس الوقت ينزل الجيش الانجليزي التركي في أبى قير .
(ج) ينزل جيش بريطاني بالسويس قادما من الهند محمولا على الاسطول البريطاني وبذلك يتم تطويق الجيش الفرنسى في مصر .
● وصلت الحملة الانجليزية العثمانية الى مصر أولا في أبى قير بدءا من أول مارس ١٨٠١ وانتصرت القوات العثمانية والبريطانية على القوات الفرنسية لضعف قيادة مينو وعدم أخذه برأى قادته الآخرين واضطر الجيش الفرنسى للتقهقر وتلكا الجيش الانجليزى في تقدمه نحو القاهرة وتباطأ لمدة ٤٠ يوما (أربعين يوما) .

● ثم انهزم الفرنسيون في معركة كانوب في ٢١ مارس ١٨٠١ وهى موقع بين الاسكندرية وأبى قير .

- واحتلت القوات التركية الانجليزية رشيد في ابريل ١٨٠١ .
● ثم انهزمت القوات الفرنسية في الرحمانية في ٦ مايو ١٨٠١ .
● وعلى أثر ذلك تراجعت القوات الفرنسية الى القاهرة وانقطعت المواصلات بين مصر والاسكندرية وساءت حالة جنود الجيش الفرنسى واشتدت المجاعة في الاسكندرية لانقطاع مواصلاتها بالداخل .

● وزادت البلبلة في وسط العامة بالقاهرة وتمادت السلطات الفرنسية في القاهرة في اعتقال قادة الشعب مخافة معاونتهم الغزاة الأتراك والانجليز باثارة القلاقل .

● واصل العثمانيون والانجليز تقدمهم على شاطئ النيل قاصدين القاهرة .

● وفي نفس الوقت تقدم الجيش التركى القادم برا عن طريق العريش دون مقاومة من القوات الفرنسية .

● وتخرج موقف الفرنسيين عامة وبخاصة في القاهرة التي تجمعت معظم قواتهم فيها وزاد من تحرج موقفهم موت حليفهم مراد بك فجأة بالطاعون في ١٨ ابريل ١٨٠١ وكانوا يعتمدون كثيرا على مساعداته طبقا للتحالف .

● وخلف مراد بك الأمير عثمان الطنبورجى الذى قلده الفرنسيون امارة الصعيد ولكنه سرعان ما انقلب عليهم بانباعه الاسلوب المملوكى فى التقلب حسب المنفعة وذلك عندما شعر برجحان كفة العثمانيين والانجليز وأخذ يعيد اتصالاته وولائه الى ابراهيم بك الذى عاد مع جيش الصدر الأعظم التركى .

فتح باب التفاوض :

● ازاء كل هذه المصاعب للقوات الفرنسية وشعورهم بضيق الحلقات حولهم فقد أخذ الجنرال بليار قائد قوات القاهرة المبادرة وقبل استئصال الزحف العثمانى الانجليزى وقيامهما بالهجوم العام على القاهرة فأرسل مندوبه الى المعسكر الانجليزى فى ٢٢ يونيو ١٨٠١ وطلب وقف القتال وفتح باب المفاوضات للجلاء عن القاهرة ووقعت الاتفاقية فى ٢٧ يونيو ١٨٠١ .

● وبموجب هذه الاتفاقية تم جلاء القوات الفرنسية من القاهرة متجهة الى الاسكندرية بكامل أسلحتهم ومعداتهم وأمتعتهم وذخائرتهم وكذلك أعضاء المجمع العلمى وأوراقه وذلك عن طريق فرع رشيد وعلى نفقة الأتراك والانجليز .

● وسمحت الاتفاقية للمصريين الراغبين فى الرحيل مع الجيش الفرنسى ان يرحلوا معه وبذلك تمكن معظم الخونة المصريين المتعاونين مع القوات الفرنسية من الهروب دون انتقام الشعب المصرى منهم .

● وفى يوم ٣١ أغسطس ١٨٠١ أبرمت اتفاقية الجلاء الكامل ووقعها كل من الجنرال هتشينسون عن الانجليز وحسن باشا القبطان عن العثمانيين والجنرال مينو عن الفرنسيين .

● ورحلت القوات الفرنسية على سفن الانجليز والأتراك وكان آخر فوج رحل منهم يوم ١٨ أكتوبر ١٨٠١ .

خاتمة الحملة الفرنسية (ومرحلة التغيير فى مصر الثائرة)

وبذلك حققت مصر أهداف ثورتها الوطنية سواء التى حدثت بالقاهرة أو بجميع نواحي مصر من الاسكندرية ودمياط شمالا الى أسوان جنوبا بجانب العوامل الخارجية الأخرى من التدخل العثمانى الانجليزى . حققت ثورة مصر أهداف هؤلاء الثوار الشجعان وأهداف المؤسسة الوطنية.

المصرية والمؤسسة القومية العربية متمثلة بالمجاهدين المكيين ومجاهدى الصحراء الغربية وفتى حلب (سليمان الحلبي) وزملائه العرب الثلاثة الشهداء بفضل حكمة وتنظيم الزعماء الروحانيين مشايخ الأزهر والذى نفذ فى كثير منهم حكم الاعدام لكونهم قواد المقاومة برميهم بالرصاص وقذفهم فى النيل أو بضرهم بالنابيت حتى الموت مثل الشهيد مصطفى البشتيلى •

وبرحيل الفرنسيين عن مصر بفضل ثورة شعبها بعثت مصر من جديد وعلى رأس شعبها مؤسسته الوطنية الصلبة فقد صمد الشعب ومؤسسته الوطنية الدينية طول مدة الاحتلال الفرنسى وقاوم بشدة وجوده ولم تغفل عينه ثلاث سنوات وأزيد قليلا ولم تخمد المقاومة والثورة التى اندلعت ليس فى القاهرة وحدها ولكن فى جميع أنحاء البلاد وحفقت هذه الثورة هدفها الأساسى وهو جلاء المحتلين الفرنسيين عن أرض مصر بعد مدة تعتبر بمقاييس الثورات فى العالم مدة قياسية • وخرج الشعب المصرى ومؤسسته الوطنية من هذه الأعمال الثورية أصلب عودا وأكثر خبرة وكان نابليون قائد الجيوش المحتلة حريصا على ان يخطب ود هذا الشعب وقادته - كما اعتاد وتعود الشعب المصرى على مقاومة الاضطهاد والظلم وسنرى ذلك واضحا فى مقاومته بعد جلاء الفرنسيين فى تعامله مع المماليك بعد عودة سلطانهم ومع الأتراك بعد عودة ولايتهم ثم مع الانجليز الذين حاولوا انتهاز الفرصة لاحتلال مصر • وكان أيضا ما اكتسبه الشعب المصرى نتيجة هذه المقاومة الناجحة اقتناعه بأهمية العلم بالنسبة لأى أمه وهو ما لمسناه ووعاه بمخالطة المحتل والتعرف على مدى اهتمامه بالعلوم وبخاصة ما استحضره من علماء وأجهزة علمية وتكوين المجلس العلمى واعتبر الشعب المصرى ان العلم والمعرفة هى أساس الحياة والحرية فكان حريصا على التزود بهما والمطالبة بهما - كما أثبت الشعب من طول المقاومة أنه لا يمل الجهاد - كما أظهرت المحن ان الشعب المصرى لا يتخدد أبدا ممن يحاولون خداعه فكان موقفه من المماليك الخونة ومواطنيه الخونة وحتى بعض المستضعفين من قاداته فسرعان ما تخلى عنهم بمجرد احساسه ان فى الأمر خيانة فسرعان ما كان ينصرف عنهم وبسرعة مذهلة والأمثلة كثيرة منها مواقف مراد بك عندما أراد الخيانة وتحالف مع الفرنسيين وكذلك مواقف الشيخ المهدي عندما حاول هو أيضا اقناع الثوار بالتسليم فى ثورة القاهرة الثانية •

كذلك برزت الشخصية المصرية المتميزة تماما والتى أصبحت تتطلع الى الاستقلال التام بعيدا عن سيطرة المماليك أو الأتراك أو الانجليز فيما بعد بعد أن ثبت للشعب انهم عديمو النفع للبلاد وللشعب بل بالعكس ثبت أن وجودهم لا ينتج عنه سوى ارهاق الشعب وتخلفه وافقاره •

مواجهة النعيب المصرى للقوى المستغلة الجديدة

بعد رحيل الفرنسيين ازدادت ثقة الشعب المصرى فى نفسه وفى قاداته وخاصة بعد ان عاد رئيس المؤسسة الوطنية المصرية الزعيم البطل النقيب عمر مكرم من هجرته وتدعمت بعودته صلابة مقاومة الشعب المصرى وانتعشت المؤسسة الوطنية المصرية واستندت للوقوف فى وجه الظالم فى شتى صوره وقد كانت المؤسسة الوطنية ومن خلفها الشعب المجاهد الذى صقلته آلام ثورتى القاهرة الأولى والثانية وثورات الأقاليم كما صقلته ظروف تمرسه على مراجعة السلطات الحاكمة وخاصة فى معاصرة آخر ديوان (أو برلمان) أيام حكم مينو وأصبح للشعب حق الشكوى أمام هيئه الديوان وتولد بذلك حق الرقابة الشعبية على السلطات المختلفة وحق التعبير عن المعاناة الشعبية ، لذلك وقف الشعب المصرى وعلى رأسه مؤسسته الوطنية مراقبين لتصرفات السلطات المتحكمة الجديدة. وهى الانجليز والأتراك وأمراء المماليك والذين عادوا للتحكم بعد جلاء الغزو الفرنسى عن البلاد - وثار الشعب فى وجه هذه السلطات أو القوى الجديدة ولم يستكن الشعب لهم وكانت هذه السلطات هى :

(١) الانجليز احتلت القوات الانجليزية التى اشتركت فى الغزو مع الجيش العثمانى مواقع مهمة على شواطئ مصر (٨٨) فى البحر الأحمر والبحر الأبيض لتضمن السيادة على البحار وعلى مصر . وكانت قوات انجلترا بقيادة (هتشنسون) ومع ان المعاهدة التى عقدت بين تركيا وبريطانيا كانت تقضى بطرد الفرنسيين فقط من مصر الا أنه كان بها شرط يحقق للانجليز التلاعب وحق استمرار بقاء قواتهم بمصر لأى مدة بمقتضى شرط ملحق بالمعاهدة ينص على أن « الجيش الانجليزى لا يجلو عن مصر الا بعد أن يستتب الأمن فى ربوعها » . وبموجب هذا الشرط طال تواجد القوات الانجليزية وبعد إبرام صلح (اميان) Amiens فى ٢٧ مارس ١٨٠٢ بين فرنسا وانجلترا وهولندا وأسبانيا كان من شروطه ضرورة جلاء الانجليز عن مصر . أخذ بوناپرت على العمل على إجلائهم وأرسل مندوبه الكولونيل (سباستيانى) ليتعرف على نيات الانجليز وقابله المصريون وقادتهم كمبعوث فرنسى بالاهتمام وفى شبه مظاهره ودية فيها معنى تأييد الشعب المصرى لفكرة ضرورة انسحاب الانجليز من أرضهم وساعد على ذلك أيضا موقف السلطات التركية فى مصر والتى كانت فى نفس الوقت تبارك التخلص من الانجليز كضيف ثقيل ينافسهم فى سلطانهم . وأخذ الجانب البريطانى يلعب بخبث وذلك بتحريض المماتيك بوعدهم بالانفراد بالحكم . ولكن زيارة هذا المبعوث الفرنسى أحدثت رأى عام شعبى مصرى وبعد عودته قدم المبعوث تقريره الى بوناپرت وبادر

يونابرت بمطالبة انجلترا بالجلء عن مصر مسلما بالرأى العام المصرى
وبالفعل تم جلء الانجليز عن مصر فى ديسمبر ١٨٠٢ .

(ب) الممالك وثورة الشعب (مارس ١٨٠٤) .

بعد أن تخلص عثمان البرديسى من زميله الالفى وكلاهما كان من
أتباع مراد بك تولى البرديسى اماره البلاد وأعاد مسيرة أمراء الممالك
ومشايع البلد فى نهب الشعب بكل السبل وفى الوقت الذى عم القحط
بالبلاد نتيجة نقص مياه النيل فى أغسطس ١٨٠٣ وندرة المحاصيل
وارتفاع الأسعار وتفشى الغلاء والفساد الادارى وتحت ضغط مطالبه الجنود
الأتراك براوتهم بتحريض من محمد على لاجراج أمير البلاد عثمان البرديسى .

مراحل الثورة ضد المماليك

أولا : مرحلة استغلال الأقلية للأغلبية

ازاء مطالب الجنود الأتراك برواتبها وخلو الخزانة وحالة الكساد فرضه عثمان البرديسى ضرائب جديدة فى مارس ١٨٠٤ على جميع الأهالى وفرضها على العقارات والبيوت على شكل أجرة سنة دفعة واحدة على الملاك والمستأجرين وكلف عمال الحكومة تحت حماية جنود المماليك بجمع هذه الأموال بأسلوب استبدادى ظالم ودون رحمة رغم ارتفاع الأسعار ونقص الخبز فى الأسواق وحل الضيق بالفقراء وأواسط الناس مع استمرار النهب والسلب والاعتداء من الجنود الأتراك والمماليك .

ثانيا : مرحلة الوعى الشعبى بالظلم

فبدأ الناس يتذمرون وامتنع كثير من الناس عن دفع المطلوب منهم من ضرائب لعجزهم عن السداد واستنكارا لهذا الظلم والتحكم ، ف وقعت الاشتباكات بين عمال الحكومة والأهالى « فاحتشدوا يوم ٢٥ ذى القعدة ١٢١٨ هـ) أواخر مارس ١٨٠٤ واشتد سخطهم وعلا صياحهم وامتنعوا عن دفع الضرائب وخرج الناس من بيوتهم (٨٩) يضجون ويصخبون واحتشدوا فى الشوارع حاملين الرايات والدفوف والطبول وأخذوا يستمطرون اللعنات على الحكام (المماليك) ٠٠٠ فأخذت جموعهم تنادى -

(٨٩) الجبرتى جزء ٣ ص ٢٨٣ .

(ايش تاخذ يا برديسى من تفليسى) وأغلق التجار وكالاتهم
ودكاكينهم واتجهت جموع المتنمرين الى الأزهر » .

ثالثا : دور المؤسسة الوطنية

وفى الأزهر قابلت جموع الشعب المتذمر المشايخ والزعيم الشعبى
السيد عمر مكرم وناشدوهم المعونة وتمثيلهم لدى الحاكم للشفاعة فى
رفع الظلم بإلغاء الضرائب ووقع اعتداء عساكر المماليك عليهم . وقام
المشايخ زعماء الشعب بمواجهة أمراء المماليك وراوغ البرديسى بعد اتخاذ
بعض الاجراءات المظهرية لتهدئة نفوس الشعب ثم سرعان ما عاد وتمادى
فى أسلوب التعسف فى جمع هذه الضرائب الظالمة .

(رابعا) العمل الإيجابي (الثورة)

لم ينطل خداع البرديسى على الشعب المتذمر وقادته فقد (٩٠)
« انتشر عمال الحكومة ومعهم طوائف من جنود المماليك فى أحياء القاهرة
وشوارعها يطالبون الملاك والتجار بدفع حصصهم فى الضريبة فوراً وبدأت
المطالبة هادئة ومع رفض الأهالى للدفع وامعان الجنود فى التحرش
فما لبثت أن ارتفعت الاحتجاجات واشتدت المناقشة وعلا الصخب واحتشد
الناس ثم لم يلبث الشعب أن تجمع بأعداد غفيرة فى الشوارع واتجهوا الى
المساجد » واضطرب عثمان البرديسى وزاد فى اضطرابه وذعره انضمام
الجنود الأرناؤود للشوار بتناوير (*) من محمد على الذى أسرع بدعاء وامتنص
غضب الأهالى الموزع فى نفس الوقت ضد مساوىء الجنود الأرناؤود ونزل
محمد على الى ساحة الثوار وجعل العسكر الأرناؤود تنضم للثوار « وصاروا
يقولون (٩١) لهم انا معكم سواء وأنتم الرعية ونحن العسكر ولم نرض
بهذه الضريبة وروايتنا على الميرى لا عليكم - وأنتم ناس فقراء » ونادى
رجال محمد على بهذا الكلام فى الأسواق ففرج الناس وأيدوا العساكر

(٩٠) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الرافعى جزء ٢ ص ٣٢٤ عن « كتاب مصر الحديثة ».

تأليف مسير (بولابل) والذى عاصر تلك الأحداث .

(*) حضر محمد على الى مصر مع قوة جندما حاكم قولة وعلى رأسها تجلة على أقاليم
يماونه محمد على وكانوا ضمن قوة تركية حضرت الى ساحل أبو قير على ظهر البواخر
التركية بقيادة حسين قبطان باشا لمحاربة الفرنسيين فى مصر بالاشتراك مع جيش بريطانيا
وبتحريرها وترقى فى مصر الى رتبة البكباشى ثم اللواء وظهرت مواهبه السياسية وذكاؤه
بانحيازته للشعب المصرى وزعمائه بأسلوب سياسى جديد على الحكم التركى وحقق بهذا
الأسلوب أطماعه بالوصول الى قمة السلطة فى مصر بتأييد وتقويض الشعب المصرى وزعمائه
له فى مواجهة القوة المتصارعة على السلطة (تاريخ الحركة القومية جزء ٢ للأستاذ الرافعى
ص ٢٨٦ الى ص ٢٩٠) .

(٩١) الجبرتى ص ٢٨٣ جزء ٣ .

وجعلوهم ينضمون اليهم » وكانت هذه الفعلة (٩٢) من جملة الدسائس الشيطانية من محمد على « وسرعان ما ارتفعت حماسة الجماهير وتركز غضبهم على جباة الضرائب لتشددهم مع الأهالي - كان كل هذا التصرف هو رد الفعل النورى الشعبى الذى اكتسبوه من سابق خبرتهم من ثورتهم على الفهر أثناء الحملة الفرنسية وكذلك كان بفضل الدور القيادى الثورى لمشايخهم وقادتهم أعضاء المؤسسة الوطنية وسرعان ما تصرف محمد على بخبثه وذكاائه الفطرى فاغتتم الفرصة لخدمة برنامجيه واستفاد من هذا الموقف المتأزم بين الشعب والماليك فانضم الى المشايخ زعماء الشعب واختلط بالعامية ووعد ببذل جهوده للتدخل ولو بالقوة لرفع هذه الضريبة . وفى نفس الوقت بعد أن ظهر للماليك مدى خطورة قضية العامة وثورتهم فقد لجؤوا هم كذلك الى وساطة المشايخ زعماء الشعب (المؤسسة الوطنية) وهنا كانت اللحظة التى ظهر فيها مدى قوة الشعب متمثلة فى زعمائه المشايخ علماء الأزهر وبخاصة عندما كانت الأطراف المعادية للشعب تتودد اليهم عند اللزوم .

(خامسا) تحقيق أهداف الثورة

ونادى المشايخ زعماء الشعب بقرارهم الثورى « بإبطال الضريبة ورفعها » أما البرديسى « فقد أظهر الغيظ وخرج من بيته مغضبا الى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ٠٠٠٠ لأنهم لم يمتثلوا لأوامره » ونسى البرديسى والماليك أن روحا جديدة قد دبت فى نفوس الشعب المصرى الذى أخذ يتطلع للحرية والكرامة الانسانية واستعد الماليك للانتقام من ثورة الشعب - وانتهم محمد على الفرصة معتمدا على غضبة الشعب وثورته وتأييد المشايخ فجمع جنوده وهاجم الماليك وحاصر منازلهم وأسقط فى أيدي الماليك ووجدوا أنفسهم محصورين بين قوتين ثورة الأهالي من جهة وجنود محمد على من جهة أخرى وفروا من القاهرة بعد أن قتل من الممالك الكثيرين وفر البرديسى وإبراهيم بك . ثم فر جنود الماليك المتحصنين فى قلعة الجبل بعد أن علموا بفرار أمرائهم (٩٣) وغلب عليهم (الماليك) الخوف والحرص على الحياة والجبن وخابت فيهم الظنون ، وذهبت (٩٤) نفختهم فى الفارغ ، وجازاهم الله ببغيهم وظلمهم وغرورهم ، ونزل بهم منازل ، ولا يحق المكر السىء الا بأهله ولكنهم خرجوا من القاهرة على أسوأ حال وذهبوا الى (٩٥) الوجه القبلى ينهبون من القرى

(٩٢) نفس المصدر السابق .

(٩٣) الجبرتي جزء ٣ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٩٤) عبد الرحمن الرافعى جزء ٢ ص ٣٢٦

(٩٥) نفس المصدر السابق .

ويفرضون عليها الغرامات والاتاوات - وانتفض الشعب في رشيد ودمياط؛
وسائر العواصم على الحكام والماليك من سناجق وكشافين وأتابك فهربوا هم
الآخرين الى الصعيد ، ودالت دولتهم وانقضى حكمهم من البلاد ولم تقم لهم
بعد ذلك قائمة وأبطلت الضريبة . كل ذلك بفضل ثورة الشعب المصرى الذى
أخذ يثبت وجوده .

(ج) الأتراك ٠٠ و ثورة الشعب عليهم (٩ يوليو ١٨٠٤) :

بعد تمام جلاء الفرنسيين عن مصر فى ١٨ أكتوبر ١٨٠١ كان الأتراك
هم مركز القوة النالثة المتبقية فى مصر بعد الانجليز والماليك - ورحل
الانجليز عن مصر فى ديسمبر ١٨٠٢ بموجب اتفاقه صلح امبان
Amien ٢٧ مارس ١٨٠٢ التى تمسك بوناپرت بضرورة تنفيذها
وكان للظاهرة الشعبية التى قابل بها الشعب المصرى وقادته مبعوث نابليون
المسيو سباستيان وفيها الكثير من معنى السخط على بقاء الانجليز بمصر .
كان لكل ذلك الفضل فى رحيل الانجليز - ثم تبع ذلك ثورة الشعب
المصرى وعلى رأسه مؤسسته الوطنية (مشايخ الأزهر بقيادة زعيم الثورات
المصرية الحديثة دون منازع السيد عمر مكرم) ضد سلطات الماليك
وتسلطهم وعودة رذائلهم وأمكن لثورة الشعب هذه أن تقضى على آخر مظهر
من مظاهر حكمهم ممثلا فى فرار شيخ البلد (عثمان البرديسى) وترك هذه
الوظيفة شاعرة من وقتها (رئيس الوزراء) وكذلك القضاء على سناجقة
وكاشفيه وهم طبقة المحافظين ووكلاء المحافظات . وحققت هذه الثورة
أهدافها بعد التخلص من سيطرة الماليك فى مارس ١٨٠٤ وبذلك تبقى
مركز القوة الثالث وهم الأتراك ممثلين فى مركز الوالى التركى ولأجل
التسلسل لفهم هذه الثورة الشعبية المصرية ضد الحملة الفرنسية حيث
وضعت هذه الثورة أساس حقوق الانسسان المصرى قبل مدة كبيرة من
مناداة العالم رسميا بحقوق الانسان كما أنها وضعت أول تشريع مدنى
مصرى ديمقراطى يؤكد على حق الشعب المصرى فى مراقبة حكامه كما أكدت
على حق ممثلى الشعب فى المشاركة فى الحكم لذلك وجدت من الواجب القاء
الضوء على أحوال مصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى زامنت
ما قبل هذه الثورة ووقتها وبعد عودة التواجد العثمانى بمصر فقد كانت
تركيا تطمح فى عودة فرض سيادتها الكاملة على مصر رغم أن مصر من
معايشة هؤلاء الحكام فيما قبل الحملة الفرنسية ولمدة طويلة قد تحملت
ظلمهم وفسادهم والتخبط والجهل والتعسف وسوء الادارة . ولكن شعب
مصر بعد طول التمرس بثوراته ضد ظلم وتعسف ونهب الفرنسيين ثم فى
ثورته ضد وضاعة وجلافة الماليك وتحكمهم كل ذلك جعلهم يواجهون
بأصرار وصلابة مساوى وظلم الأتراك بكفاءة وتنظيم واحكام وأثبتوا أن

الشعب المصري وقتها ١٨٠٤ - ١٨٠٥ لم يعد قادرا على تحمل مظالم
وسخافة ووزالة أى حاكم ظالم وبخاصة اذا كان دخيلا عليه .

وكانت وقتها القوات العثمانية فى مصر عبارة عن جيشين الأول
تعدادهم ما بين ٢٥ الى ٣٠ ألف مقاتل بقيادة الصدر الأعظم ويتألف معظمه من
الجنود الانكشارية ويقوم بالقاهرة وبعض بنادر الدلتا والصعيد .

أما الجزء الثانى فكان بقيادة حسين قبطان باشا قائد الأسطول
العثمانى الذى يرسو فى خليج أبى قير وكان عدده ٦٠٠٠ ستة آلاف
مقاتل معظمهم من الارناؤود وبعض الانكشارية ويحتلون مواقع قريبة من
مرسى الأسطول .

تعاقب الولاة الأتراك ودور محمد على

كان خسرو باشا هو أول والى عثمانى يعين بمصر بعد جلاء الفرنسيين
وأخذت سلطاته تتآكل بتأثير مؤثرات محمد على القائد الفعلى لقوات
الارناؤود (٤٠٠٠ مقاتل) وانتهت خطط محمد على باعتقال خسرو باشا
فى أول مايو ١٨٠٣ وسجنه بالقلعة وكانت لقوات الارناؤود الفضل فى
التخلص من خسرو باشا وكان سىء التدبير (٩٦) لايحسن التصرف ويميل
الى سفك الدماء ولا يضع أى شىء فى محله ، ونادى العلماء بظاهر باشا
واليا مؤقتا على مصر باختيارهم وذلك فى ٦ مايو ١٨٠٣ لحين أن تحضر اليه
الولاية بالفرمان السلطانى وكان طاهر باشا حاكما ظالما فاطلق لجنوده
الألبانيين والارناؤود عنان السلب والنهب وفرض الغرامات الفادحة على
الأهالى والتجار وتمكن أخيرا محمد على بدسائسه ومكره وبحسن استخدام
حالة تدهور جنود الانكشارية لتأخر صرف مرتباتهم وجعلهم ذلك يفتكون
بطاهر باشا بقطع رأسه والقاء جثته من الشباك يوم ٢٦ مايو ١٨٠٣ .

وبادر جنود الانكشارية باختيار واحد من جيشهم هو أحمد باشا
والى المدينة المنورة وكان موجودا وقتها بالقاهرة فعملوا على تعيينه واليا
على مصر - فى الوقت الذى أصبح فيه محمد على بعد مقتل طاهر
باشا القائد الفعلى لجنود الارناؤود (حوالى ٤٠٠٠ مقاتل)
وبواسطتهم أمكنه طرد أحمد باشا فكانت مدة ولايته يوما وليلة فقط
وعينت الحكومة العثمانية على باشا الجزائرى واليا على مصر وسافر فى
طريقه الى القاهرة حيث وصل الى الاسكندرية فى أول يوليو ١٨٠٣ ولكن
محمد على أسرع وأمر ضده قبل أن يصل الى القلعة (مقر الحكم) فحرض
عليه أمراء المماليك الذين ضبطوا مكاتبات تدل على تأمر على باشا الجزئرى

(٩٦) الأستاذ الرافعى جزء ٢ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ثم الى ص ٣١٧ .

عليهم فقبضوا عليه وقرروا نفيه خارج مصر وساروا به في اتجاه غزة ولدنهم قتلوه عندما وصل الى شلقان (بالقلوبية) في يناير ١٨٠٤ وفي سبيل استكمال خططه الذكية بادر محمد علي باختيار الوالى السابق خسرو باشا (السجين بالقلعة فقد أسرع محمد علي بالافراج عن خسرو باشا وجعل المشايخ زعماء الشعب يباركون تنصيب خسرو باشا واليا على مصر في يناير ١٨٠٤ وأصبح بذلك خسرو باشا لعبة رمزية يحركه محمد علي كيفما يشاء ولمصلحته وبذلك أصبح محمد علي هو الحاكم الفعلى والوالى المقتدر بفضل تأييد زعماء الشعب له والذي أخذ يتقرب لهم منذ البداية ويستشيرهم في كل خطواته السياسية ويستخدم جنوده الارناؤوط وقت الزوم لتأييد مطالب زعماء الشعب ، وازداد الشعب المصرى تعلقا بمحمد علي لما رأى فيه من التعفف عن تولي السلطة (تظاهرا منه بذلك) وفي نفس الوقت اكتسب محمد علي عطف الباب العالى (السلطان) بإعادته الوالى الشرعى خسرو باشا الى كرسى الولاية محاولا أن يثبت أنه برىء من الفتنة التى تسببت في عزل خسرو باشا ومن قبل على باشا الجزائرلى .

تعيين خورشيد باشا واليا

بادر أقارب طاهر باشا انتقاما من محمد علي وقاموا بعزل خسرو باشا ورحلوه الى الاستانة ولم يعارضهم محمد علي واشترط عليهم أن يعين مكانه أحد الولاة الأتراك ورشح لزعماء الشعب خورشيد محافظ الاسكندرية مترفعا هو نفسه عن طلب هذا المركز فاجتمع الشيوخ وزعماء الجند ونادوا بخورشيد باشا واليا على مصر وبمحمد علي قائمقاما (مساعدا) وتولى أمور الولاية في ٢٠ مايو ١٨٠٤ وكان خورشيد باشا على جانب كبير من الدهاء ولكن ليس في مستوى دهاء محمد علي وبادر بتنفيذ خطة للتخلص من محمد علي فاستصدر من الاستانة فرمانا بعودة الجنود الألبانيين (الارناؤود) وقائدهم محمد علي الى بلادهم (وكانت هذه هي القوات التركية التى تشكل خطورة على الوالى خورشيد باشا) وفهم محمد علي أنه هو المقصود بهذا الإبعاد وتظاهر بالاذعان بيد أنه بأسلوب ذكى أو بآخر جعل العلماء يعلمون بأمر هذا فرمان وطلبوا من محمد علي بإجماع الشعب البقاء في مصر لأنهم سبق وجربوه في الملمات ولما عهدوه فيه من العدل والاستقامة وتمكن من ردع الجنود الأتراك من الاعتداء على الأهالى وتجاوبت القاهرة مع هذا الطلب بشكل تظاهرى عندما أقفلت الدكاكين واثارت النفوس مما جعل محمد علي يوافق على طلب العلماء وأعلن عن بقائه نزولا على طلب الرأى العام - وأسقط في يد خورشيد باشا وكانت الظروف مهيأة للتخلص مؤقتا من وجوده بالقاهرة - لأن المماليك كان قد بدأ يشهد

ساعدهم مرة أخرى في فترة ضعف الولاة المغلوبين على أمرهم فعادوا مرة أخرى الى الحيزة بقيادة عثمان البرديسى و ابراهيم بك - يريدون إعادة الاستيلاء على السلطة بالقاهرة وتفرقت جماعات منهم في شتى المديريات يعيشون في الأرض فسادا من نهب وسلب وفرض غرامات واتاوات ثم رحلوا الى الصعيد بعد أن يتسوا من حصار القاهرة - وأصدر خورشيد باشا أمرا الى محمد على وجنوده بالتوجه الى الصعيد لمحاربة المماليك وكان معه حوالي (٣٠٠٠) من جنود الارناؤود وأراد الوالى ألا تكون قوات محمد على وحدها بالصعيد فأرسل معه قوة بقيادة سلحداره ٤٠٠٠ مقاتل وطارت هذه القوات المماليك ونجحت بفضل محمد على بالاستيلاء على المنيا في ١٥ مارس ١٨٠٥ بعد حصار أكثر من شهرين .

وتماذى خورشيد باشا في التآمر على محمد على فطلب من السلطان قوات لتدعيم قواته بمصر للقضاء على المماليك وأجابه السلطان وأرسل له ويتوصية منه قوة كبيرة من الدلاة (٣٠٠٠ مقاتل) ليتمكن بهم التغلب على محمد على والدلاة وهى كلمة تركية معناها المجانين لشهرتهم بالنهور والبسالة في القتال ومعظمهم من الأكراد - وبمجرد أن علم محمد على بخبر وصول هذا الجيش من الدلاة فهم المقصود منهم بالضبط لتحقيق أهدافه غريمه خورشيد باشا فعجل بالعودة هو وزميله حسن باشا الى القاهرة ليجبى سياسة خورشيد باشا قبل أن يستقر جيش الدلاة ويحكم سيطرته على البلاد . وبذلك أثبت خورشيد باشا أنه داهية ولكن ليس في مستوى دهاء محمد على بجانب تمتع محمد على بقدرته على الاستحواذ على ثقة أهل البلاد وزعمائهم المشايخ وحسن استخدامه لقدرات هذا الشعب في تحقيق مصالحه سواء باللجوء للمواقف السلبية أو المواقف الايجابية حسب مقتضيات ومختلف المواقف وكانت كل أساليبه الايجابية تنحصر في مساعدة ثورات الشعب ومطالبه عسكريا باستخدام قواته في تحقيق مطالب الشعب من رفع الظلم والقهر والنهب من تعسف الجنود العثمانية الجائرة وعنجهية أمراء المماليك وتمسكه في كل هذه التصرفات بالتحرك برأى قادة الشعب المصرى ومشايخه أعضاء المؤسسة الوطنية المصرية وعلى الجانب الآخر فان خورشيد باشا الوالى العثمانى من ناحية أسلوب حكمه كان سئ رأى فاسد التدبير ميالا الى الظلم غير مكترث باحترام الشعب واحترام ارادته معتمدا على القوة الغشوم .

الثورة على الأتراك (٩ يوليو ١٨٠٥)

في هذه الثورة الشعبية المصرية على الحكم التركى الجائر نجد أن ما قسمناه سابقا من مراحل كانت تمر بها ثورات مصر السابقة نجد هذه المراحل في هذه الثورة متداخلة في بعضها البعض ويرجع ذلك أن

الشعب المصري منذ الحملة الفرنسية مرت عليه محن الظلم والاستغلال وتدرس في أسلوب المقاومة المستمرة والمنظمة بفضل مؤسسته الوطنية وكان لديه الصبر وطول النفس حتى تعاقبت مواقف المعارضة للظلم والتعسف ولم يفقد حماسه أبداً كما أن منظمته الوطنية كانت منظمة أحسن تنظيم وتتحدى بطاقة كبيرة من الإيمان بفضل تعاليم الإسلام التي كانت من مكونات ثقافتهم وشحنهم بطاقة غير محدودة المدى من رفض الظلم واحترام إنسانية الإنسان وعدم الخضوع والجنوح للاستعباد وعدم الخوف إلا من الخالق ووجوب مقاومة الحاكم وعدم طاعته مادام يعصى الله وكلها مستمدة من دستور المسلمين الشامل والوحيد وهو القرآن الكريم وهذه المؤسسة بأفرادها كانت متواجدة مع الشعب في كل الأزمان ولم تنفك عن أبدأ عن دورها الوطني أو عن مركزها القيادي وصلابتها وشجاعتها وصراحتها في مواجهة الظلم والظالمين بجانب أنها حاصرت وعارضت وقاومت سخافات وامتهانات وظلم قوات الاحتلال الفرنسي ثم عاصرت عناصر السلطة الفاشية بعد جلاء الفرنسيين وهي الانجليز والماليك والأتراك فقد تدربت العامة مع رد الفعل السريع بمقاومة الظلم الذي يصدر من أي أقلية متحكمة ولذلك ولتوالى سرعة الأحداث غالباً ما كانت المراحل الثورية تندخل في بعضها . فعندما كانت العامة تبحث عن دور المؤسسة الوطنية فسريراً ما كانت تجدتها في الانتظار وعلى أتم الاستعداد لتلبية النداء لتمارس دورها في الوقت والمكان المطلوبين حتى قبل أن يطلب ذلك منها الثوار وبخاصة مراحل الثورة ضد الأتراك فكانت تندخل في بعضها رغم أن كل مرحلة كانت قائمة بذاتها فكان الظلم والوحشية في المعاملة يتبعه مباشرة احتجاج يعبر عن الشعور بهذا الظلم ويؤدي بنفس السرعة إلى تدخل المؤسسة الوطنية لدى الظالم فاذا راوغ الظالم وأمعن في الظلم كانت القيادة تقوم بسرعة بدورها لتزعّم التمرد أو الثورة بتتابع ووضع سريع يكاد يجعل ظاهرة المراحل تبدو كأنها مرحلة واحدة .

(أولا) مرحلة تحكم واستغلال الأقلية للأغلبية

شغل خورشيد باشا منصب الوالي منذ ٢٠ مايو ١٨٠٤ « وفي منتصف مايو فرض أتاه جديدة على أبواب الحرف » (١) .

(ثانيا) - مرحلة شعور الأغلبية بظلم الأقلية

« فضجوا (الشعب) من شدة الضيق وسوء الحال واقفلوا حوانيتهم » وتعددت في عهد الوالي خورشيد باشا الانتفاضات الشعبية .

(ثالثا) - دور المؤسسة الوطنية

« فتدخل العلماء غير مرة لرفعها (المظالم) عن الناس »

(١) الأستاذ الرافعي جزء ٢ ص ٣٣٠ .

(وبعد فرضه الضرائب الظالمة استمرت الخواطر فى هياج وخاصة) يوم ٢٩ مايو ١٨٠٤ (« واشتد الهياج (١) وأقفلت الدكاكين والأسواق واحتشد جموع الصناع وأرباب الحرف وجماهير الناس بالجامع الأزهر (مقر المؤسسة الوطنية) ومعهم الطبول فوصل دوى ندائهم الى نواح بعيدة فى المدينة وسمعه الوالى وهو بالقلعة ووصل له خبر التجمهر فأرسل الى السيد عمر نقيب الأشراف (قيادة المؤسسة الوطنية) رسولا ينبؤه (يبلغه) بأنه رفع الاتاوة عن الفقراء منهم ويطلب منهم فض الجماهير « وذهب له السيد عمر مكرم وواجهه بقوله (ان هؤلاء الناس وأرباب الحرف والصناع كلهم فقراء وكفاهم ما هم فيه من الكساد وسوء الحال حتى يطلبون منهم مفارم رواتب.العسكر .

ورفع الوالى خورشيد باشا الاتاوة ولكن لمدة يوم فقط .

مرة أخرى (أولا) تحكم الأقلية فى الأغلبية

وعادت جنود الوالى من جيش الدلاه لسيرتهم السيئة مرة ثانية فأخذوا يعيشون فى الأرض فسادا ويرتكبون الجرائم ويعتدون على الأموال والأرزاق والأعراض والأرواح « فدخلوا بيوت الناس وأخرجوا منها أهلها وكانوا اذا سكنوا دارا أخربوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم فاذا صارت خرابا تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك ٠٠٠ حتى عم الخراب سائر النواحي » .

« وتماذى قبائح العسكر بما لا تحيط به الأوراق والدخائر بحيث لا يخلو يوم من زعجات (٩٧) ورجفات وكرشات فى غالب الجهات اما لأجل امرأة أو أمرد (صبي) أو خطف شيء أو تنازع شر بأدنى سبب مع العامة أو الباعة أو مشاحنة مع السوقه ٠٠٠٠ وتعطل أسباب المعاش وغلو الأسعار فى كل شيء » .

ثالثا - المؤسسة الوطنية

« فى يوم ٢ مايو ١٨٠٥ اجتمع علماء الأزهر وأضرَبوا عن القاء الدروس وأقفلت دكاكين المدينة وأسواقها واحتشدت الجماهير فى الشوارع والميادين يصيحون ويصخبون فأرسل الوالى وكيله بصحبة رئيس الانكشاريه

(١) الأستاذ الرافعى ص ٣٣٠ .

(٩٧) الجبرتي جزء ٣ ص ٢٩٨ .

(المحافظ) للتفاهم مع العلماء زعماء الشعب وقابلوه في منزل الشيخ الشرقاوى وأغلظوا له في القول - وعند خروجه من منزل الشيخ الشرقاوى انهال عليه الأهالي رجما بالحجارة ولم يتدخل العلماء وامتنعوا عن مقابلة الوالى واعتبروه عاصيا واستمر الحال على هذا المنوال لمدة أسبوع وتوقفت (٩٨) الأعمال والتجارة والعلم وأخيرا اتفقت جمعية العلماء (المؤسسة الوطنية) على املاء شروطهم على خورشيد باشا لتهدئة الحالة بوجوب طرد الجنود الدلاء من القاهرة وضواحيها في مدة ثلاثة أيام وأبلغوا هذه الشروط للوالى خورشيد باشا ، وكان العلماء يعلمون مدى صعوبة تنفيذ هذا الشرط لأن الدلاء كانوا يطالبون برواتب ثلاثة أشهر متأخرة وكانت خزانة الوالى خالية ، - كل ذلك ومحمد على يقف متفرجا سلبيا ولم يتدخل في الخلاف .

استمر في التردد على كبار الشيوخ ووعدهم ببذل جهوده ووساطته لتأييدهم ولكنه لم يقم بها مكتفيا بتوثيق صلاته بالمؤسسة الوطنية .

محاولة الوالى التخلص من محمد على

أثناء كل هذه الاضطرابات وصل فرمان الوالى من الاستانة في مايو ١٨٠٤ بتعيين محمد على واليا لجده وكان ذلك بتدبير خورشيد باشا لابعاد محمد على من مصر وأبلغ محتوى هذا فرمان لمحمد على يوم ٣ مايو ولكن بأسلوب محمد على في الدهاء جعل زعماء الشعب والمشايخ يعلمون بمضمون خطط الوالى والفرمان .

(رابعا) - العمل الايجابي (الثورة)

انتهت الفترة التي حددها العلماء لجلاء الجنود الدلاء عن المدينة يوم السبت ١١ مايو وأبعد الوالى بعضهم ولكن بقي بالقاهرة ١٥٠٠ منهم وعلم زعماء الشعب أنهم ممتنعون عن الجلاء حتى تدفع رواتبهم وأنه لا سبيل الى دفعها لخلو الخزانة من المال والا يفرض ضريبة جديدة - وبشكل أو بآخر أحيط الشعب الهائج علما بذلك فأحدثت هذه الأنباء هياجا (٩٩) عظيما في الخواطر ووعد الزعماء الشعب بأنهم سوف يتشاورون فيما يجب اتخاذه من قرارات في صالح الشعب وفي صباح يوم ١٢ مايو ١٨٠٥ بلغ الزعماء الشعب بأنهم سيجتمعون في دار المحكمة الكبرى (بيت القاضي) لاختصاص الوالى واصدار قراراتهم في مجلس الشرع -

(٩٨) الأستاذ الرافعي جزء ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(٩٩) الرافعي جزء ٢ ص ٣٣٢ .

(١٠٠) نفس المصدر السابق ص ٣٣٥ .

وفى سرعة فائقة احتشدت الجماهير الصاخبة والتي أقبلت من كل صوب .
 في فناء بيت القاضى ومجلس الشرع (١٠٠) وحول الفناء بلغ عددها
 أربعين ألفا وكان اجتماعهم واجتماع القادة فى مقر العدل بمقام توثيق
 شرعى للثورة الحقيقية وكان الشعب ينادى ويصيح « يارب يامتجلى
 اهلك (١٠١) العثملى » دليل على السخط الثورى على الحكم التركى .
 والاصرار على التخلص منه .

أما الزعماء فقد استدعوا بمعرفة القاضى وكلاء الوالى للمثول أمام
 مجلس الشرع فى هيئة محكمة وحضر الوكلاء وعرض الزعماء عليهم (١٠٢)
 ظلامة الشعب وحرروا مطالبهم وهى :

١ - ألا تفرض بعد اليوم أى ضريبة على المدينة وعلى الأهالى .
 إلا اذ أقرها العلماء وكبار الأعيان .

٢ - أن تجلو الجنود التركية من القاهرة وتنتقل حامية المدينة
 الى الجيزة .

٣ - ألا يسمح بدخول أى جندى الى المدينة حاملا سلاحه .

٤ - أن تعاد المواصلات فورا بين القاهرة والوجه القبلى وسلموا .
 صورة المطالب الى القاضى وانصرف وكلاء الوالى وبلغوها بدورهم الى
 خورشيد باشا بالقلعة .

« وكان السيد عمر مكرم فى مقدمة صفوف المجاهدين الذين رأهم
 الشعب المصرى لأول مرة يدافعون عن مصلحته ، فأراد الوالى أن يلقي
 القبض عليه ويعتقله بالقلعة ليشل الحركة القائمة فى المدينة فأرسل
 يستدعى القاضى ومعه السيد عمر مكرم والعلماء الى القلعة للتشاور لكن
 السيد عمر مكرم فطن الى مقاصد الوالى ورفض الذهاب الى القلعة » (*) .

(خامسا) نجاح الثورة (العمل الإيجابى)

رفض الوالى خورشيد باشا اجابة مطالب مجلس الشرع (المؤسسة
 الوطنية الثورية) فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء وثقباء الصناع يوم
 ١٣ مايو ١٨٠٥ بدار المحكمة (مجلس الشرع) أيضا للتداول فى شأن
 رفض الوالى لطلبات الشعب واحتشدت الجماهير حول دار المحكمة
 واتفقت كلمة نواب الشعب وأجمعوا رأيهم على عزل خورشيد باشا وتعيين .

(١٠١) الجبرتى جزء ٣ ص ٢٩٩ .

(١٠٢) تاريخ الحركة القومية للأستاذ الرافى ص ٢٣٧ .

(*) الرافى جزء ٢ ص ٣٣٦ عن كتاب مسيو فولايى - (مصر الحديثة) .

-محمد علي واليا بدله ونادى السيد عمر مكرم بالنيابة عن المجلس وعن الشعب في حضور محمد علي اننا خلعناه من (١٠٣) الولاية « ولما سألته محمد علي « ومن ترويدون واليا » ردد الجميع في صوت واحد « لا نرضى الا بك وتكون واليا (١٠٤) بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » وأخذوا عليه العهد والمواثيق أن يسير بالعدل وألا يبرم أمرا الا بمشورتهم وقبل محمد علي الولاية بإرادة الشعب »

ورفض خورشيد باشا قرارات مجلس الشرع (المؤسسة الوطنية) قائلا في تعال وخطبة « اني مولى (١٠٥) من طرف السلطان « فلا أعزل بأمر من الفلاحين ولا أنزل من القلعة الا بأمر السلطان » ويوم عزل خورشيد باشا أصدر المجلس وثيقة شرعية « ان للشعوب طبقا لما جرى به العرف قديما ولما تقضى به أحكام الشريعة الاسلامية الحق في أن يقيموا الولاية ولهم أن يعزلوه إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة »

وصمم خورشيد باشا على تحدى الثورة وأصدر أمره بالمقاومة بعد أن تحصن بالقلعة - وفي مواجهته اعتمد الشعب على نفسه وأخرج السلاح وباع الناس أمتعتهم للحصول على الأسلحة وقام لا يقل عن ٤٠٠٠٠ ٤٠٠٠٠ ربيع ألف نسمة من الشعب حامل السلاح بتناوب الحصار حول القلعة فكانت الثورة من أولها حتى نهايتها ثورة مصرية شعبية صرفه حققت كل أهدافها وأكثر دون الاستعانة بأي قوة خارجية (١٠٦) لأنه حتى محمد علي الذي نادى الشعب الثائر به واليا على مصر وكان في يده قوة عسكرية من الارناؤود لا يستهان بها لم يتدخل اطلاقا في هذا الحصار حرصا على علاقته بالسلطان واستمرت الحرب الثورية بين الشعب المصرى والوالى مباشرة الى أن جاء القاهرة من الاستانة يوم ٩ يوليو ١٨٠٥ رسولا يحمل فرمانا يتضمن الخطاب الى محمد علي باشا والى جده سابقا بتثبيته واليا على مصر »

(١٠٣) الرافعى الجزء ٢ ص ٣٣٧

(١٠٤) التأكيد على سلطة السيادة ممثلة في الشعب ولوايه بشكل جمعية عمومية أو

برلمان (سلطة تشريعية)

(١٠٥) تأكيد آخر (لشروطنا) على قوة الرأى العام وتمسكه بفرع شروطه

(١٠٦) كان قائد هذا الحصار حول القلعة هو الوطنى الثائر « حجاج الجبلى » وند

بكيانه محمد علي بعد أن تولد مركزه كوالى على مصر بشيئته

حول أهداف ومعالم الثورة على الحكم التركي

كانت أهداف العامة منذ شعورهم بظلم وقهر واستبداد الأقلية الحاكمة (الأتراك) تتركز كلها في إيقاف ورفع الضرائب والمغارم والاتاوات التي فرضها الوالى خورشيد باشا بالاضافة الى طلب كف الجنود الأتراك وبخاصة الدلاة عن ممارسة السلب والنهب والضرب والاهانة ثم تدرجت المطالب الى إيقاف اعتداء واحتلال الجنود الأتراك على منازل المصريين وقصورهم وامتعتهم وحرق أخشاب منازلهم باستهانة تفوق استهانة المحتل الفرنسى السابق ولكن على يد زعماء الشعب وبخاصة زعيمهم جميعا السيد عمر مكرم تحولت هذه الأهداف الى طلب استقلال مصر بالكامل والتخلص من أى مظهر من مظاهر السيادة العثمانية (أى طلب عزل الوالى) وتعيين والى جديد بإرادة الأمة ويلتزم بشروط ممثلى الشعب وبذلك تخطت المؤسسة الوطنية الثورية المصرية أهداف الشعب القريبة الى أهدافه البعيدة •

حقق الشعب الثائر ومؤسسته الوطنية وضع الأسس والضمانات الضرورية لعدم تكرار الحكم الفاسد الذى يؤدى الى الظلم واستغلال الأقلية الحاكمة للأغلبية وذلك بأن أملوا شروطهم على الوالى الجديد محمد على الذى نصبوه بإرادة الثوار • وبذلك سلمت المؤسسة الوطنية المصرية السيادة الى الشعب المصرى بعد أن أدت دورها الثورى وكانت الشروط كالتالى :

١ - عدم فرض أى ضرائب الا بعد عرضها على ممثلى الشعب وإقرارها بمعرفتهم •

٢ - التزام الوالى الجديد أو أى والى آخر بشروط الشعب الثائر وممثليه وهى الالتزام بالعدل وعدم استخدام القهر والجنود فى

جمع الضرائب بل وسحب كل مظاهر التحكم العسكرية من القاهرة كلها .

٣ - اعتراف الحاكم ايا كان (١) بالعدالة كقيمة (سيادية) .

٤ - تقنين وتشريع فكرة وسلطة ممثلي الشعب واعتراف الحاكم بها .

٥ - احترام الحاكم لحكم القضاء وذلك باصرار المؤسسة الوطنية على مناقشة ودراسة مطالب الشعب الذين يمثلونه في دار القضاء (بيت القاضي) واتخاذ القرارات بأسلوب قانوني شرعى مؤيدا بقانون ودستور المسلمين (القرآن) وأصروا على رفعه للحاكم عن طريق السلطة القضائية .

٦ - وضعت المؤسسة الوطنية الثورية أول أسس للحكم النيابي في مصر وقررت فيه حق الرقابة الشعبية على السلطة التنفيذية واعتبرت دار القضاء (بيت القاضي) هو مجلس الشرع أى مجلس نيابي (السلطة التشريعية) .

٧ - قررت الثورة حق الشعب ممثلا في مجلس الشرع (مجلس النواب) في عزل وتعيين الولاة وعلان ذلك في وثيقة شرعية مستندة في تحريرها الى الشريعة الاسلامية فلأول مرة يقع تغيير سياسى جذرى في أسلوب تعيين وعزل الولاة في احدى ولايات السلطنة العثمانية (مصر) بحق ارادة الشعب وباسم الشعب .

٨ - تضمنت قرارات مجلس الشرع مبدأ تشريعيا دستوريا وهو ارغام الحاكم المعين بإرادة الشعب على التعهد علنا أمام ممثلي الشعب باتباع العدل والاعتراف بحق هذا الشعب في مراقبة أعمال الحكومة وبذلك حققت الثورة المصرية بهذه الخطوة مبدأ إعادة تسلم سلطة السيادة الى الشعب .

كما خلصت مصر نهائيا من تسلط الحكم العثماني المستبد فكان خورشيد باشا آخر الولاة العثمانيين الذين حكموا مصر بإرادة القربان العثمانية من الاستانة فتحقق بذلك الاستقلال والحرية لشعب مصر .

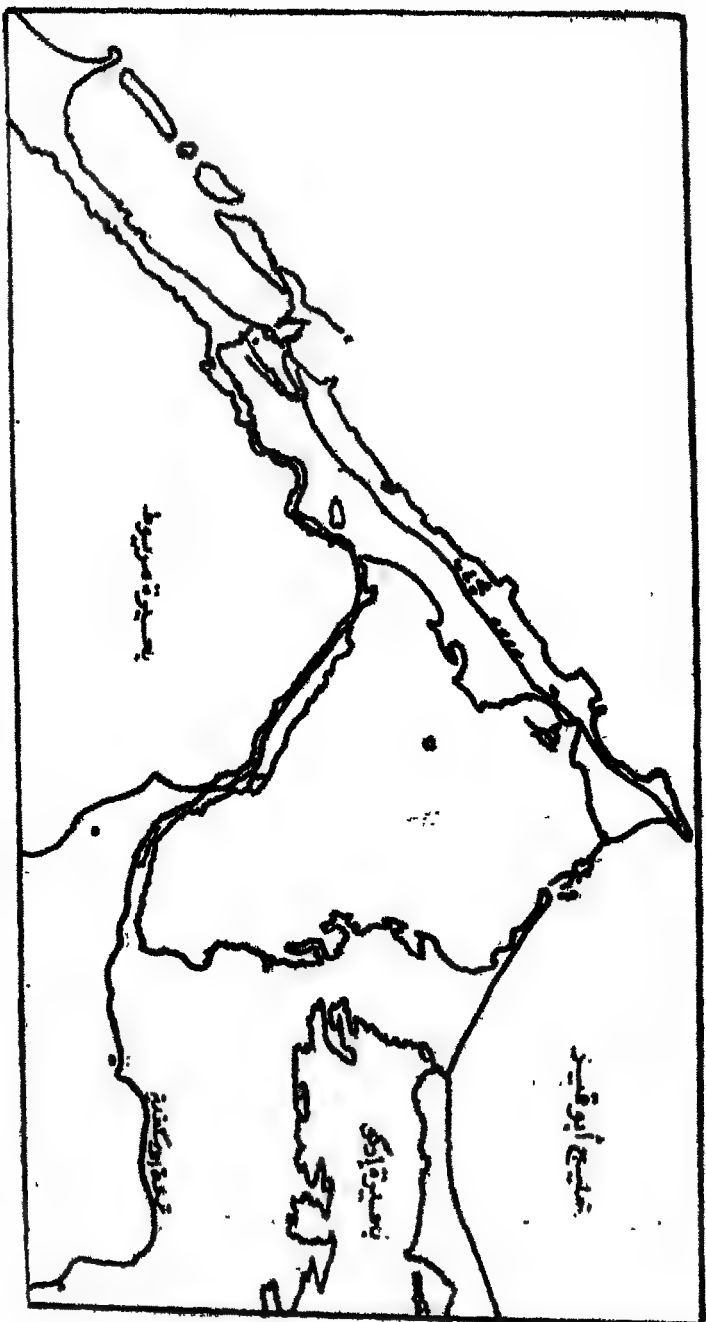
(١) يحق لمصر فعلا اعتبار هذه المبادئ بمثابة أول دستور مصرى شعبى على ان يصير أول وثيقة تاريخية مصرية دستورية في مبنى البرلمان (مجلس الشعب) أقوى من وثيقة الماجناكارتا البريطانية .

حملة فريزر الانجليزية على مصر ومقاومة الشعب

توالى انتصارات الثورات الشعبية المصرية بجلء الفرنسيين فى أكتوبر ١٨٠١ ثم جلء الانجليز فى ديسمبر ١٨٠٢ بعد محاولة استمرارهم فى مصر بعد الحملة التركية الانجليزية ثم بعد أن ثارت على المماليك وقضت على آخر مظهر من مظاهر دولة المماليك فى مصر فى مارس ١٨٠٤ .

ثم عزل والى التركى وتنصيب محمد على واليا على مصر بارادة الشعب وممثل الشعب فى ٩ يوليو ١٨٠٥ .

وأصبحت مصر مستقلة وعلى رأسها والى تم تعيينه بمعرفة الشعب وتنصيبه اسما بمباركة فرمان تركى استكمالا للشكل فقط وانتزعت سلطة الولاية التركية على مصر كلية . ولم يمر وقت طويل حتى عادت اطماع الأطراف الثلاثة فى حكم مصر - فالمماليك من جانب كدأ بهم فى التعاون مع أعداء البلاد عاودوا تأمرهم ونضالهم مع الفرنسيين والانجليز والأتراك بغرض الحصول على التأييد المادى والعسكرى والمعنوي لأجل إعادة سلطاتهم فى مصر - والفرنسيون كان تأمرهم بغرض منع الانجليز من احتلال مصر بأى ثمن وذلك انتقاما منهم - والأتراك كان غرضهم العودة لحكم مصر وعزل محمد على والانتقام من الشعب المصرى الذى ثار على حكمهم ووالىهم خورشيد باشا فأخذ الأتراك يعدون جيشا وأسطولا لغزو مصر عام ١٨٠٦ ووصلت قواتهم على أسطولهم الى مصر فى يونيو ١٨٠٦ وبمجرد وصول الأتراك عاود المماليك الاتصال بهم وغرضهما التخلص من محمد على وتأييد الشعب المصرى الثائر وأرسل محمد على



بين الاسكندرية وأبو قير (تنفيذ سنة ١٨٠١)

وذكر في الخريطة بعض المواقع التي مر ذكرها ، كمنارة الاسكندرية (الاسكندرية الآن) والقطع التي اهدى الانجليز في سد أبو قير بين بحيرة أبو قير وبحيرة مريوط (١ أبريل سنة ١٨٠١) وقرى بركة (غطاس) والكربون وكفر سليم ، والقيصا ، ثم موقع الاسكندرية وسورها والبيضاء الشرقية والبيضاء الغربية بحسب تنظيقيهما في ذلك العهد ، وراس التين وجزيرة المحمي وبرج المحمي ثم باب رشيد وبلية مسجد سيدي جابر ، وبلية قيسر (قصر القياصرة) ، وبحيرة أبو قير وكانوا يسكنونها (المدينة) ، وهي الآن ارض جافة زراعية وتحتها على البحر ، والجسر الذي كان يقيها

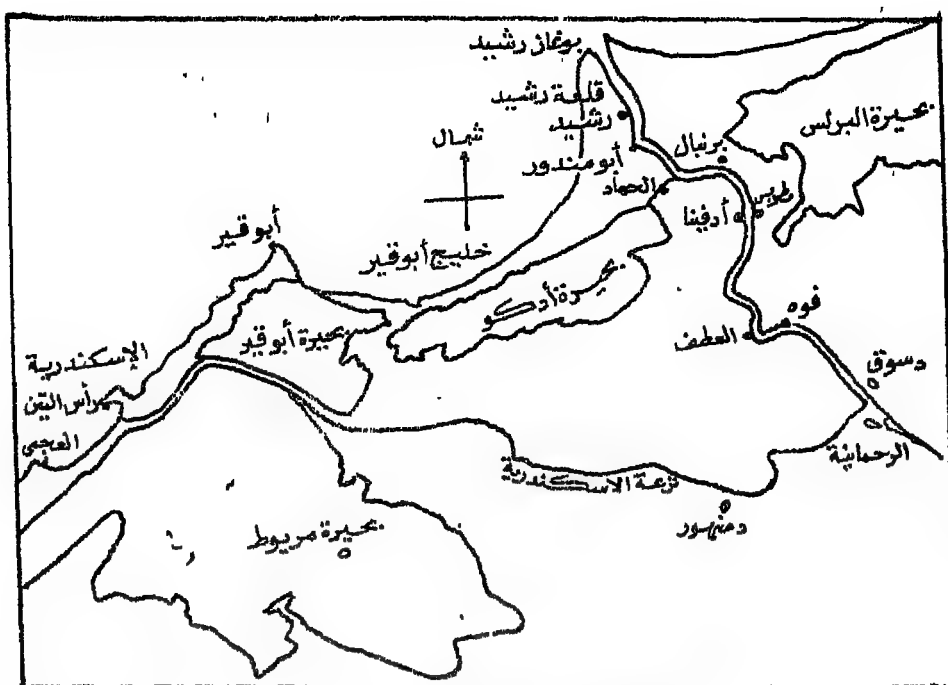
قوات لمقاومة القوات التركية والمملوكية في النجيلة بالبحيرة وانهزم الجيش التركي وخرج من الرحمانية واستدار المماليك بقيادة الألفى بك لمحاربة محمد علي ودافعت المقاومة الشعبية عن دمنهور وانسحب جيش محمد علي من النجيلة في ١٢/٨/١٨٠٦ وحاصر المماليك مدينة دمنهور لمدة شهرين وقاومهم الشعب بفضل امدادات ومعونات ثوار القاهرة وزعيمهم عمر مكرم وفي النهاية انسحب المماليك كلهم من الميادين وخاصة بعد موت أميرهم عثمان البرديسي في ١٩ نوفمبر ١٨٠٦ . وفي نفس الوقت بعد انسحاب جيش محمد علي من المعركة شبه مهزوم استخدم سلاح الرشوة مع قواد الأتراك واستعاد سلطانه وحكمه ونشبت ولايته على مصر وبذلك ساد الهدوء مصر نسبيا ولكن محمد علي لم يهدأ له بال بل أخذ في مطاردة المماليك في معقلهم بالصعيد منذ آخر عام ١٨٠٦ .

الغزو الانجليزي

دب الخلاف في آخر عام ١٨٠٦ بين الانجليز والأتراك عندما انحازت تركيا لفرنسا وانتهت العلاقات باعلان انجلترا الحرب على تركيا فعزمت انجلترا أن تضرب تركيا في مصر وبصفة أساسية انتهزتها فرصة لتحقيق أطماعها التاريخية في مصر . وقد كانت انجلترا تعتمد اعتمادا كبيرا على تحالفها مع أمير المماليك محمد بك الألفى الذي كان في كل وقت مستعدا للتحالف مع الشيطان وخيانة بلاده في سبيل السلطة ولإعادة سيادته وسيادة المماليك على إمارة مصر .

وتنبه الشعب المصري الى هذه المؤامرات بفضل الروح الفتية التي دبت في الكيان الشعبى المصرى من طول التمرس على المقاومة والثورة على الاستعباد والظلم والقهر الداخلى والخارجى . وبمجرد أن وصلت أخبار الحملة الانجليزية من الرسائل الواردة من الاسكندرية فى شهر فبراير ١٨٠٧ وقبل قدوم هذه الحملة « شرع أهل الاسكندرية فى تحصين قلاعها وأبراجها (١٠٧) . وكذلك أبو قير وأرسل كتحدا بك (نائب الوالى محمد على باشا) من يتعين ببناء قلعة البرلس وحصل بمصر قلق ولغط وعملوا جمعيات (اجتماعات) فى بيت كتحدا بك وبيت السيد عمر مكرم البقيب واتفقوا على ارسال تلك المراسلات الى محمد على بالجهة القبطية (فى الصعيد حيث كان مشغولا بمطاردة المماليك) صعبة ديوان أفندى (سكرتيره) » .

وأقبل الأسطول البريطانى الى الاسكندرية فى ١٧ مارس ١٨٠٧ ووصلت الأخبار الى القاهرة فأرسلوا الأخبار الى محمد على فى الصعيد حيث كان يقاقل المماليك . أما الإنجليز فكانوا يتوقعون مقاتلة حليفهم المملوك الألفى بك فى الاسكندرية . عند وصولهم ليعاونهم بقواته فى الغزو .



خريطة مواقع الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧

وترى فيها البلاد المواقع التي ورد ذكرها في الفصل الثاني ، والجهات التي مرت بها الحملة منذ نزول الجنود الانجليزية بشاطئ العجمي (غربي الاسكندرية) الى هزيمتهم في رشيد والعماد ، والخريطة مرسومة حسب تخطيط سنة ١٨٠٧ ، ونجد بها ترعة الاسكندرية التي كانت موجودة في ذلك العهد وانشئت مكانها ترعة المحمودية سنة ١٨١٩ وقد اشرنا الى تخطيطها في الخريطة بخط منقوط .

ولكنه كان قد مات قبل أن يصلوا مياه الاسكندرية ، وقبل أن يستكمل حلقات خياناته .

واستعاض الانجليز بدلا من الألفي بخائن آخر وهو محافظ ثغر (١٠٨) الاسكندرية أمين أغا والذي كان متواطئا مع الانجليز من قبل فسهل للقوات البريطانية عملية النزول وسلم لهم المدينة دون أى مقاومة نظير رشوة من المال وكان الوسيط في هذه العملية هو قنصل انجلترا في الثغر ففي مساء يوم ١٧ مارس ١٨٠٧ أخذ جنود الحملة الانجليزية ينزلون الى البر بشاطئ العجمي ثم رجعت باقى القوات الى الاسكندرية

(١٠٨) الرافعي (عصر محمد علي) ص ٥٧ عن كتاب المسيو مالبان .

وعسكروا فيها وأرسلوا قوة أخرى لاختلال قلعة أبى قير وسلم محافظ الاسكندرية التركى نفسه كأسير حرب ومعه حاميه المدينة وعددها ٣٠٠ مقاتل وتم احتلال الانجليز لشهر الاسكندرية ليلة ٢١ مارس ١٨٠٧ وكانت الحملة الانجليزية مؤلفة من ٦٠٠٠ مقاتل (ستة آلاف مقاتل) بقيادة الجنرال فريزر Fraser ومكونة من فرقتين أحدهما بقيادة جنرال ستوارت Stuart والأخرى بقيادة جنرال ويكوب Wacop

ولما بلغت القاهرة هذه الأنباء أحدثت انزعاجا شديدا بين الناس وخاصة لما علموا بخيانة محافظ الاسكندرية أمين أغا وتسليمه المدينة دون قتال واجتمع زعماء الشعب واتخذوا قرارا شعبيا ثوريا بدعوة الشعب الى التطوع لمقاومة الغزو البريطانى لبلادهم (١٠٩) . ثم اجمع رأيهم على ارسال الخبر بذلك الى محمد على باشا ويطلبونه للحضور وهو ومن بصحبته من العساكر (كانوا يحاربون المماليك فى الصعيد) ليستعدوا لما هو أولى وأحق بالاهتمام » .

انتصار المقاومة الشعبية فى معركة رشيد

حيث أن مقاومة الشعب لآى غزو أجنبى تعتبر حرب تحرير وحرب التحرير تمثل بجميع الأبعاد ثورة حقيقية فيمكن تطبيق ذلك على مراحل المقاومة الشعبية فى رشيد •

كما طبقناها فى مقاومة الحملة الفرنسية تماما •

(أولا) مرحلة تحكم وقهر الأقلية للأغلبية

حضرت القوات الانجليزية وهى أقلية تعدادها لايزيد عن ٦٠٠٠ ستة آلاف مقاتل لقهر الشعب المصرى بأكمله والتحكم فيه وكان وقتئذ تعدادهم كأغلبية ما بين ٢٥ الى ٣ مليون ومظهر نزول جنود الاسطول فى الاسكندرية كان تحدى لاستقلال البلاد حيث جاء على لسان القائد الانجليزى لحكام البلاد وهو لايزال فى عرض البحر وبعد أن عارض المصريون نزولهم بالبحر الا بأمر سلطانى قال القائد البريطانى « أننا أحضرنا بصحبتنا خمسة آلاف من العسكر ٠٠٠ فاما أن تسمحوا لنا فى الطلوع بالرضا والتسليم واما بالقهر والحرب » ثم توجه الانجليز بجزء من قواتهم الى رشيد لاحتلالها بالقهر لتكون قاعدة للوثوب على كل أنحاء البلاد •

(ثانيا) . الوعي الشعبي (٩)

(وثالثا) تكوين المؤسسة الوطنية

أمر الجنرال فريزر الجنرال ويكوب بالزحف على رشيد يوم ٢٩ مارس ١٨٠٧ بقوة ٢٠٠٠ مقاتل لاتخاذها قاعدة حربية يتزود منها الجيش ومنها يزحف الى داخل البلاد وأخذت هذه القوة الاستعداد لدخول رشيد يوم ٣١ مارس ١٨٠٧ وقد كان شعب رشيد على علم تام بهذه الخطة أولا بأول بفضل محافظها وقتئذ على بك السلانكي الذي كونه في الحال من نفسه ومن أعيان رشيد ورجال الدين فيها ومن قيادة حامية رشيد مؤسسة وطنية قررت بعد المشورة اشترائك الجنود ال ٧٠٠ الموجودين تحت قيادة المحافظ على بك السلانكي مع الحامية مع قوات الشعب الكبيرة العدد بالدخول الى المنازل والتحصن (الكرنكه) في الأسطح وخلف الشبائيك وخلف ٥٠٠ المتاريس داخل المنازل وانتظار دخول جنود الاحتلال الانجليزى مطمئنين داخل الشوارع الخالية ثم الانقضاض عليهم بالنيران بأمر واحد من القائد الشجاع المحافظ على بك السلانكي الذي أمر بثاقب نظره جميع مراكب التعديه بالرجوع الى البر الشرقى للنيل حتى لا يعتمد رجال الحامية والجنود على وسيلة تؤدي الى مجرد التفكير في الارتداد أو الانسحاب وذلك كله بغرض الاستماتة في القتال مقتديا بأسلوب القائد العربى طارق بن زياد يجعل العدو من أمام جنوده والبحر من خلفهم - وبذلك كان شعب رشيد ومن خلفه شعب مصر على وعى كامل بابعاد العدوان الانجليزى فقد قرر وجوب مقاومته وكان له مؤسسته الوطنية المخفية بقيادة الرجل الشجاع على بك السلانكي والمؤسسة الوطنية من مشايخ ونواب شعب القاهرة . وحان وقت مرحلة العمل الايجابى *

(رابعا) مرحلة العمل الايجابى (المقاومة الثورية)

تقدم الانجليز ولما لم يجدوا أثرا للمقاومة خارج البلد اعتقدوا أن حاميتها قد اعتزمت اخلاؤها وتسليمها فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين وهم فى شدة الاعياء بعد طول السير من الاسكندرية الى رشيد فانتشروا فى الطرق والأسواق . ولكنهم ما كادوا يجوسون خلال الديار حتى أصدر قائد المقاومة على بك السلانكي أمره باطلاق النار دفعة واحدة فأخذوا على غرة وعمل فيهم الرصاص بالقتل والاصابة وأخذ الأهليون والجنود يتبادلون النيران من النوافذ والأسطح فدب الرعب فى قلوب الجنود

(*) الجبرى جزء ٤ ص ٤٤ ، ص ٤٥ .

(١) الجبرى جزء ٤ ص ٤٧ .

الانجليز وسقط الكثير منهم صرعى فى الشسوارع وقتل قائد الفرقة المهاجمة الجنرال ويكوب Wacop كما قتل الكثير من ضباطه فاستولى الذعر على الجنود الانجليز ولاذوا بالفرار وانتهت الموقعة بهزيمة الجيش الانجليزى وتقهقره الى الاسكندرية وذلك بفضل المقاومة الشعبية والتي تكفل بها الشعب وحده دون أى مساعدة عسكرية حتى من الوالى محمد على نفسه لأنه عندما وصلت أخبار الغزو الى الوالى محمد على تباطأ فى الحضور والتجدة فلما صدرت الأوامر « بتحصين الثغور أرسل الباشا سليمان أغا ٠٠٠ الى أهالى الثغور اذا كانوا محتاجين الى عساكر فيرسل لهم الباشا » فأجاب أهل رشيد بأن فيهم الكفاية ولا يحتاجون الى عساكر زيادة تأتيهم فانهم اذا كثروا فى البلد تأتى منهم الفساد والافساد » (*) .

واحتفلت القاهرة ينصر اخوانهم ثوار رشيد وخرج أهالى القاهرة للفرجة على أسرى الانجليز وكان منهم ضابطين كبيرين وكثير من جرحاهم . وبعد وصول أخبار انتصار أهل رشيد وصلت أخبار من المسئولين فى رشيد بأن الانجليز يستعدون للانتقام ويحشدون قواتهم مرة أخرى لمعاودة القتال عند رشيد فاستنفر الشيوخ وفى مقدمتهم السيد عمر مكرم أهل القاهرة للتطوع للقتال (١١٠) .

معركة الحماة (٢١ ابريل ١٨٠٧)

« وفى يوم السبت (١١ ابريل ١٨٠٧) ثانى صفر (١) وردت مكاتبة أيضا من ثغر رشيد وعليها امضاء على بك السلانكى حاكم الثغر وطاهر باشا وأحمد أغا المعروف ببونابرت ٠٠٠٠ ويذكرون فيه أن الانجليز ملكوا كوم الأفراح وأبو مندور ويستعجلون النجدة » .

(أولا) قهر الأقلية للأغلبية

(وفى يوم الخميس غايته) ورد مكتوب من السيد حسن كريت نقيب الأشراف برشيد يذكر فيه « أن الانجليز لما وقع لهم ما وقع برشيد ورجعوا فى هزيمتهم الى الاسكندرية استعدوا وحفروا الى ناحية حماة قبلى رشيد (١١١) ومعهم المدافع الهائلة والعدد ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر الى الجبل عرضا وذلك ليلة الثلاثاء ثامن وعشرين ٠٠٠ ونرجو

(١) الجبرتي جزء ٤ ص ٤٧ ، ص ٥٠ .

(*) الجبرتي جزء ٤ ص ٤٤ .

(١١٠) الجبرتي جزء ٤ ص ٤٧ .

(١١١) نفس المصدر السابق ص ٥٠ .

الاسماف والامداد بالرجال والجبخانة والعدة والعدد وعدم الثاني
والاهمال .

(ثانيا) شعور الأغلبية بتعسف الأقلية

(ثالثا) تجاوب المؤسسة الوطنية

« فلما وصل ذلك الجواب قراه السيد عمر مكرم (١١٢) (النقيب
وزعيم المؤسسة الوطنية) وحثهم على التأهب والخروج للجهاد فأمثلوا
(المقاومة الشعبية) ولبسوا الأسلحة وجمع اليه طائفة المغاربة وأتراك
خان الخليلي وكثير من العدوية والأسبوطية وأولاد البلد وركب في صبحها
الى كتخدا بك (وكيل محمد علي) واستأذنه في الذهاب « وذهب الكثير
من المتطوعين المجاهدين من شعب القاهرة (الثائر) الى منطقة القتال
بالقرب من رشيد (الحماد) وكانت الحملة الانجليزية في هذه المرة
بقيادة الجنرال سيتوارت ووصل محمد علي الى القاهرة من الصعيد في
١٢ ابريل ١٨٠٧ وأطلع على الأنباء فأمر بعمل الاستحكامات حول القاهرة
واستعان بالشعب وقادته في الاسراع في عمل التجهيزات الدفاعية تحسبا
لاى تقدم انجليزى مستقبلا ، وفي نفس الوقت أخذ يجهز قوة كبيرة
وعاونه السيد عمر مكرم في جمع التبرعات الشعبية لنفقات الجيش الذى
كان يلح أهل رشيد في طلبه للنجدة وتم تجهيز أربعة آلاف مقاتل من
المشاة والفرسان وساروا قاصدين رشيد بقيادة
طبوز أوغلى (١١٣) (كتخدا بك نائب محمد علي) . أما جيش الجنرال
سيتوارت فكان عدده أربعة آلاف مقاتل قد تمكن من احتلال حماد جنوب
رشيد في أول ابريل بغرض تطويق رشيد وذلك في عام ١٨٠٧ ثم احتل
مرتفعات (أبى مندور) ونصبوا عليها المدافع لضرب رشيد وحصارها
ومنذ ٧ ابريل ١٨٠٧ بدأ ضرب رشيد بالمدافع وأندر القاذب البريطانى
الأهالى بالتسليم ولكن الأهالى صمدوا وصمموا على المقاومة بالرغم من فداحة
الخسائر ، وكان عدد لا يستهان به من الفدائيين المجاهدين من الأهالى
يخرجون من آن لآخر من المدينة لمناوشة القوات البريطانية واستمر الحصار
والضرب نحو اثني عشر يوما دون أن يفوز الانجليز حتى ببوار النصر (١١٤) .
وقال الجنرال سيتوارت في خطاب أرسله الى قائده فريزر « قد تبين لنا
ان الأعداء (شعب رشيد) لا يكثرثون بالمصائب التى تنزل بهم وأغلبهم

(١١٢) الجبرتي جزء ٤ ص ٥٠ .

(١١٣) كتخدا بك هو محمد بك لاط المشهور بـ « لاط أوغلى » وهو قائد مذهبة القلعة
ومنفذها ضد المماليك لحساب محمد علي .
(١١٤) عصر محمد علي للرافعي ص ٦٩ عن وثائق الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ للمسيبو
دوان رقم ٤٦ .

من الأهالي المسلحين «... وصمدت رشيد الى ان جاء المدد الذي أرسله محمد على وعمر مكرم في صباح يوم ٢٠ ابريل ١٨٠٧ وتقدمته طلائع الجيش المصري من الفرسان (من فرقة حسن باشا) وساروا في اتجاه مواقع الانجليز في الحماة وبمجرد ان أشرف فرسان الجيش المصري على الحماة انسحب الانجليز دون نظام وأحاط بهم فرسان القوات المصرية وأحدثت بهم خسائر كبيرة وحضر على أثر ذلك مدد للقوات الانجليزية ووصلت الى الحماة ولكن دفاعهم لم يكن من المناعة بحيث يصمد لهجمات القوات المصرية المتفوقة عددا وعده واستماتت قوات الانجليز في الدفاع على أمل أن يصلهم المدد من المماليك كما كان الاتفاق بينهما . وصمم الجنرال ستيوارت على انه اذا لم تصله النجدة من المماليك ان ينسحب قبل أي اشتباك وذلك في غضون ٢١ و ٢٢ ابريل ولكن قوات لاظ أوغلي (طبور أوغلي) تمكنت من عبور النيل يوم ٢٠ ابريل ليلا وبقوات كثيرة العدد وانضموا الى فرقة حسن باشا وحصلت المفاجأة لقائد الجيش الانجليز (كولونيل ماكلود) وذلك عندما أصبح يوم ٢١ ابريل ولا حظ ان القوات المصرية قد تكاثرت عددها وامتلا السهل برجالها ، وبلغ ذلك الى الجنرال ستيوارت فأمره بالانسحاب الى مواقع الجيش الانجليزي حول رشيد ، ولكن فرسان القوات المصرية انسحبوا من السهل وقطعوا المواصلات بين الحماة ورشيد وتفرقت قوات الانجليز وتمكنت فرسان المصريين من الفتك بهم في الوقت الذي تمكنت منه مشاة المصريين من احتلال الحماة . وطاردت قوات الفرسان المصرية قوات الانجليز المنسحبة فقتل معظم رجال الانجليز وقتل معهم قائد المعركة (الكولونيل ماكلود) وطاردت القوات المصرية ميمنة الجيش الانجليزي أيضا فقتل معظم جنودها وقائدهم (الكابتن ترلتون) ولم يبق من قوات هذه الميمنة سوى خمسون جنديا وقعوا جميعا في الأسر . وأما الميسرة الانجليزية فلم ير قائدها (الميجور جلستند) بدا من التسليم فسلم هو وبقيّة قوات الانجليز . وكان هذا هو ختام المعركة - فسارع الجنرال ستيوارت برفع الحصار عن رشيد بعد تأكده من هذه النكبة وبادر بالانسحاب قبل أن تنقض عليه القوات المصرية . ولكن الأهالي قاموا بهذه المهمة وأجندوا بالقوات الانجليزية المنسحبة دون تسليم أعظم الخسائر .

ولما بلغت قلوب قوات الجنرال ستيوارت أبي قير كانت في غاية الاجهاد واستقل الجنرال ستيوارت هو ومن بقي معه من قوات السفن الانجليزية الى الاسكندرية . ووصل محمد على الى دمنهور على رأس جيش من ثلاثة آلاف مقاتل وألف من الفرسان والتقى هناك مع الجنرال الانجليزي (جنرال شيربروك) والمفوض من القائد الانجليزي فريزر لابران معاهدة الصلح التي تمت في ١٤ سبتمبر ١٨٠٧ وتضمنت بجلاء الانجليز نهائيا عن الأراضي المصرية من الاسكندرية في مقابل استرجاع

أسراهم وجرحاهم ونفذ محمد على هذا الشرط وتم جلاء الانجليز عن الاسكندرية وعن أرض مصر في يوم ١٩ سبتمبر ١٨٠٧ . وكان الفضل أولا وأخيرا يرجع الى الشعب المصرى وقادة الشعب المصرى حيث اعتمدت المقاومة على قوات هذا الشعب ونجحت جميع ثورات مصر وشعب مصر ضد المحتل الفرنسى أولا ثم ضد الحكام المتصلتين من المماليك ثانيا ثم من الولاة الأتراك وجيوشهم ثالثا وفى النهاية تخلصت من الوجود الانجليزى بالكامل بعد أن هزمتهم فى آخر المطاف وانتصرت على حملة فريزر ١٨٠٧ .

هذا الكاتب :

ولد بحلولان الحمامات بالقرب من القاهرة في ٢٨ أبريل سنة ١٩٢١ .

تخرج ضابطا بالجيش المصرى عام ١٩٤٢ ثم درس القانون فى أعقاب التخرج .

شارك فى الدفاع عن مصر خلال الحرب العالمية الثانية .
اشترك فى حرب فلسطين ونال ترقية استثنائية لرتبة اليوزباشى .
أسهم فى العمليات والتنظيمات السرية للضباط الوطنيين منذ الأربعينات .

انتقل للعمل فى جهاز المخابرات المصرية وشارك أثنائها فى تنظيم وإدارة المقاومة ضد قوات الاحتلال بالقتال ونال عقبها على وسام النجمة العسكرية .

وترقى فى المخابرات المصرية الى أن أصبح فى عام ١٩٦٦ نائبا لرئيس المخابرات العامة .

كلف بإدارة الصراع السرى ضد حلف بغداد والحلف المركزى وكذلك إدارة العمليات السرية ضد اسرائيل منذ منتصف عام ١٩٥٧ .

عمل أمينا عاما لأمانة الصحافة والنشر ومشرفا على شئون الأعضاء بالاتحاد الاشتراكى العربى . ثم عين مستشارا فى رئاسة الجمهورية .

ومن مؤلفاته :

- ١ - الاستعمار الجديد والدول النامية .
- ٢ - أبعاد المعركة مع اسرائيل .
- ٣ - كنت نائبا لرئيس المخابرات .
- ٤ - تأملات فى ثورات مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية .

وتحت الطبع :

- ٥ - تأملات فى ثورات مصر (الثورة العراقية) .
- ٦ - تأملات فى ثورات مصر (ثورة ١٩١٩) .
- ٧ - تأملات فى ثورات مصر ارهاصات ما بين ثورة ١٩١٩ وثورات ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .
- ٨ - تأملات فى ثورات مصر ثورة ٢٣ يوليو حتى آخر العدوان الثلاثى .
- ٩ - تأملات فى ثورات مصر ، ثورة ٢٣ يوليو من بعد العدوان الثلاثى حتى وفاة الرئيس جمال عبد الناصر .

فهرس

مقدمة	٥
تأملات في ثورات مصر على ضوء قراءات تاريخية	٩
الكتاب الأول : مقاومة الحملة الفرنسية	١١
تمهيد واجب	٢٧
مصر وحكم العثمانيين	٢٩
الغزو الفرنسي لمصر والتفاعلات الشعبية	٤٥
الحملة الفرنسية وأهدافها	٤٧
ثورة القاهرة الأولى	٦٢
اندلاع الثورة في كل مصر	٨٣
ثورة القاهرة الثانية	١٠٩
مراحل الثورة ضد المماليك	١٣٠
حول أهداف ومعالم الثورة على الحكم التركي	١٤٢
حملة فريزر الانجليزية على مصر ومقاومة الشعب	١٤٤

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٢/٧٤٤٥

ISBN — 977 — 01 — 3122 — 9

تصويبات

رقم الصيغة	رقم السطر	ترتيب الكلمة	الخطا	الصواب
٤٧	الأخير	٢	العبارة	العمارة
٤٨	١٦	٦	الأغلبية	الأقلية
٥٠	٢	٥	الجيزة	البحيرة
٥٦	١٣	٨	بعد اشغاله	بعض اشغاله
٦٣	١٢	٩	انحراق	حرق
٦٧	١٨	٥	لتشكل	لتشكل
٧٣	٤	٣	٥	٤
٨٤	١٧	٤	★	★★
٩٥	١٩	١	ص (١٤١)	ص (٨١)

و (٢٠٠٠) ١٠٠ - ١٠٠٠

٦

تأملات في ثورات مصر كتاب عن ثورة الشعب المصرى
ضد الاحتلال الفرنسى والتي بفضلها تم جلاء هذا المحتل
عن مصر بعد ثلاث سنوات فقط بالإضافة إلى تعريف
بالشخصية المصرية تاريخيا من أيام الفراعنة وتسجيلا
لثورات هذه الشخصية ضد الظلم والقهر على مر التاريخ
ويعتبر هذا الكتاب تسجيلا لثورات مصر في العصر
الحديث بدءا من الحملة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ثم
الثورة على حكام مصر المماليك والأتراك ثم ضد حملة
فريزر البريطانية على رشيد مع اعتبار أن حرب التحرير
هذه في رشيد هي قمة الثورة الشعبية .